"جريئة وجذّابة"
جيسي برتون
مكتبة
ساحرات
پندل
THE *SUNDAY TIMES* BESTSELLER
ستاسي هولز
ترجمة
منى فهمي
ملهمون
MOLHIMON للنشر والتوزيع

مكتبة | 1279

ساحرات پندل

◀ الكتاب: ساحرات پندل
◀ المؤلف: ستاسي هولز
◀ التصنيف: رواية
◀ الناشر: دار ملهمون للنشر والتوزيع
◀ الطبعة الأولى: يناير 2023
◀ التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

◀ الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-39-409-9
◀ إذن طباعة: MC-10-01-6253284

ملهمون
للنشر والتوزيع MOLHIMON

مكتبة 27 7 2023
t.me/soramnqraa

◀ الطباعة: Masar Printing & Publishing, Dubai

darmolhimon
www.darmolhimon.com
0097165551184
SILICON OASIS, 20TH FLOOR (SIT TOWER) - OFFICE 2004, Dubai, UAE

ستاسي هولز

ساحرات پندل

ترجمة: منى فهمي

مكتبة | 1279

ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON

إلى زوجي

Irish Sea
Lancaster Castle
Forest of Bowland
Barton
Pendle Hill
Colne
Read Hall
Halifax
Gawthorpe
Liverpool
Manchester
N
W
E
S
County of LANCASTER And the surrounding area
5 10 15 20 25

الجزء الأول

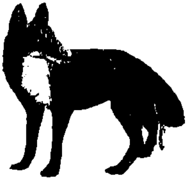

مقاطعة لانكاستر (لانكشر حاليا)،

باكورة نيسان، 1612م

عَلِّمْهَا جَيِّدًا تَعَقُّبَ الدَّمِ، أو تَخْرُجْ عَنْ طَوْعِك وَتُصْبِحْ أَنْتَ تَابِعَهَا.

كتاب الصيد بالصقور أو الشياهين،

جورج توربرفيل، 1597-1543

الحكمة والعدالة

شعار عائلة شاتلوورث

الفصل الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

غادرتُ المنزل مع الخطاب، لأنه الشيء الوحيد الذي ارتأيتُ فعله في تلك اللحظة. كان عشب الحديقة مبللا بندى أواخر الصباح، الذي بلَّل خفِّي الحرير الوردي المفضل لديَّ، ذاك أنني لاستعجالي لم أفكر في ارتداء نعلين. لكنني لم أتوقف حتى وصلت إلى الأشجار المطلة على المروج أمام المنزل. كنتُ قد أحكمتُ قبضتي حول الخطاب، فبسطتها مرة أخرى لأتأكد من أنه لم يكن شيئا تخيلته، لم يكن حلما راودني في غفوة أخذتها على مقعدي.

كان صباحًا في هواءه لسعة، ضبابيًا وباردًا مع رياح تهب مُسرعة من أعالي تل پندل، ورغم ذهني المضطرب، إلا أنني تذكرتُ تناول عباءتي من مكانها في آخر خزانة الثياب. ومنحتُ پاك تربيتة روتينية وسرَّني أن رأيتُ يداي لا ترتعشان. لم أبكِ أو أفقد وعيي ولا فعلتُ أي شيء سوى إعادة طي الخطاب الذي قرأته، ونزلتُ السلم بهدوء. لم يرني أحد، وما رأيتُ من خدم سوى لمحة سريعة من جيمس جالسًا إلى طاولته أثناء مروري بغرفة مكتبه. خطر لي أن يكون قرأ الخطاب بدوره، كما جرت العادة في أن يفضَّ الوصيف مراسلات سيده، لكنني صرفتُ

الفكرة سريعا وغادرت من الباب الرئيسي.

كانت الغيوم بلون الأباريق القصديرية ما أنذر بانهمار الأمطار، لذا أسرعتُ الخطى عبر مساحة العشب التي تقع الغابة في نهايتها. كنتُ أعرف أن عباءتي السوداء ستجعلني واضحة لأعين الخدم المتطفلة خلف النوافذ، وكنتُ بحاجة للتفكير. في هذا الجزء من لانكشر، الأرض خضراء وخَضِلة، والسماء فسيحة ورمادية. بين الفينة والأخرى، يمكن للمرء أن يلمح وميض صوف غزالة أحمر، أو رقبة ديك برِّي زرقاء، فتكون سرعة انجذاب أنظاره إليها أسرع من قدرتها على الاختفاء.

قبل أن أصل إلى المخبأ الذي ستضمنه لي الأشجار، عرفتُ أنني سأتقيَّأ مرة أخرى. رفعت طرف ثوبي بعيدًا عن المكان الذي تناثر فيه القيء على العشب، ثم استخدمت محرمتي لمسح فمي. كان ريتشارد قد أمر الخادمات برشها بماء الورد. أغمضتُ عيني وأخذت عدة أنفاس عميقة، وعندما فتحتهما شعرت بأنني أفضل قليلا. تمايلت الأشجار وغرَّدت الطيور بمرح فيما واصلتُ أنا مسيري في أعماق الغابة، وفي أقل من دقيقة لم يعد أثر لجوثورب. كان المنزل يلفت الأنظار كما كنتُ أنا وسط الخضرة، حيث بُني من حجر ذهبي دافئ ويتوسط مساحة خضراء خالية من الأشجار. ولكن فيما عجز المنزل عن حجب الغابة التي بدا وكأنها تزداد اقترابا كل يوم وتظهر واضحة من أية نافذة، استطاعت الغابة أن تحجب جوثورب. حتى لأشعر أحيانا وكأنهما يلعبان الغُمِّيضة.

أخرجتُ الخطاب مرة أخرى وفتحته، وأنا أملِّس التجعدات التي سببتها قبضتي الصغيرة المضمومة، وبحثتُ عن الجزء الذي جعلني أترنَّح:

بوسعك التكهن دون صعوبة بالطبيعة المتأصلة للخطر الذي كانت زوجتك عرضة له، وإنني لفي غاية الأسف من إبلاغك رأيي المهني كطبيب وخبير في أمور الحمل والولادة: أنني عند زيارتها في جمعة الأسبوع الماضي، توصلت إلى النتيجة المؤسفة جدا والتي مفادها أنها لا يمكن بل لا يجب أن تنجب أطفالا. إنه لمن الضرورة القصوى أن تفهم أنها لو وجدت نفسها حبلى مرة أخرى، فإنها لن تنجو، وسوف يكون في ذلك نهاية حياتها.

الآن وقد أصبحتُ بعيدة عن أنظار أهل المنزل، صار بوسعي إظهار مشاعري في شيء من الخصوصية. شعرتُ بقلبي يدق بعنف، وبوجنتي تشتعلان. اجتاحتني نوبة أخرى من القيء، وكدت أختنق بسببه وهو يحرق سطح لساني.

كنتُ أتقيأ في كل وقت من أوقات اليوم، فيعتصرني التقيؤ اعتصارا. كان عدد المرات التي تقيأتُ فيها يوميا أربعين على الأكثر؛ فإن نقصت إلى مرتين، شعرتُ أني محظوظة. برزت الأوردة في وجهي، مُخلِّفة شعيرات قرمزية دقيقة حول عيني، واللتين تحول بياضهما إلى أحمر شيطاني. كان المذاق الشنيع في حلقي يدوم لساعات، لاذعًا وخانقًا كنصل سكين. لم يستقر طعام في معدتي. لم أملك شهية له على أية حال، وكم أحبط ذلك الطاهية. حتى مرزبانيتي (حلوى اللوز) الحبيبة قد

استقرت في اسطوانات عريضة لم تقطَّع بغرفة الكرار، وعلب السكاكر المرسلة لي من لندن غطاها التراب.

لم أشعر بكل هذا الإعياء في المرات الثلاث السابقة. أما هذه المرة فكأن الطفل الذي ينمو بداخلي يحاول الهرب عبر حلقي وليس من بين ساقي كالباقي، الذين أعلنوا وصولهم المبكر في سيول حمراء انهالت عبر فخذي. كانت أشكالهم الرخوة الصغيرة بشعة، وشاهدت كل واحد منهم وقد لُفَّ في دثار كرغيف خبز طازج.

«لم يدم بقاؤه طويلا في هذا العالم، الطفل المسكين،» هكذا قالت القابلة الأخيرة، وهي تمسح دمي عن ذراعيها الشبيهتين بذراعي قصَّاب.

مُتزوجة أنا منذ أربع سنوات، حبلتُ فيها ثلاث مرات، ولم أضع بعد وريثًا في المهد المصنوع من خشب البلوط الذي أهدته لي أمي عقب زواجي بريتشارد. لقد رأيت كيف نظرت لي، وكأنني خذلتهم جميعًا.

لكنني لم أستوعب أن ريتشارد كان يعرف ما قاله الطبيب، وظل يشاهدني أعلف نفسي كديك رومي قبيل أعياد الميلاد. كان الخطاب وسط حزمة تضم أوراقا عن مرات حبلي الثلاث، لذا ربما لم ينتبه له. هل كان في حجبه خير لي؟ شعرتُ فجأة وكأن الكلمات تلقي بنفسها من الصفحة وتلتف حول عنقي. كلمات كتبها رجل لم أتذكر اسمه، أنا التي كنتُ غارقة في الألم عندما زارني حتى لم أستطع تذكر أي تفاصيل عنه: لمسته، أو صوته، أو لطفه من عدمه.

لم أتوقف لالتقاط أنفاسي، وأضحى خفاي في حال يُرثى لها، مشربِّين بوحل مُخضوضر. علق أحدهما وانخلع، مُرسلا قدمي في جرابها إلى الأرض الخضلة، فكان ذلك أكبر من قدرتي على التحمل. وبيدي الاثنتين، كوَّرتُ الخطاب ورميته بكل قوتي، فشُفي غليلي ولو لبرهة من الزمن وأنا أراه يصطدم بشجرة ويرتد عنها على بعد عدة ياردات.

ولولا أنني فعلتُ ذلك، لما رأيتُ قدم الأرنب على بعد بضع بوصات من المكان الذي استقر فيه، ولا الأرنب صاحب تلك القدم -أو ما تبقى منه على الأقل: خليط مشوه من فرو ودم- ثم ثانٍ، وثالث. لقد اصطدت أرانب من قبل؛ لذا أعرف أن هذه الأرانب لم يفتك بها صقر أو شيهانة بنحرة بسيطة أنيقة قبل أن تلتف وتعود إلى سيدها. ثم لاحظت شيئًا آخر: طرف تنورة بنية تفترش الأرض، وركبتان مثنيتان، وفوقهما جسد، ثم وجه، ثم قلنسوة بيضاء. كانت شابَّة تجثو على بعد عشرة ياردات، وتحدق في وجهي. كل تفصيلة فيها كانت مُتحفزة تحفزا يشوبه توتر حيواني. كانت هيئتها رثة في ثوب ريفي من الصوف بدون مريلة، لذا لم ألحظها فورا وسط كل هذا الأخضر والبني. من قلنسوتها انسدل في خصلات لولبية شعر بلون الكتان. كان وجهها طويلا ونحيلا، وعيناها واسعتان، لونهما عجيب حتى من مسافة بعيدة: ذهبي دافئ، كالعملات المعدنية الجديدة. تنبعث منهما نظرة حادة الذكاء، وأقرب للذكورة، ورغم أنها كانت تجثو على

الأرض وكنتُ أنا واقفة، إلا أنني شعرت بالخوف للحظة، وكأنني من ضُبط متلبسا وليست هي.

من بين يديها تدلى أرنب آخر، تسمرت فوقي واحدة من عينيه دون أن تطرف. كان فروه ملطخًا بالأحمر. وعلى الأرض بجوار تنورة المرأة، استقر جِوال سيء الصنع مفتوحا. نهضت الشابة. وحفت أوراق الشجر والعشب بفعل نسيم من حولنا، لكنها لم تتحرك قيد أنملة، تعابير وجهها جامدة. إلا أن الأرنب الميت صدرت عنه أرجحة خفيفة.

سألتها، «من تكونين؟ وماذا تفعلين هنا؟»

شرعت تجمع الأرانب في جوالها. واستقر خطابي المكوَّر أبيضا وساطعا وسط المذبحة، توقفت عندما رأته، أصابعها الطويلة تحوم حوله، ملطخة بالدماء.

صحتُ بغضب، «أعطنيه.»

فالتقطته، ومدَّت يدها به من حيث تقف، وفي بضع خطوات واسعة سريعة انتزعته منها. لم تتحول العينان الذهبيتان عن وجهي، وقلتُ لنفسي أنه لم يحدث قط أن أطال غريب النظر لي بهذا الشكل. راودني لبرهة تساؤل عن منظري الآن، بدون حذاء خروج وأحد خفيَّ مُلقى في الوحل. كان وجهي متوردا بلا شك بسبب التقيؤ، وبياض عينيّ أحمر. ومذاق الحمض في فمي جعل لساني لاذعا.

«ما اسمك؟»

لم تُجب.

«هل أنتِ شحاذة؟»

هزت رأسها نفيا.

«هـذه أرضـي. إنـكِ تصطاديـن الأرانـب دون حـق فـي أرضـي؟»

«أرضك؟»

كسـرت نبـرة صوتهـا غرابـة الموقـف كحصـاة ألقيـت فـي بركـة. كانـت مجـرد فلاحـة عاديـة.

«أنـا فليتـوود شـاتلوورث، سـيدة قصـر جوثـورب. هـذه أرض زوجـي؛ ولـو كنـتِ مـن باديهـام، لعرفـتِ ذلـك.»

«لست كذلك،» هو كل ما قالت.

«أتعرفين عقوبة الصيد في غير ملكك؟»

تفحصتنـي مـن رأسـي وحتـى أسـفل قدمي مختلسـة النظر إلـى عباءتـي السـوداء السـميكة، وثوبـي التفتـا النحاسـي. كنت أعـرف أن بشـرتي باهتـة، وقـد أضفـى عليهـا شـعري الأسـود شـحوبا، ولـم أكـن أتمنـى أن يُذكِّرنـي بذلـك شـخص غريـب. اشـتبهتُ فـي أننـي أصغـر منهـا، لكننـي عجـزتُ عـن تخميـن سـنِّها. بـدا ثوبهـا القـذر وكأنـه لـم يُفـرَّش أو يُهـوَّى من شـهور، وكانـت قبعتهـا بلـون صـوف الغنـم. ثـم وقعـت عينـاي علـى وجههـا، وقابلـت نظراتهـا نظراتـي، ثابتـة وفخـورة. عقـدتُ حاجبـيَّ ورفعـت ذقنـي. كنـتُ بطـول أربعـة أقـدام وإحـدى عشـر بوصـة، دائمـا أقصـر مـن كل مـن قابلتهـم، إلا أننـي لـم أكـن بالضـرورة سـهلة الإرهـاب.

«كان زوجـي سـيُكبِّل يديـكِ إلـى حصانـه ويجـركِ إلـى العمـدة،» قلتهـا بجـرأة أكبـر ممـا شـعرت. وعندمـا لـم تـرد، وانقطـع كل صـوت عـدا هسـيس وارتجـاف الأشـجار، سـألتها مـرة أخـرى، «هـل أنـتِ شـحاذة؟»

«لستُ كذلك.» ثم مدَّت الجِوال. «خذيهم. لم أكن أعرف أنني على أرضك.»

كان جوابها غريبا، واحترتُ فيما سأقوله لريتشارد، ثم تذكرت الخطاب في قبضتي. واعتصرته بقوة.

«بماذا قتلتهم؟»

أخذت نشفة بأنفها. «لم أقتلهم. هم قُتلوا.»

«يا لطريقتكِ العجيبة في الكلام. ما اسمك؟»

لم أكن قد وصلت لآخر سؤالي، حتى استدارت في ومضة هي خليط من الذهبي والبني وركضت بعيدًا عبر الأشجار. وقلنسوتها البيضاء تحلق بين كتفيها، والجِوال يرتد عن تنورتها. كانت قدماها تضربان الأرض، بسرعة ورشاقة حيوان، قبل أن تبتلعها الغابة بالكامل.

الفصل الثاني

كان صوت زنار ريتشارد يسبقه في أي مكان. أعتقد أن هذا منحه شعورا بالنفوذ - كنتَ تسمع نقوده قبل أن تراها. وإذ سمعتُ الآن الصلصلة المألوفة ووقع حذائه المصنوع من جلد الماعز على الدَّرج، أخذتُ نفسًا عميقًا ونفضت غبارا وهميًا عن سترتي. نهضتُ إذ ولج الغرفة، مشرقًا ومُنتعشا إثر رحلة عمل إلى مانشستر. انعكس الضوء على قرطه الذهبي. ولمعت عيناه الرماديتان.

«فليتوود،» حيَّاني، مُحيطا رأسي بيديه.

عضضتُ على شفتي التي قبَّلها. هل سيخرج صوتي ثابتا يا تُرى إن تحدثتُ؟ كنا في غرفة تبديل الملابس، التي عرف أنه سيجدني فيها. وكانت هي الغرفة الوحيدة التي شعرتُ أنها تخصني، رغم أن أحدا لم يسكن في جوثورب قبلنا. رأيتها فكرة حداثية من عم ريتشارد، أن يضيف أثناء تصميمه هذا المنزل، غرفة مخصصة لارتداء الملابس مع أنه لم يملك زوجة. لو كانت النساء تصممن المنازل، لأصبحت غرفة تبديل الملابس جزءا لا يقل أهمية عن المطبخ في الرسومات الهندسية. وإذ أني في الأصل من منزل حجري بلون الفحم تحت سماء رمادية، فقد جعلني

جوثورب، بلونه الغني والدافئ وكأن الشمس تشرق فوقه دائما، ونوافذه المتلألئة كجواهر تاج بطول ثلاثة طوابق، والبرج في المنتصف، جعلني أشعر أقرب لأميرة مني إلى ربة منزل. وفي ذلك الوقت قادني ريتشارد عبر متاهة من الغرف، وقد شعرتُ بالدوار مع كل الطلاء الحديث والألواح البرَّاقة والأروقة الصغيرة المكتظة بعمال الديكور والخدم والنجارين. كنت أميل إلى البقاء أعلى المنزل، في منأى عن الجميع. لو كان لي رضيع بين ذراعيَّ أو طفل أنزل به لتناول الفطور، لأصبح شعوري مختلفا، ولكن حيث أن الحال ليست كذلك، فقد لزمتُ غرفتي وركن ملابسي، بإطلالتها رائعة على نهر كالدر المتدفق وتل پيندل.

قال، «تتحادثين مع ملابسكِ مجددا؟»

«إنهم رفاقي الأوفياء.»

استفاق پاك، كلبي الضخم من فصيلة الدرواس الفرنسي، من فوق السجاد التركي، فتمطَّى وتثاءب كاشفا عن فك من اتساعه حتى ليكفي لإدخال رأسي فيه.

«أيها الوحش المخيف،» قالها ريتشارد، وهو يقترب ليركع بجانب الكلب. «قريبا لن تصبح وحدك من يحصل على تدليلنا. سيكون عليك مشاركته.» ثم تنهد واعتدل على ركبتيه، مُرهقا من طول الرحلة. «هل أنتِ بخير؟ ومُستريحة؟»

أومأتُ، وأنا أدسُّ خصلة من شعري تحت قلنسوتي. أصبح مؤخرا يتساقط في كتل سوداء كبيرة عندما أمشِّطه.

«تبدين مهمومة. أنتِ لم... لستِ...»

«أنا بخير.»

الخطاب. اسأليه عن الخطاب. علقت الكلمات ثقيلة في حلقي، سهما متأهبا على حافة قوس مشدود، لكن الارتياح هو كل ما بدا على وجهه الجميل. ثبتُّ عيني في وجهه للحظة أطول من اللازم، وأنا أعلم أن فرصتي في سؤاله تمضي، تنزلق من بين أصابعي مثل حبات الرمل.

«حسن، كانت رحلة مانشستر ناجحة. لا ينفك جيمس يظن بوجوب مرافقتي في هذه الرحلات، لكني أبلي حسنا بمفردي كما لو كان معي. ربما يثير سخطه أنني فقط نسيت تدوين وصولات الاستلام؛ لكنني أخبرته أنني أحفظها في رأسي تماما مثلما لو كنتُ حفظتها في سترتي.» سكت قليلا، متجاهلًا پاك الذي يتشممه. «إنكِ هادئة.»

«ريتشارد، لقد قرأت رسائل القابلة اليوم. والطبيب الذي ولَّدني آخر مرة.»

«ذكَّرتني.»

ثم مدَّ يده عميقا في سترته المصنوعة من القطيفة الزمردية، وأشرق وجهه بحماسة طفولية. انتظرتُ، وعندما أخرج يده أسقط في يدي جسما غريبا. كان سيفًا فضيًّا صغيرًا، بطول فتاحة رسائل، ومقبضه ذهبي برَّاق. لكن نصله كان ثلما وتتدلى من كل مكان فيه كرات صغيرة تتدلى من شناكل منمنمة. قلَّبتها في راحتي فأحدثت رنينًا مُبهجا.

«إنها خشخيشة». تهلل وجهه وهو يهزها فصلصلت مثل خيول تتوقف في نهاية الطريق. «إنها أجراس، انظري. إنها لابننا.»

لم يحاول حتى إخفاء اللهفة في صوته. تذكرتُ الدُّرْج

الذي أبقيته مُقفلا في واحدة من غرف النوم. في داخله نصف دستة من الأغراض التي اشتراها في المرات السابقة - جزدان حرير يحمل أول حرفين من اسمينا، حصان عاجي يناسب مقاسه راحة اليد. وفي الدهليز الطويل، كانت هناك حُلَّة فارس معدنية اشتراها احتفالا بأول مرة تكوَّرت فيها بطني. كان إيمانه بأننا سننجب طفلا إيمان واضح وقوي كمجرى النهر، حتى عندما كان يتاجر بالصوف في بريستون ومر بتاجر يبيع دمى حيوانات؛ أو عندما كان عند الخياط الخاص بنا ورأى لفة قماش حرير بنفس لون لؤلؤ المحار. في آخر مرة، كان هو فقط من عرف نوع الجنين، ولم أسأل، لأنني لم أصبح أما في نهاية المطاف. كل هدية قدمها لي زوجي كانت دليلا على فشلي، ووددتُ لو أحرقهم جميعًا وأشاهد الدخان يخرج من المدخنة ويغيب في السماء. فكرتُ في مآلي بدون زوجي، وامتلأ قلبي بالحزن، لأنه منحني السعادة، وكل ما منحته له هو ثلاث خسارات، انطفأت أرواحهم مع أرق نسمة.

حاولتُ لمرة أخرى. «ريتشارد، ألا تملك شيئا تريد إخباري به؟»

ومض قرط ريتشارد إذ تمعَّن بي. تثاءب پاك واستقر على البساط. نادى صوت عميق باسم ريتشارد من الطابق الأرضي البعيد.

فقال، «روجر في الأسفل. يجب أن أذهب إليه.»

وضعتُ الخشخيشة على الكرسي، مُتلهفة للتخلص منها، وتركتُ پاك يتشممها بفضول.

«سأنزل إذن.»

«لقد صعدتُ لأبدِّل ملابسي فقط؛ سنذهب للصيد.»

«لكنك على سفر طوال الصباح.»

ابتسم. «ليس الصيد سفرا، إنه صيد.»

«سأذهب معك إذن.»

«أتتحملين ذلك؟»

ابتسمتُ والتفتُّ إلى ملابسي.

*

"فليتوود شاتلوورث! آه يا عيني، يا لشحوبك،» دوى صوت روجر عبر باحة الإسطبل. «إنكِ أبيض من زهرة لبن ولكن أجمل بمرتين. ريتشارد، ألا تطعم زوجتك؟»

«روجر نويل، إنك لتعرف حقا كيف تُشعر المرأة بأنها مميزة.» ابتسمتُ وأنا أمتطي جوادي.

«ترتدين ملابس الصيد. هل أنجزت كل مهامكِ النسائية لهذا الصباح؟»

تصادى صوته على كل عارضة وركن من باحة الإسطبل فيما جلس مُمتطيا جواده، طويلا وعريضا، وقد رفع أحد حاجبيه الرماديين.

«جئت لقضاء وقت مع عمدتي المفضل.»

دفعتُ حصاني بين الرجلين. كان روجر نويل رفيقا ليِّنا، وأعترف الآن أنني ربما كنت مُنبهرة به قليلا، حيث لا أب لي أقارنه به. كان يملك من العمر ما يكفي ليكون أبا لي أو لريتشارد -بل وجدا أيضا- وإذ أنَّ والدانا قد ماتا منذ زمن، فقد أصبح صديقا لنا عندما ورث ريتشارد جوثورب. في

اليوم التالي لوصولنا جاءنا على حصانه مع ثلاثة ديوك بريَّة وبقي طيلة العصر، يشرح لنا طبيعة الأرض وكل من فيها. كنا حديثي عهد بهذا الجزء من لانكشر، بتلاله المتموجة وغاباته الظليلة وسكانه الغريبين، وكان هو وافر المعرفة. تعود علاقة روجر بآل شاتلوورث لسنوات عن طريق عمٍّ لريتشارد مات منذ زمن، وكان كبير قضاة تشستر وأقرب حلقة وصل حصلت عليها العائلة بالأسرة المالكة، واستقر روجر في منزلنا مثل قطعة أثاث متوارثة. لكنه راق لي منذ اللحظة التي قابلته فيها. مثل شمعة توقَّد مُضيئا كل ما حوله، وتأرجح مزاجه بسهولة بين اللحظة والتالية، جالبا الدفء والمعرفة أينما ذهب.

أعلن روجر، «أخبار من القصر: ربما يكون الملك قد وجد أخيرا خاطبًا لابنته.»

أهاجت أصواتنا كلاب الصيد في أوجرتها، وأُخرجت فتزاحمت ولهثت حول أرجل الخيول.

«ومن يكون؟»

"فريدريك الخامس، كونت بلاط الراين. سوف يأتي إلى إنجلترا لاحقا من هذا العام على أمل أن يضع حدا لموكب المهرجين الذين يحاولون خطبة الأميرة.»

سألت، «هل ستذهب إلى حفل الزفاف؟»

«آمل ذلك. سوف يكون أعظم ما شهدته المملكة منذ أعوام عديدة.»

فكرت بصوت عالٍ، «ما شكل الفستان الذي سترتديه يا ترى.»

لم يسمعني روجر من خلف نباح الكلاب، وانتقل هو وريتشارد من الباحة ليبدآ في الصيد. أدركتُ بإبقاء كلاب الصيد في أرسانها أن الفريسة ستكون ذكر أيل، وودتُ لو أنني سألتُ قبلًا. إن ذكر أيل في مصيدة ليس مشهدا لطيفا، بقرنيه المتأهبين للهجوم وعينيه تدوران في محجريهما؛ كنتُ لأفضل تقريبا أي شيء آخر. فكرتُ في العودة، لكننا أصبحنا في الغابة بالفعل فنكزتُ جوادي للأمام. قام الصبي إدموند بدور الحوذي، فسار حذو الكلاب. وإذ سرنا خلل الأشجار، سمعتُ قطفا من حديثهما الخافت وسرتُ بجوادي صامتة خلفهما، وشاردة. حضرتني صورة من اليوم السابق: دم مُراق، وعيون خالية من الحياة، والمرأة الغريبة ذات الشعر الذهبي.

«ريتشارد،» قاطعتهما، «ثمة دخيل كان في أرضنا البارحة.»

«ماذا؟ أين؟»

«جنوب المنزل، في الغابة.»

«لماذا لم يخبرني جيمس؟»

«لأنني لم أخبره.»

«أنت رأيته؟ ماذا كنتِ تفعلين؟»

«كنتُ... أتمشّى.»

«حذرتكِ من الخروج بمفردك، لأنكِ قد تضيعين الطريق أو تتعثرين و... تؤذين نفسك.»

كان روجر ينصت.

«أنا بخير، يا ريتشارد. ولم يكن المتسلل رجلا بل امرأة.»

«ماذا كانت تفعل؟ هل كانت تائهة؟ «

وهنا أدركت أنني لا يمكنني إخباره عن الأرانب لأني لم أجد كلمات تصف ما رأيت.

وفي الآخر قلت، «نعم.»

قال روجر بلهو، «يا لخيالكِ الجامح، يا فليتوود. جعلتنا نظنُّ أن بربريا هاجمكِ في الغابة بينما كل ما هنالك أنها امرأة تاهت فحسب؟»

أجبتُ بخفوت، «نعم.»

«حتى هذا أصبح الآن مشوبا بالخطر – ربما سمعتِ عما حدث لجون لو البائع المتجول في كولن؟»

«لم أفعل.»

«روجر، لا حاجة بكِ إلى إخافتها بحكايات السحر – إنها تعاني من الكوابيس بالفعل.»

فغر فاهي واحتقن وجهي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يخبر فيها ريتشارد أي أحد عن كابوسي، ولم أصدق قط أن يفعل ذلك. لكنه واصل تقدمه، والريشة في قبعته تهتز.

«أخبرني، يا روجر.»

«إن امرأة تسافر بمفردها ليست بالضرورة شخصا بريئا كما تُظهر، وهذا ما اكتشفه جون لو ولن ينساه قط ما حيا – والذي قد لا يطول كثيرا، أسأل الرب رحمته.» استرخى روجر فوق سرجه. «منذ يومين جاءني ابنه إبراهام في ريد هول.»

«هل أعرفه؟»

«كلا، لأنه عامل صباغة من هاليفاكس. لقد أسدى

الصبي لنفسه صنيعا، بالنظر إلى مهنة والده.»

«وقد وجد ساحرة؟»

«كلا، أنصتي.»

تنهدتُ وتمنيتُ أنني لم آت، تمنيتُ لو كنتُ جالسة في غرفة الضيوف مع كلبي.

«كان جون مسافرًا على طريق نقل الصوف في كولنفيلد عندما صادف فتاة صغيرة. حسبها شحاذة. طلبت منه أن يعطيها بضعة ملاليم، وعندما رفض - سكت لإضفاء إثارة على حكايته- «لعنته. أولاها ظهره ولم يجد إلا وهي تتكلم بصوت خافت من خلفه، كمن تحادث أحدا. ما أرسل قشعريرة في ظهره. ظن في البداية أنها الريح، لكنه نظر خلفه، فوجد عينيها الداكنتين مثبتتين عليه، وشفتيها تتحركان. أسرع بالابتعاد، ولم يكن قد يقطع ثلاثين ياردة، حتى سمع وقع أقدام تعدو، ثم هجم عليه شيء عظيم يشبه كلبا أسود، فعضَّه في كل جسده، ووقع على الأرض.»

سأل ريتشارد، «شيء يشبه كلبا أسود؟ قلت سابقًا إنه كان كلبا أسود.»

تجاهله روجر. «وضع يديه أمام وجهه وتوسل طالبا الرحمة، وعندما فتح عينيه كان الكلب قد اختفى. رحل. وكذلك الفتاة الغريبة. وجده أحدهم على الطريق وأسعفه إلى خان قريب، لكنه بالكاد يحرك أطرافه، أو يتكلم. وفقدت إحدى عينيه بصرها، وشُلَّ جانب كامل من وجهه. بقي في الخان، ولكن صباح اليوم التالي

عـادت الفتـاة للظهـور، بـكل صفاقـة، وتوسـلت المغفـرة. تدَّعـي أنهـا لـم تكـن ماهـرة فـي حرفتهـا، لكنهـا لعنتـه.»

«اعترفت؟» تذكرتُ فتاة البارحة. «كيف كان شكلها؟»

«مثـل سـاحرة. نحيفـة جـدا ورثَّـة الهيئـة، بشـعر أسـود ووجـه متجهـم. تقـول أمـي لا تثـق أبـدًا بشـخص أسـود الشـعر لأن روحـه سـتكون فـي العـادة سـوداء كشـعره.»

«أنا سوداء الشعر.»

«هل تريدين سماع قصتي؟»

كانـت أمـي تهددنـي دائمًـا وأنـا صغيـرة بخياطـة فمي. هـي وأم روجـر كانتـا سـتملكان الكثيـر من الأحـاديث لتبادلهـا.

قلتُ، «أعتذر. هل تعافى الرجل الآن؟»

«كلا، وربمـا لا يتعافـى قـط،» قالهـا روجـر بجديـة. «إن هـذا لوحـده أمـر مقلـق، ولكـن ثمـة مـا يُقلقنـي أكثـر: الكلـب. طالمـا يتجـول بحريـة فـي پنـدل، لا أحـد بأمـان.»

أرسـل لـي ريتشـارد نظـرة متشـككة لاهيـة قبـل أن ينطلـق للأمـام ليسـتأنف الصيـد. لـم تخفنـي فكـرة الحيـوان - فـأنـا فـي النهايـة أملـك كلـب درواس بحجـم بغـل. ولكـن قبـل أن أشـير إلـى ذلـك، اسـتأنف روجـر حديثـه.

«بعد بضع ليالٍ من الهجوم الذي تعرض له، استيقظ جون لو في الخان على صوت شيء يتنفس فوقه. كان الوحش العظيم يقف فوق سريره، حجمه حجم ذئب، وأنيابه مُكشِّرة وعيناه حمراوان. عرف أنه روح - لم يكن مخلوقا أرضيا. بوسع المرء تفهم رعبه - رجل عاجز عن الحركة أو الكلام خلا أصوات التأوه. ثم من كانت عند سريره في نفس مكان

الوحش بعد لحظة فقط، عدا الساحرة نفسها.»

شعرتُ وكأن ريشة مُررت على جلدي. «تحول إلى امرأة إذن؟»

«كلا، يا فليتوود، هل سمعتِ من قبل عن خدَّام السحرة؟» نفيتُ بحركة من رأسي. «سأحيلكِ إذن إلى كتاب اللاويين من الكتاب المقدس. وبالاختصار، إنه الشيطان مُتنكرا. أداة، إن شئتِ، لتكبير مملكته. تابعة هذه الفتاة هو كلب، لكنه يمكن أن يتجسد في أية هيئة - حيوان، طفل. يظهر لها عندما تحتاجه لتنفيذ أوامرها، وفي الأسبوع الماضي أمرته بتكسيح جون لو. إن التابعة هو أولى علامات الساحرة.»

«وأنت رأيته؟»

«كلا بالطبع. لا يظهر أتباع إبليس لرجل يتقي الرب. وحدهم من يملكون إيمانا متزعزعا قد يشعرون بوجودهم. الأخلاق الوضيعة هي مرتعهم.»

«لكن جون لو رآه؛ وقد قلت إنه رجل صالح.»

لوّح روجر بيده في وجهي مُتبرما. «لقد فقدنا أثر ريتشارد؛ سيغضب مني لثرثرتي مع زوجته. هذا ما يحدث عندما تنضم النساء لرحلات الصيد.»

لم أذكر أني أنا من أشبعتُ نهمه - لأن روجر طالما في جعبته قصة، فإنه سيحب أن يسردها. انطلقنا في خبب، ثم عدنا إلى سيرنا البطيء عندما عادت منطقة الصيد للظهور. كنا قد ابتعدنا كثيرا عن جوثورب، وإذ أصبحتُ هنا الآن، لم أعد أميل لفكرة إمضاء ظهيرة كاملة على صهوة جواد.

«أين الفتاة الآن؟» سألتُ وقد تخلفنا مرة أخرى.

أصلح روجر وضع قبضته على اللجام. «اسمها أليزون ديڤيس. وهي تحت وصايتي في ريد هول.»

«في منزلك؟ لماذا لم تضعها في زنزانة بسجن لانكستر؟»

«إنها ليست خطيرة حيث هي الآن. لا شيء تملك فعله - لن تجرؤ. كما أنها تساعدني في بعض التحريّات الأخرى.»

«أي نوع من التحريّات؟»

«ربّاه، ما أكثر أسئلتكِ، يا سيدة شاتلوورث. هل ستموت الفريسة إن ظللنا نتحدث؟ إن أليزون ديڤيس من عائلة ساحرات؛ هي من أخبرتني بذلك. أمها وجدتها، وحتى شقيقها جميعهم يمارسون السحر والشعوذة، لا يفصلهم عنا سوى بضعة أميال. كما أنهم يتهمون جيرانهم بالقتل عن طريق أعمال السحر، أحدهم يسكن في أرض شاتلوورث. ولهذا ظننتُ أنه يجدر بزوجكِ هناك أن يعرف بالأمر.»

أشار برأسه إلى المساحة الخضراء الممتدة أمامنا. لم يكن ثمة أثر من جديد لإدموند أو ريتشارد أو كلاب الصيد.

«ولكن كيف تعرف إن كانت صادقة؟ لماذا قد تخون عائلتها؟ لا بد أنها تعرف معنى أن يكون شخص ساحرا - إنه موت مؤكد.»

«أوافقكِ التخمين،» قالها روجر ببساطة، وإن كنتُ استشفيتُ شيئا في ثنايا قوله. بوسعه أن يكون عنيفا ومُستبدا إن أراد؛ رأيتُ ذلك مع زوجته كاثرين، التي كانت من النساء الصبورات. «كما أن جرائم القتل التي زعمت أن عائلتها مسؤولة عنها قد وقعت جميعها بالفعل.»

«هل ارتكبوا القتل؟»

«عدة مرات. إن المرء ليتحاشى أن يتقاطع طريقه بطريق أحد من عائلة ديڤيس. لا تخافي، يا فتاة. إن أليزون ديڤيس في الحفظ والصون، وأخطط لاستجواب عائلتها غدا أو بعد غد. يجب أن أرسل خبرا للملك، بالطبع.» تنهد، وكأن ذلك كان عائقا. «سوف يسره معرفة ذلك بلا شك.»

«ماذا لو أنهم هربوا - كيف ستجدهم؟»

«لن يهربوا. لدي عيون في جميع أنحاء پندل - تعرفين ذلك. لا يتأتى للكثيرين أن يتجاوزوا العمدة.»

«عمدة سابق،» قلتها لأغيظه. «كم تبلغ من العمر الفتاة صاحبة الكلب؟»

«إنها لا تعرف، لكني أظنها في السابعة عشرة أو نحوه.»

«نفس عمري.» وبعد لحظة من صمت مُتأمل، استأنفتُ. «روجر، هل تثق بريتشارد؟»

رفع حاجبا كثيفا. «بحياتي. أو ما تبقى منها - إنني الآن رجل عجوز، أبنائي كبروا ومضت زهوة أيام عملي، للأسف الشديد. لماذا تسألين؟»

كنتُ قد دسستُ خطاب الطبيب في جيبي، بمكان دفين تحت ملابس ركوب الخيل، فنبض قبالة ضلوعي وكأنه قلب ثانٍ.

«لا سبب.»

الفصل الثالث

لم يكن الصوم الكبير قد انتهى بعد، ورغم شهيتي الفقيرة في العادة، إلا أنني اشتقتُ إلى قطعة لحم مطبوخ أو شريحة من الدجاج الطري المملح. مكث روجر للغداء وفرك يديه فيما أحضر الخدم الصحون الفضية التي تحوي سمك الكراكي والحفش. كنت أعرف أنني لن ألمس أيًّا منه، رغم جوعي بعد رحلة الصيد، التي عدنا منها صفر اليدين إذ هبط علينا ضباب البرد. وقد أطبق الآن على النوافذ، وعمَّ البرد حجرة الطعام. قطعتُ خبزي إلى كسرات واحتسيتُ نبيذي، وأنا أتساءل متى يأتي الوقت الذي أستطيع فيه تناول كل شيء في صحني مرة أخرى. لم أكن قد أخبرتُ أحدا من الخدم بحالتي، بمن فيهم سارة التي ساعدتني في ارتداء ثيابي، لكن الطبَّاخة هي دائما أول من يعرف. أما بقية الخدم فكل ما سيرونه هو أني أمد أصابعي إلى پاك، بلقيمات مما يحويه صحني، لكني أفعل ذلك مذ كان جروا. كان كلبي يزداد بدانة في حين ازددتُ أنا انكماشا. علَّق ريتشارد ذات مرة أن پاك يأكل أفضل من معظم سكان لانكستر.

وعندما لم أعد أطيق منظر رؤوس السمك، ذهبتُ إلى

مخدعي لأضطجع. كان الطابق الأخير من المنزل هادئا، بعيدًا عن قعقعة الصحون والسكاكين، وكانت المدفأة قد زُودت بالنيران. عادة ما أسدل الستائر ليخف ألم رأسي، لكني كنتُ أكثر غثيانا وتعبا من أن أفعل، لذا رميتُ نعليَّ واضطجعتُ، مُرسلة أنظاري إلى خارج النافذة ويدي على بطني. كانت ثمة أمور كثيرة تدعو للتفكير هذا الصباح، لكن خطاب الطبيب عاد لتصدر القائمة، فأغشى رأسي كضباب. أفترض أن الأمر في النهاية قد تلخَّص فيمن سينجو: هل سيكون أنا أم الطفل أم أنا والطفل أم لا أنا ولا الطفل؟ لو أن الطبيب موثوق - ولا شك في أنه كذلك - فإن الجنين يكبر حجما مثل ثمرة كستناءة داخل غلاف أخضر شوكي، وسوف يشقني نصفين في النهاية. كان الوريث هو غاية ريتشارد الكبرى، وإن كنتُ فشلت في المرات السابقة، فربما لن أفعل هذه المرة... ولكن هل يكون الثمن حياتي؟ تحبل النساء فتحملن في بطونهن الحياة والموت؛ إنها حقيقة من حقائق وجودنا. ولم تكن الأماني والصلوات بألا أنضم إلى الموتى بذات فائدة أكبر من أمنية المرء أن يصبح العشب أزرقا.

سألتُ وأنا أنظر إلى بطني، «هل ستبقى هناك وتقتلني؟ أم تدعني أعيش؟ هلا حاولنا وعشنا كلينا؟»

ولا بد أن النعاس غلبني لأنني عندما استيقظت كان بجانب السرير إبريق من الحليب. مددتُ يدي لأغمس فيه خنصري وألعقه. كانت أمي تقول دائما إن أجمل الفتيات يملكن بشرة تشبه الحليب الطازج، بضَّة وكريميَّة.

كانـت بشـرتي جانبـه تشـبه رقعـة قديمـة. تذكـرتُ الجلبـة التـي أحدثتهـا أمـي عندمـا جـاء ريتشـارد إلـى بارتـون لأول مـرة مع عمـه لورانـس؛ ولـم تهـدأ، فرفرفت حولـي مثل عثـة.

قالت، «أظهري يديك. أبقيهما مشبوكتين أمامكِ.»

لـم تكـن بحاجـة للقـول إن وجهـي ليـس أفضـل مقوماتـي – فقـد كنـت أعـرف ذلـك بالفعـل. لكـن أيًّا مـن ذلـك لـم يكـن بـذي أهميـة، حيـث كلتانـا عرفـت أن أفضـل مقوماتـي كانـت اسـمي والثـروة التـي جلبهـا. كانـت أمـي تقـول دائمـا إن أبـي شـحيح، لكنـي عندمـا سـألتها لمـاذا نعيـش فـي منـزل مهتـرئ ونتشـارك غرفـة نـوم واحـدة، مطَّـت شـفتيها وقالـت إن منـزلا قديمـا أفضـل مـن واحـد جديـد.

وفـي ليلـة اليـوم الـذي جـاء فيـه ريتشـارد، عندمـا أويـتُ وأمـي إلـى فراشـينا، سـألتني إن كان أعجبنـي.

«وهل هذا مهم؟» هكذا أجبتُ بفظاظة.

«إنـه مهـم جـدا لسـعادتك. فأنـتِ ستعيشـين معـه كل يـوم مـن حياتـك.»

قلـتُ لنفسـي، سـوف ينقذنـي مـن هـذه الحيـاة البائسـة. هـل بوسـعي أن أحبـه أكثـر حتـى لـو حاولـت.

تذكـرتُ وجهـه الجميـل الناعـم وعينيـه بلونهمـا الرمـادي الفاتـح. الحلـي الجميلـة التـي ارتداهـا فـي أذنيـه والخواتـم فـي أصابعـه، والتـي سـيقدم لـي أحدهـا حتـى يمكنـه أن يحملنـي إلـى حياتـي الجديـدة.

كان قد سألني في صالون أمي، «هل تحبين المسرح؟»

وعنـد النافـذة وقـف عمـه ووالدتـي يتحدثـان ويختلسـان

الأنظار إلينا. كنت أعلم أن والدتي مهَّدت الطريق لهذا الزواج، ولكن إن رفض ريتشارد، فلن يكون باليد حيلة.

«نعم،» كذبتُ، حيثُ لم أرتد مسرحا من قبل.

«ممتاز. سنذهب مرة في العام إلى لندن. حيث هناك أفضل المسارح. مرتين، إن أردتِ.»

كيف لا أكون مفتونة وسعيدة بهذا الشاب، الذي لم يعاملني كطفلة مثلما فعل الباقي؟ لم يبرح وجهه خيالي في يقظتي وحتى في أحلامي. حُدِّد موعد الزفاف في الأبرشية، وكنتُ أنتظر بفارغ الصبر أن يحل كل صباح ثم ليله، لأن كل منهم يقربني أكثر. فكرتُ في أي نوع من سيدات المنازل سأكون: طيِّبة وحكيمة، لأنني لم أكن جميلة. وأمَّا في يوم من الأيام يعشقها أطفالها وزوجها. كنتُ لأمنح ريتشارد أيا شيء يطلبه. ستكون راحته شغلي، وسعادته إنجازي. فهو قد وهبني أعظم هدية: قبولي زوجة له، وسوف أعيش ما تبقى من أيامي ممتنة له. سمعتُ أمي تتحرك في سريرها.

وقالت «فليتوود. هل تنصتين لما أقول؟ سألتكِ إن كان ريتشارد أعجبكِ.»

«لا بأس به،» أجبتها، وأطفأتُ شمعتي بابتسامة.

*

نهضتُ بصعوبة، وأطرافي متخشبة، فولجتُ الدهليز الطويل في مقدمة المنزل لأتمشى فيه جيئة وذهابا. ومن دهشتي أن كان روجر هناك، يتأمل شعار النبالة الملكي فوق المدفأة ويداه مشبوكتان خلف ظهره.

«راقب اللّٰه، وقِّر ملكك، اجتنب الشيطان واعمل صالحا. اسع إلى السلام وأحدثه،» سمَّعتُ الكلام المنقوش على الرف من الذاكرة.

«أحسنتِ، يا فليتوود. اعتبريه وعدًا من قاضيكِ.»

«إن لورانس عم ريتشارد هو من طلب صنعه. أظنه أمل أن يصل الأمر إلى مسامع الملك جيمس فلا يشعر بحاجة إلى الزيارة.»

«إن آل شاتلوورث مخلصون للعائلة المالكة بالطبع.» كانت نبرة روجر محفوفة بالتحذير.

«أوفياء كالكلاب.»

استغرق روجر في التفكير. «ومع ذلك فإن مزيدا من الولاء بحاجة إلى إظهاره. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟»

«لا أظنه نقصا في الولاء بقدر ما هو في الثقة. وأضف إلى ذلك أنه لا بد سيتجنب هذه المناطق، مع معتقداتها القديمة.»

"إن هذه البقعة من المملكة تسبب لجلالته قدرًا كبيرًا من القلق. يمكن فعلِ الكثير لتوقير الملك واجتناب الشيطان.» مال للأمام وقطَّب جبينه. «لم أكن قد لاحظتُ الكلمات حول شعار الملك. ماذا تعني؟»

«قُبحًا لمن يُضمر شرًّا.»

تمعَّج وجهه، وكأنه يتأمل الكلام.

«حقا. ولكن يضمر شرا بماذا، لن يستطيع لورانس إخبارنا أبدا. ربما أسأل الملك نفسه.»

«هل ستذهب إلى البلاط قريبًا؟»

أومأ روجر. «طالب جلالة الملك جميع عُمد لانكشر بعمل بيان بكل من لا يتناول العشاء الرباني في الكنيسة.»

«لأي غرض؟»

«آه، يا فليتوود، لا حاجة بكِ للانشغال بشئون البلاط، فهي بالكاد تؤثر على حياة نبيلة صغيرة مثلك. قومي أنتِ بواجبك وتمنحي زوجكِ الكثير من الصغار الذين يحملون لقب شاتلوورث، وسأقوم أنا بواجبي في حفظ الأمن في پندل.» ولا بد أن الاستياء قد ظهر على وجهي، لأنه شملني بنظرة أكثر عطفا، وقال بوديَّة، «حسن، إن كان ولابدَّ أن تعرفي، فإن جلالة الملك ما يزال... مُنزعجا جدا بعد أحداث مجلس العموم منذ سبعة أعوام. وربما تكونين قد سمعتِ بالفعل إشاعات عن هرب بعض الخونة إلى لانكشر. لا بد من فعل شيء يثبت ولاء المنطقة للتاج، لأن الملك لم يعد يأمن هذه النواحي من الشمال، ومن فيها من متمردين على القانون. إنه يعتبرنا زريبة، مقارنة بلوردات الجنوب وسيداته الأرستقراطيين. نحن هنا بعيدون جدا عن المجتمع، وأعتقد أنه خائف. ولكن هل تعرفين من الذين لا يأمنهم أيضا؟»

نفيتُ بحركة من رأسي.

«الساحرات.»

رأيتُ في عينيه ومضة انتصار، واستغرقتُ وهلة لأفهم.

«تقصد أليزون ديڤيس؟»

أومأ روجر. «لو استطعتُ إقناع الملك أن سكان لانكشر يواجهون تهديدا من أكثر شيء يكرهه، فقد يطالنا عطفه، ويقل خوفه منا. لو برزت جهودي في إزالة البذور

الشـريرة، إن صـح التعبيـر، فقـد تنمـو المنطقـة وتزدهـر، ونـنضـم مـن جديـد إلـى المملكـة بسـمعة مختلفـة.»

«لكن هناك اختلافا بين معتنقي الكاثوليكية والساحرات. فالكاثوليك كثيرون هنا، بينما الساحرات قلة.»

«بـل أكثـر ممـا تظنيـن،» قالهـا روجـر ببسـاطة. «كمـا أن الملـك لا يـرى اختلافـا بينهمـا.»

«حسـن، أشـك فـي حاجـة الملـك للقلـق حـول تخزيننـا للبـارود هنـا. المـكان رطـب جـدا.» قلتهـا، وضحـك روجـر. وحينهـا تسـاءلتُ هـل يجـدر بـي أن أخبـره عـن الخطـاب المطـوي عميقـا فـي جيبـي. أم ربمـا هـو يعـرف بالفعـل؟ لكنـي فـي المقابـل سـألتُ، «أيـن ريتشـارد؟»

«لديه شـأن ما مع خادمـه ثم يُفتـرض أن يرينـي شـيهانته الجديـدة قبـل أن يصحبنـي فـي العـودة إلـى ريـد. هـل سـتنضمين إلينـا؟»

«إنـه يقضـي مع ذلـك الكائن وقتـا أكثر ممـا يقضيـه معي. لا، شـكرا. ولكـن أخبـره مـن فضلـك أن يطلـب مـن الخيـاط المـرور علـيَّ، لأنـي بحاجـة إلـى ملابـس جديـدة.»

قهقـه روجـر فيمـا تجاوزنـا مدخـل غرفتـي ووصلنـا إلـى رأس السـلم.

«أنـتِ وزوجتـي كاثريـن مُتنافسـتان متكافئتيـن. ومـع ذلـك، لـن تضاهـي إحداكمـا ريتشـارد. فهـو يملـك أكبـر تشـكيلة مـن بعـد خزانـة ملابـس الملـك.» ثـم سـكت عنـد رأس السـلم. «هـل سـتأتين لزيـارة كاثريـن قريبـا؟ كثيـرا مـا تسـأل عـن صحتـكِ وأحـدث أزيائـك. يعجبهـا رؤيـة مـا يرتديه الشـباب.»

ابتسمتُ وانحنيت له تحية وهو يهبط الدَّرج الذي التفَّ حول البرج، ولكن قبل أن يغيب، ناديتُ اسمه ثانية، لأنني شعرت بألم مفاجئ، وأردت بشدة أن يعانقني عناق أب. كان لروجر بلا شك نفس رائحة دخان الحطب وشعر الأحصنة والتبغ التي قد تفوح من أب، أو هكذا تخيلت. وقف مُنتظرا أسفل صورتي مع أمي وأنا طفلة - تلك التي لم أرغب في تعليقها بالدهليز الطويل ولا أي مكان آخر. ذلك لأن لا أحد سيتوقف على الدرج، ما يعني أن الزوار سيمرون بها وينسون التعليق عليها في الغالب حالما يصلون إلى نهاية السلم. وفي اللوحة، التي في نفس طولي تقريبا، تمركزت أمي في ثوبها القرمزي وياقتها العريضة. وشغلتُ أنا الركن الأيسر، وذراع أمي مثني في اتجاهي وكأنها تهمُّ بإزاحتي من الصورة. استقر طائر سنونو أسود صغير في يدي، فأصبح الأليف الذي كنتُ أحتفظ به في قفص بغرفتي خالدا. ما زلتُ أذكر الصمت الكريه أثناء جلسة التصوير في الردهة الكبيرة في بارتون، والفنان ذي الوجه المدبب وأصابعه الملطخة بألوان الزيت، وذؤابة لسانه المسودة التي برزت من فمه مثل أفعى.

«روجر...» اختنق صوتي داخل حلقي. «هل تظن جون لو سيعيش؟»

قال روجر، «لا تقلقي. ابنه يعتني به.»

عدتُ إلى مخدعي وأنا أتساءل كيف نام روجر نويل في وجود ساحرة بمنزله، واستخلصتُ أنه نام بعمق.

*

كنتُ قد أخفيتُ القدر تحت السرير لحين حاجتي

إليـه وغطّيتـه بقطعـة قمـاش، ومـع ذلـك فقـد جفـل ريتشـارد عندمـا دخـل إلـى مخدعنـا. كنـت راقـدة فـي رداء نومـي، واهنـة وفارغـة، وكان النـذر اليسـير الـذي تناولتـه مـن سـمك الكراكـي معترشـا قـاع الوعـاء. تنهـد ريتشـارد وتقـدم ليركـع جـواري.

«ألا تشـعرين بتحسـن؟ بالـكاد أكلـتِ. كـم أريـد أن تكونـي بخيـر.»

جذبـتُ رداء نومـي حتـى بـرزت منـه بطنـي التـي صـارت رابيـة صغيـرة. حـدق فيهـا ريتشـارد، مُريحـا فـوق النتـوء يـدا رقيقـة. حرَّكـتُ خاتمـه الذهبـي حـول إصبعـه، ذلـك الـذي أهـداه إيـاه والـده ولـم ينزعـه قـط. لـم أسـتطع تحديـد أيهمـا الأسـوأ: الغثيـان الشـديد الـذي شـعرتُ بـه أم حيرتـي إن كان زوجـي يخفـي عنـي هـذه الحقيقـة الضخمـة. ذلـك المسـاء عندمـا جلسـت فـي مخدعـي لا ترافقنـي سـوى الطقطقـات البهيجـة للشـموع، أدركـتُ فـي مرحلـة مـا أن ريتشـارد كان بالطبـع يـرى حيـاة طفلـه أثمـن مـن حياتـي. أليـس هكـذا سـيفعل أي رجـل لديـه الكثيـر ممـا يورثـه؟

سـألته، «ريتشـارد، مـاذا سـيحدث إن عجـزتُ عـن منحـك وريثـا؟»

فكـرتُ فـي زوجـات الملـوك القدامـى، ورقابهـن علـى خشـبة قطـع الـرأس. أيهمـا الأفضـل: مـوت مؤلـم وفوضـوي، والتقلـب فـي فـراش تغرقـه الدمـاء؛ أم نظيفـة ومُسـلِّمة، وترتديـن أفضـل فسـاتينك؟ كان الطـلاق خيـارا قديمـا قـدم الأزل، إلا أن الكلمـة جلبـت خوفـا يسـاوي المـوت.

«لا تقولي هذا. لن يحدث هذه المرة - سيكون الرب كريما معنا. سوف نحضر أفضل القابلات.»

«أحضرنا قابلة في آخر مرة؛ لكنها لم تحل دون خروج الطفل ميتا.»

نهض لخلع ملابسه، قد انعكس ضوء الشموع فوق أزراره، ثم استقر فوق جلده العاري. شاهدته يرتدي قميص نومه، ثم جاء إلى جواري وتناول يدي الباردة وأمسكها، اللون الوردي في مقابل الرمادي. ومع أن صوته كان هادئا، إلا أن القلق لاح على وجهه.

«سوف أنام في غرفة الملابس إلى أن تتحسن حالك.»

انقبضت معدتي. «لا! ريتشارد، أرجوك، أنا أرفض. لن أتقيأ مرة أخرى. سأطلب من الخادمة أن تزيل القدر.»

حاولت النزل من السرير لكن ريتشارد أوقفني.

«سأكون في الغرفة التي جانبكِ تماما إلى أن تصبحي بحال أفضل، والذي سيحدث قريبا جدا...»

«ريتشارد، لا تفعل. أرجوك. لا أحب النوم وحدي، تعرف ذلك - الكابوس.»

عندما استيقظتُ غارقة في العرق ويتملكني الرعب، ضمَّني حتى توقفتُ عن الارتجاف. لم يكن ذلك يحدث سوى بضع مرات في العام، لكنه يعلم أنني سأفزع إن لم أجده.

«أرجوك لا تنم في غرفة الملابس. أرجوك ابق معي، أنا خائفة.»

لكنه قبّل جبيني، وبوجه متألم، غادر وهو يحمل القدر المتسخ على مسافة ذراع. عدتُ للاضطجاع، وأنا

أشعر بالدموع تتجمع في عيني. كان محالا أن يفعل هذا في بداية زواجنا. بعد الزفاف، في منزلنا بشارع ستراند، كنتُ أعجز عن النوم مع الهرج الذي يحدث خارج النافذة. كانت لندن جديدة عليَّ، وكل شيء فيها – لم يسبق لي أن رأيتُ كل هذا العدد من العربات في مكان واحد، أو سمعتُ صيحات المراكبية أثناء عودتهم إلى الشاطئ، والكثير جدا من الأجراس العالية وحشود الناس. كان ريتشارد يجلس معي ليلا، فيقرأ أو يرسم أو يضطجع بدون كلام ممسدا على شعري. وعندما برد الجو وانتقلنا إلى حقول إزلنجتون وسمائها الواسعة، أخبرته أنني اعتدت أصوات شارع ستراند، فأصبحت أعجز عن النوم بسبب الهدوء الشديد. فضحك وقال إنني دُللت كثيرا وأن الحل الوحيد كان أن يصدر أصواتا لأجلي. وليلة تلو ليلة، وحالما أهمُّ بالنوم، كان يصهل في الظلام، أو يطلق نداء لشاحذ سكاكين، أو يتقافز كبائع فحم حرق يديه. ولما أضحك في حياتي كما ضحكتُ في ذلك الوقت. وذات مرة، عندما كان الثلج يتساقط في الخارج والنار ضعيفة في المدفأة، طلبتُ رؤية ما كان يرسمه في كراس رسمي. فأخبرني أن أنتظر لحين انتهائه. راقبته يعمل، ووجهه قد انعقد في تركيز، ويداه تصنعان حركات خاطفة بأصوات ناعمة فوق الصفحة. وعندما أدار الورقة، رأيتُ نفسي. كنت أرتدي قبعة جميلة موشَّاة، وياقة مُقببة جميلة، وخفين إسبانين أنيقين. وتحيط بكتفي عباءة تسربلت من الصفحة،

مكبوسة بأزرار باريسية. كدتُ أشعر بسماكتها.

«ما لونها؟» همستُ، وأنا أمرر أناملي فوق الخطوط.

«العباءة من ساتان مُشجَّر وصوف برتقالي،» قالها بفخر. «سآمر بصنعها غدا. هذا ما سترتدينه في طريق عودتنا. إلى جوثورب.»

لم يفعل أحد من قبل شيئا كهذا لأجلي. وفي نهاية الشتاء، وصلنا إلى المنزل الجديد بالكلية الذي لم يسكنه أحد من قبل، حسب قوله. استغرقت الرحلة تسعة أيام، وكل ما فكرتُ فيه طيلة الطريق هو وصولي إلى لانكشر بصفتي السيدة شاتلوورث، وأنا أرتدي ملابس لم يرها إنسان في هذه النواحي من قبل. وبدا ريتشارد جميلا بنفس القدر في ملابس صممها بنفسه، مُتمنطقا بخنجر وسيف. اصطف القرويون في الشوارع فيما اقتربنا من بيتنا الجديد، ونحن نبتسم ونلوح بيدينا. لكن الصورة في ذهني تغيرت مع الوقت، وكل ما صرتُ أراه هو طفل وطفلة أُلبسا زيا من أجل مسرحية.

أطفأتُ الشمعة وحاولتُ سماع شيء من الغرفة الأخرى. كانت هذه أول مرة في زواجنا، يكون كلانا في المنزل وأنام وحدي.

*

وفي الصباح التالي لم يأتِ إليَّ، إذ نزل لتناول فطوره دون أن يوقظني. قرأ خطاباته بينما جلستُ قبالته، وأنا أحاول إقحام الخبز والعسل في فمي وإبقاءه في معدتي. راقبتُ وجهه يكفهر أو يشرق فيما هو يقرأ؛

لم أسأل عن المُرسل. وإذ تناوب الخدم على الدخول والخروج من غرفة الطعام، تساءلتُ من يا ترى يعرف أن فراشا نقَّالا وملاءات جديدة قد وُضعت في غرفة الملابس المجاورة لمخدعنا. وكأن الجواب قد أتاني، عندما التقت عيناي بعيني واحدة من خادمات المطبخ ثم أشاحت سريعا، وقد احمرت شحمتا أذنيها. شعرتُ بالبرد، وعجزتُ عن الأكل أو الإفصاح عما أريد، لذا ذهبتُ كالجبناء لأتمشى في الدهليز الطويل جيئة وذهابا وأصلي، آملة في إشارة من الرب. تأملتُ السماء والأشجار، وشعرتُ بتلك الرغبة المحرقة في الخروج بدون أفكاري عوضا عن البقاء في الداخل معها.

ولاحقا، وجدتُ ريتشارد في البهو الرئيسي، جالسا مع وصيفه جيمس، وبينهما دفتر حسابات المنزل مفتوحا. كان دفتر حسابات جوثورب في منزلنا بأهمية إنجيل الملك جيمس: كل شيء اشتريناه، وكل فاتورة دفعناها وكل شيء دخل أو خرج من جوثورب، سواء كان تحمله عربة أو ظهر خيل أو برميل، كان مُدوَّنا بالحبر على صفحاته السميكة بيد جيمس المُحصَّنة. بدلات الفرسان المعدنية والمنسوجات الجدارية وغيرها من الأغراض العبثية التي كان ريتشارد يحب إنفاق ماله عليها كانت تُنقل بالحبر، وكذلك اللوازم اليومية: جوارب للخدم، وسدادات الفلين للنبيذ. لكن ريتشارد كان مثلي، لا يعطي لها بالا، فيفضل تركها لرجالنا، ولذا عندما وجدته عرفتُ أنه سيكون مُتبرما؛ حيث الحديث عن الإيجارات والأرباح أصابه بالملل. وكمن يذكره بأن يأخذ

شئون التركة على محمل الجد، استقرت فوقه اللوحة الوقورة لعمه القس لورانس، وقد طُبعت على كتفيه كلمات الموت هو الطريق إلى الحياة.

ازدرتُ لعابي. «ريتشارد؟»

رفع ناظريه سريعا، مُرحبا بالمقاطعة. ثم حدث شيئان في وقت واحد: قلب جيمس الصفحة إلى صفحة جديدة فارغة، رغم أنها لم تكن قد امتلأت لآخرها، ولاحظتُ أن ريتشارد كان يرتدي ملابس السفر.

«ستسافر؟»

"لانكستر. سأغادر الليلة.»

«آه. هل كاتبك أحدهم هذا الصباح؟»

«شقيقاتي فقط بأخبار من لندن. دائما ما يكتبن لي خطابات منفردة، إلا أنها كلها عن موضوع واحد - نفس الأشخاص والمسرحيات وآخر ضحايا الفضائح. لديهن هناك على الأقل من مصادر التسلية أكثر مما في فورسيت عند والدتي. أظنهن لن يرغبن أبدا في العودة إلى يوركشاير. هل تحتاجينني؟»

نعم، أحتاجك.

رنَّ الصمت في الغرفة. اهتزت ريشة جيمس، وطرفها المحبَّر توَّاق للكتابة.

أردت أن أقول «لا تذهب»، لكني في المقابل أجبتُ، «كيف حال سيدات شاتلوورث؟»

«إلينور تلمِّح إلى أمر قد حمَّسها، لكن آن لم تشر إليه قط.»

«ربما خُطبت.»

«ليس الغموض من طبع إلينور.»

«ربما هي ترجو أن تُخطب إذن.»

تنحنح جيمس بتبرُّم.

«سوف أذهب إلى باديهام هذا الصباح لشراء بعض المفارش من متجر السيدة كيندال. هل تحتاج إلى شيء؟»

«لماذا لا تكلفين أحد الخدم؟»

«لن يُحسن شراء ما أريد.»

«هل تشعرين بتحسن كافٍ؟»

حدقت بي عينا لورنس الرماديتين من اللوحة. الموت هو السبيل إلى الحياة.

«نعم.»

لم أكن أريده أن يرحل؛ كان دائما يرحل، وكنتُ دائما أبقى.

«متى تعود؟»

«خلال بضعة أيام. هل تريدين أن أمر على بارتون في طريقي؟»

«لماذا؟ لم تعد أمي تعيش هناك؛ لن تجد سوى غرف خالية وجرذان.»

«يجدر أن أخطف زيارة كل حين وآخر للتأكد من أن كل شيء في محله.»

انتثر جيمس بأنفه وتململ في مقعده. كنت أقتطع من وقته الثمين مع سيده. وربما نظر لي ريتشارد حينها

باهتمام أكبر، لأنه أقبل عليَّ، مُميلا ذقني نحوه بإصبعه.

«وما رأيكِ بأن نرتب رحلة إلى لندن قريبا؟ إلينور وآن أثارتا اشتياقي إليها. بوسعنا الحصول هناك على واحدة من أفضل القابلات، وسوف أصحبكِ إلى المسرح، ويشهد الرب كم أننا محرومون من الترفيه في هذه النواحي. قد يفيد هذا البهو الكئيب بعض البهجة. جيمس، أريدك أن تسأل إن كان ثمة ممثلون يجوبون المنطقة قد يأتون ويقدمون العروض. أو أرسل بطلب أحدهم.» ثم أحاط خصري بذراعه وأمسك بيدي وكأننا سنرقص. رفع پاك قائمتيه نحونا، وهو يصدر نخيرا فضوليا. «وإلا سيكون عليَّ تدريب پاك أن يكون دبًّا راقصا. انظري!»

ثم تركني ورفع الكلب إلى مستواه، حتى استقرت كفَّا پاك العظيمتان على كتفيه وأصبح رأسه الهائل بنفس مستوى رأس ريتشارد. لم يسعني إلا أن أبتسم وهما يتهاديان في رقصة خرقاء، ولسان پاك يتدلى فيما ترنحت قدماه فوق البلاطات قبل أن ينهار على الأرض بلا أناقة. ثم أقبل عليَّ فورا لأكافئه بتربيتة.

قال ريتشارد، «مخلوق عديم الفائدة. سيكون علينا تحسين أدائنا.»

تركني مع جيمس، وترك جيمس مع شئون العمل غير المُنتهية. كنت أعلم أنني لستُ الشخص الوحيد في أهل البيت الذي يهجره زوجي بدون إنذار بسبب مزاجه المتقلب. راقبته يغادر، وأنا أشعر بخفة قبلته على خدي، وثقل كل شيء آخر مثل عباءة مبتلة حول كتفي.

الفصل الرابع

كنتُ قد سمعتُ عن حكيمات، بمقدورهن أن يقدمن لامرأة حامل قدحا يحوي مادة تجعلها تنزف فتعود بطنها مسطحة من جديد. تلك الأعشاب والشربات التي تُنزل الجنين، ألا يوجد مثلها مما يجعله يبقى بالداخل، يجعله يعيش؟ كان القليل الذي سمعته في أجزاء مقتطعة من أحاديث كنتُ على هامشها، عندما لم يدرك الخدم أنني أجلس صامتة في الغرفة المجاورة، أو ما يُقال خفية على مائدة عشاء في إحدى القاعات، قبل انتقال الموضوع بسرعة إلى آخر لائقا. ليتَ كانت لي صديقة يمكنني أن أسألها؛ أجد صعوبة في الاستفسار من الصَّيدلية بنفسي.

كانت الرحلة من جوثورب إلى باديهام لطيفة، عبر أشجار تفصل بينها مسافات كبيرة إلى أن تنتقل الأرض بنا إلى الطريق. كان الجو باردا ومشرقا، وحمدتُ الرب أن عباءتي الصوفية السميكة تغطيني. أوثقتُ لجام الفرس خارج متجر الملابس، مُمسدة على عرفها الأسود الفاحم قبل أن أتركها.

«عمتِ صباحا، يا سيدتي،» قالها وجه عابر تلو الآخر للقرويين وهم يمرون بي.

أجبتُ تحيتهم، وأنا ألاحظ نظراتهم الجشعة إلى كل شبر مني، بداية من قبعتي وحتى قفازاتي. كان مُحالا ألا يلحظني أحد.

تلكأتُ عند باب الصَّيدلية، فتخيَّلتُ للحظة أني أدخل المتجر الصغير الضيق والمظلم، بكل روائحه وعشرات القناني المنمنمة والمنسوجات المعلقة على الجدران لصور أعشاب. كان واردا جدا أن أحدهم قد يمنع المرض، يمنع الجنين من الرحيل. يمنعني حتى من الموت. لكن الأمر احتاج إلى لغة مختلفة، لغة لم أكن أتقنها.

طلبتُ المفارش التي أريدها من السيدة كيندال بائعة الملابس وخُيِّل لي أنني رأيتُ عينيها الصغيرتين اللامعتين تنتقلان سريعا إلى بطني. كان يصعب مع القرويين تحديد هل يشتبهون في كونكِ على وشك الولادة أم هم فقط تعجبهم أزرار ثوبك.

«سيدة كيندال،» تخيلتني أهمس. وكانت بلا شك ستشعر بسرية الأمر فتلصق بطنها المكورة بطاولة البيع، وهي تميل إلى الأمام. «هل تعرفين حكيمة؟»

وكانت ستسأل بدهشة، «لأي غرض، يا سيدتي؟»

«لتساعدني في زرع طفل.»

«كل ما تحتاجينه هو زوج لذلك!»

وكانت ستصفع بطنها من تحت المئزر بيديها الحمراوين والدموع تنهمر فوق وجهها المستدير أثناء ضحكها المتواصل. ثم كانت البلدة كلها ستعرف، وقد يصل الأمر إلى خدمي، الذين سيذيعون بدورهم كيف

هجر السيد مخدعي، ولم يمضِ على زواجنا خمسة أعوام. لا، لن يجدي هذا نفعا.

ركبتُ حصاني إلى خارج المدينة واتخذتُ طريقا مختصرا عبر الغابة. كان التفكير هناك أسهل منه في المنزل، الذي ازداد هدوءا عن اللازم في غياب ريتشارد. كنتُ في البداية أجد حجم جوثورب وصمته مخيفين. كنتُ أتبع ريتشارد أينما ذهب، وبدأ يدعوني بالشبح الصغير.

ربما لو كنتُ أكثر حزما، لما كانت الآنسة فونبريك قد جاءت قط. عندما ناداني ريتشارد إلى البهو في ذلك الصباح الربيعي، رأيتُ ظهرها العريض يلتفتُ من حيث كانت تقف عند المدفأة حتى يمكنها أن تتأملني بعينيها الخاويتين اللتين كانتا متباعدتين مثل عيني سمكة. بدا مظهرها وقد كبرتني بعشر سنوات أو أكثر، غير لائق بالمرة- فكانت قبتها مُتهدلة وتحتاج إلى تنشية، وكان ثوبها شديد الضيق. وحتى اسمها لم يكن لائقا، «آنسة فونبريك» هو اسم لشابة جميلة ولعوب، وهي لم تكن هذا ولا ذاك. لكن أكثر ما أثار ضيقي هو كيف أنها وقفت قرب ريتشارد وكأنها عاشت في جوثورب طوال حياتها. كان ريتشارد قد أخبرني أنه وجد لي وصيفة، حتى تؤنسني في المنزل. غمرني الفزع، فملأني تدريجيا وهو يخبرني كيف أنني سأكون مثل إحدى سيدات البلاط، التي لها نساء يجالسنها ويشاركنها القراءة أو اللعب والموسيقى. ولم يسعني في خنوعي سوى أن أحدق في يديها، واللتين كانتا ورديتين وجافتين مثل لحم مدخن،

ومشبوكتين برصانة وجزء كبير من رسغيها يظهران مع قصر كمَّيها. كان ريتشارد يعرف أنني لا أعزف الموسيقى ولا أتمرن على مفرداتي اللاتينية؛ كان يعرف أنني أحب الصيد والخروج إلى الخلاء مع كلبي. أليس كذلك؟

وكنت في ذلك الوقت قد فقدت أول طفل، لكن هذا كان أسوأ. فذهبتُ باكية إلى حجرة الطعام، حيث تبعني ريتشارد، تاركا الآنسة فونبريك تثني مفاصلها المُنتفخة.

«لا أريد حاضنة، يا ريتشارد،» هكذا أخبرته حينها، بصوت متحشرج.

«تفضِّلين أن تكوني وحدكِ؟ فليتوود، إنكِ تخافين من حلل الفرسان المعدنية حسب قولك.»

«لم أعد كذلك.» كانت دموع ساخنة ومالحة تنهمر على خديَّ، وشرعتُ أبكي كالطفلة التي كنتها في ذلك الحين. لم يكن زوجي يراني سيدة للمنزل. قلتُ باكية، «لستُ طفلة، يا ريتشارد.»

ليتَ كان بوسعي أن أذهب الآن إلى تلك الفتاة الوجلة، كنتُ لأركع على البساط التركي وأحتوي يديها الصغيرتين الباردتين في يدي. لو كان بوسعي أن أفعلها سنوات قبل ذلك وأخبرها أن الضيق سيستحكم قبل أن يأتي الفرج، لكنه سيأتي. فهل كنتُ سأصدق نفسي؟

مازلتُ أشعر بالغثيان عندما أتذكر يدي الآنسة فونبريك الحمراوين الخشنتين ووجهها المنتفخ المليء بالبثور. أقامت معنا لثمانية أشهر فقدت فيها طفلين، واحدا تلو الآخر. وعندما بدأ النزيف وتوسلتُ إليها ألا

تخبر ريتشارد، كانت تولي وجهها شطر سيدها لإبلاغه. فيهرع ريتشارد إلى الطابق العلوي ليجدني مُتكورة فوق السرير ألتوي من الألم. ليته لم ير مدى قصوري، ولم ير رغبة الطفل الشديدة في ألا أكون أمه. عندما أجهضتُ لأول مرة، قبل وصول الآنسة فونبريك، كنا نسير في الدهليز الطويل، ونناقش طلب تنفيذ لوحتين لنا، وحينها شعرتُ بإحساس غريب لشيء يُسحب مني، وظننتُه فتقا. لم أكن أعرف ما يحدث، ولم أكن أعرف حتى أنني كنتُ حُبلى، ووضعني ريتشارد في الفراش وغسلني بخرقة دافئة وأطعمني مرقا ومارزيبان. كان حزينا، وإنما مسرورا في نفس الوقت لأنني حبلت.

«سوف ننجب طفلا بحلول أعياد الميلاد!» قالها مبتسما، ورددتُ له الابتسامة بوهن، وقد صدقته.

بالكاد شعرتُ بأي ألم في ذلك الحين، بل حب وأسى فقط. ثم جاءت الآنسة فونبريك، وجاء معها قدر عظيم من الألم، ومعه المزيد من الأسى والشعور بالذنب، وكل شيء آخر.

كانت المرة الثالثة هي الأسوأ على الإطلاق. كان ريتشارد مُسافرا، وكنتُ ألاعب پاك فوق العشب خارج المنزل، بشده من عصا أمسكها بين أنيابه. كانت بطني كبيرة في ذلك الوقت، كمن ابتلعت مجسَّما للكرة الأرضية. وكان خط قد ظهر أسفل بطني، وظننتُ بسذاجتي أنه المكان الذي سينشق فيه جلدي ويُسحب منه طفلي عندما يصبح جاهزا. في عصر ذلك اليوم، كنت قد تعثرتُ أكثر

من مرة، وصرتُ ملطخة بالوحل ومبللة، وپاك المرح يقفز فوقي وأنا على الأرض، ويلعق وجهي فيصيبني بالضحك. وأذكر الضحك وهو يموت في حلقي حين رأيت الآنسة فونبريك تراقبني من نافذة حجرة الطعام، ولم تعد الفرحة لوقت طويل بعدها، لأني في ذلك المساء وبينما أرتدي ثوب نومي، عاد الألم من جديد ولم يتوقف لثلاثة أيام. استُدعي طبيب، وحضر ريتشارد من يوركشاير، وفي خضم من الألم والعتمة أذكر الإحساس بشيء يغادرني، وقابلة تحمل ما يشبه أرنبا أبيض من قدميه. لم أغادر فراشي لأسبوعين، وكانت الآنسة فونبريك ظلا خبيثا في الزاوية، وذات يوم اختفت، وعادت مع ريتشارد، الذي صرخ في وجهي لأول مرة في زواجنا.

«ما هذا الذي سمعته عن تمرُّغكِ في العشب كالحيوانات؟ والسماح للكلب بالوطء فوقكِ؟ فليتوود، إنكِ كمن تصر على التصرف كطفلة ولا تريد أن تصبح أمًّا.»

كان وكأنه اتهمني بالقتل. لو أن سكينا كان بجوار خبزي الذي لم أمسسه، أو محراك نار حام كان في المدفأة، لغرزته في صدر الآنسة فونبريك الهزيل، وأثبتُّ صحة اتهامه. وحالما استطاع ريتشارد رؤية الانفعال الذي تثيره في داخلي، وكيف أجزُّ على أسناني حال دخولها إلى غرفة، تعطّف بالتخلص منها بحجة أن وجودها كان يؤدي إلى إجهاضي. وفيما لم أوافقه الرأي، إلا أني لم أختلف معه بالكامل أيضا. كم كنتُ أتهيَّب ظهور وجهها من الباب كل صباح لتساعدني في ارتداء ملابسي، وكم أبغضتُ

المحادثات السرية الخافتة التي تبادلتها مع زوجي، مع الخدم. كانت تحكي لريتشارد عن يومي قبل أن يتاح لي أن أفعل؛ وتتناول منه عباءته قبل أن يُتاح لي الترحيب به. كانت لتحمل بطفله أيضا لو استطاعت. وليلة أن أقالها ريتشارد، وجدتُ فضلات پاك تحت وسادتي، استخرجتها من الأرض وحملتها لأربع طوابق في يديها المُقشَّبتين والمتورمتين. لن أحظى برفقة مرة أخرى؛ كنتُ كمن تملك شقيقة تكرهها.

وفي منتصف الطريق من باديهام، توقف فرسي جافلا عن سيره المنتظم، وقبل أن أفهم ما الذي يجري، بدأت تتراجع وتشب على قائمتيها، وقد دارت عيناها في محجريهما واتسع منخراها. لم أعرف في البداية ما الذي أجفلها وحولي جذوع الأشجار وحفيف الأوراق في جوقة. كنت أعرف أنها تنفر من الوعول وحتى الغزلان، إذ لم تكن فرس صيد. ثم جذبت عينيَّ حركة في المقدمة. كان ثعلب أحمر مضطربا على بعد عشر ياردات، كبير الحجم كظبية صغيرة وممشوقا مثلها. كنتُ أملك ثانية فحسب لأستوعب وجهه المدبب وظهره المستوي بالأرض، وذيله منتصب الشعر مُتسمِّرا في خط مستقيم خلفه. أذكر أن آخر ما فكرتُ فيه قبل أن أسقط هو كيف لم يتأثر برؤيتنا، وكأننا قاطعناه أثناء جلسة تأمل ذاتية.

كان آخر شيء رأيته قبل أن تجمح فرسي مرة ثانية، هو نظرة اللوم في عيني الحيوان الذهبيتين. حدث صدع وأنا أرتطم بالأرض، إذ هبطتُ على معصمي الأيسر

وشعرتُ بعدة أشياء في وقت واحد: الألم في ذراعي، والأرض المخضلة أسفلي، واليقين المتفاقم بأن الفرس سوف تسحقني تحت أقدامها. حيث كانت تهلع وتشب وتقفز على قائمتيها الخلفيتين حول الفضاء الذي كنتُ مُرتمية فوقها. وضعتُ يدي السليمة على بطني وتحدثتُ بهدوء إلى الفرس، لكن حوافرها واصلت ذرع المكان، والعرق يغمر خاصرتيها. صدح معصمي بالألم وحسبتُ أني سأتقيَّأ. حاولتُ رفع نفسي وصرختُ من هول الوجع. كان على بعد ياردتين أو ثلاثة جذع شجرة، فاستندتُ على مرفقيَّ وحاولتُ جر نفسي نحوه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ثعلب لعين، «تمتمتُ. «بغل لعين.»

«لا تتحركي.»

برزت امرأة بين شجرتين. وفي الحال عرفتها - كانت نفس الفتاة الغريبة التي رأيتها في الغابة ذلك اليوم. وهي تتقدم بحذر نحو البهيمة بيدين ممدودتين، لم تتكلم أو تطقطق بلسانها، لكن التأثير الذي أوقعه وجودها كان وكأنها فعلت، بنظرتها الواضحة وقبضتيها الثابتين. كفَّت الفرس عن انتفاضها وخفَّت إلى توقف مُذعن، وعيناها السوداوان تدوران في محجريهما. وفيما ثبتت المرأة الحيوان المتعرق، رأيتُ شعرها الذهبي يتلوى من تحت قلنسوتها، ووجهها الطويل جادًا. كانت يداها ممشوقتين ولكن أكثر نحافة من وصفهما بالأنيقتين.

حاولتُ رفع نفسي مرة أخرى وانقبضتُ من الألم، وفي معصمي نار.

«لا تتحركي.»

تكلمت مرة أخرى بذلك الصوت المنغَّم الخفيض، الذي خفق مثل لهب وسط كل الخضرة. كانت ترتدي الثوب القديم ذاته، ونفس القبعة الصوفية. وإذ ركعت إلى جواري، وجدتُ رائحة خزامى بالرغم من ملابسها المتسخة. وبحرص تناولت معصمي بيديها البيضاوين الطويلتين فصررتُ على أسناني. ثم تركته برفق وهي تنظر حولها، ونهضت وكسرت عودا قصيرا من غصن شجرة قريب. هسَّت الأشجار من حولنا وارتجفت، ولوهلة ظننتُ أنها قد تستخدم العود كسلاح لتهاجمني به. لكنها ركعت مرة أخرى، ومزقت قطعة قماش من مئزرها القذر، وربطت العود إلى معصمي وعصبته بإحكام في ثلاثة مواضع.

ثم أخبرتني، «مجرد التواء. لا شيء مكسور.»

«ماذا تفعلين هنا؟» كان كل ما وسعني قوله. فرمقتني بتلك العينين العسليتين الفضوليتين. «لماذا تهيمين في الغابة لوحدك؟»

فقالت، «ولماذا تفعلين أنتِ؟»

مددتُ يدي السليمة إلى بطني، فتحسستها للتأكد من أن كل شيء على ما يرام. جرت عينيها فوق بطني، المخفيَّة تحت طبقات من القطيفة والبروكار، ثم تنقلت سريعا بين أجزاء وجهي: شفتيَّ الجافتين، وعيناي المحتقنتان وشحوبي الرمادي.

وكما لو أنها وجدت مني رائحة المرض، قالت، «أنتِ حبلى.»

غامت الدنيا، ودارت الغابة من حولي، ثم وكأنما أثارته، انحنيتُ وتقيأتُ فوق جذور شجرة. غمر العرق وجهي ومسحته بكفٍّ موحلة مرتجفة.

سألتني، «تقطنين المنزل الكبير قرب النهر؟»

«كيف عرفتِ؟»

«أخبرتني لما التقينا سابقا. سوف أساعدكِ في العودة، يا سيدة...»

"شاتلوورث. ولا حاجة بكِ لذلك.»

«لا يمكنكِ قيادة فرسك، كما أنكِ ضعيفة. سأقود الفرس.»

«لن أعودَ لركوب هذا البغل الغبي.»

«عليكِ ذلك. هيا.»

ثم ساقت الفرس قريبا مني، وصنعت مُتكئا لقدمي، وبصعوبة رفعتُ نفسي. كانت تنورتي مبللة وموحلة، ولطّخت يديها، لكن لم يبد أنها اهتمت بالأمر، وعلى مضض طقطقتُ للفرس ونكزتها بكعبي وانطلقنا بسرعة خفيفة.

كنا في الربيع، ولن تلبث الأشجار أن تنتصب شامخة وخضراء مثل فرسان الخيالة، وإن كانت رياح آخر الشتاء قد قضمت جذوعها وأسقطت أوراقها. خطر على بالي أن هذه البراعم عندما تصل إلى نهاية رحلتها الممتعة القصيرة، وتتحول إلى اللون البرتقالي وتسقط لتكسو الأرض، فعلى الأرجح أنني لن أكون حاضرة لرؤيتها. أغمضتُ عيني ومضينا في صمت.

ثم قلتُ بعد مدة، «أشكركِ على مساعدتي. كان جسدي سيتحلل بالوقت الذي يجدني فيه زوجي.»

«زوجك؟»

«ريتشارد شاتلوورث. أين تعيشين؟»

بعد سكوت قصير، قالت اسم القرية على بعد بضعة أميال جهة الشمال الشرقي.

«ليست كولن قريبة من هنا. ما الذي أتى بك إلى أرضي مرة أخرى؟»

لو أن صوتي بدا نزقا، فقد قصدتُ ذلك نوعا. لم أكن قد نسيت الأرانب المذبوحة، الجسد المرتخي المتدلي من قبضتها الملطخة بالدماء.

«أهذه أيضا أرضك؟ لم أكن أعرف.»

«ولولا أنكِ كنتِ عليها، لما عشتُ لأروي الحكاية.»

تحركنا في صمت أكثر ألفة، أنا على الفرس، وهي على قدميها. ولم أتساءل سوى لاحقا كيف عرفت الطريق، مع الكثافة الشديدة للأشجار والأرض المتعرجة التي لا تظهر فيها أية دروب محددة. لكنني تركتها تقودني، وقد خفَّ حملي كما الفرس لأن شخصا آخر يتولى القيادة. كان معصمي ينبض بالألم وأسناني مليئة بالحموضة.

سألتني، «هل تشعرين بالمرض مع الحمل؟»

«دائما.»

«أستطيع إعطاءكِ شيئا لتخفيفه.»

«حقا؟ هل أنتِ حكيمة؟»

«أنا قابلة.»

تسارعت دقات قلبي قليلا واعتدلتُ في جلستي.

«أتولدين أطفالا يعيشون؟ وأمهاتهم - هل يعشن أيضا؟»

«أنا أفعل كل ما تملكه يداي.»

لم يكن هذا ما أردت سماعه، فعدتُ لارتخائي فوق السرج، وقد حجبت سحابة لحظة الأمل القصيرة. لم تقل إحدانا شيئا لدقيقة أو نحوه، ثم سألتها هل لديها أطفال. وفوجئتُ برد فعلها على السؤال البسيط. إذ رأيت اختلاجة على وجهها -هل كان انزعاجا؟- ولم ترفع عينيها عن الأرض. وابيضَّت مفاصل يدها التي تمسك باللجام إذ شدَّت عليه أكثر. لقد ضايقتها؛ لطالما نجحتً في قول كلام في غير موضعه، وأثقل الندم كاهلي.

وبعد وقت طويل، تكلمت، بصوت من خفوته حتى كاد يفوتني.

«لا.»

تنهدتُ سرًّا. لم أكن أعرف كيف أتحدث إلى نساء في مثل عمري، إذ لم أملك صديقات أو شقيقات. كانت إلينور وآن شاتلوورث هما أقرب ما أمكنني الحصول عليه من هذا أو ذاك، وكنتُ لا أطيق صحبتهما السطحية المتكلفة لأكثر من يوم. هذه الغريبة كانت تعاملني بتهذيب، كما قد تفعل أي فتاة قروية فقيرة مع امرأة نبيلة. لكني لمرة وحيدة، رغبتُ في تبادل حديث طبيعي مع امرأة شابة، كصديقتين تجلسان متواجهتين على طاولة لعب الورق أو متجاورتين فوق سرجين.

فقلتُ وأنا أحاول إضفاء المرح على صوتي، «خطر لي شيء للتو، هو أني لا أعرف اسم مُنقذتي.»

«آليس جراي.» أجابت بهدوء، قبل أن تضيف، «الأم

التـي لا تعيش... هـي فقـط مـن تصـل للنقطـة التي يخـرج فيهـا الأمـر مـن أيدينـا. أعـرف هـذا عندمـا أنظـر إليهـا.»

ازدردتُ لعابي. «وكيف تعرفينه؟»

تدبَّرت آليس جراي جوابها.

«إنـه يكـون فـي عينيهـا، حيـث تستسـلم إلـى ... أيـا كان مـا يوجـد فـي الناحيـة الأخـرى. أتعرفيـن الهزيـع الأخيـر؟»

أومأتُ، وأنا أتساءل عن علاقة الغسق بالولادة.

«إن النـور والظـلام قوتـان متكافئتـان –شـريكان، إن صـح التعبيـر– ثـم هنـاك لحظـة، سـريعة جدا وسـاكنة، يمكنكِ فيها رؤيـة النهـار يستسـلم للَّيـل. هكـذا أعـرف. هكذا يبـدو الأَمـر.»

كانت تتكلم كالساحرات، وكدتُ أخبرها بذلك.

«تظنين أني خيالية،» قالتها وقد أساءت فهم صمتي.

«كلا، أفهم ما قلته. الموت أمر محتم، مثل الظلام.»

«بالضبط.»

لـم تكـن هـذه أول مـرة أتسـاءل فيهـا كيـف يكـون شـعور المـرء بالظـلام ومـا يـزال نصفـه فـي النـور. أعتقـد أننـي كـدتُ أعـرف ذلـك الشـعور مـن قبـل، لكـن الألـم ثبَّتنـي إلـى الأرض. راقبـتُ قبعـة آليـس جـراي الباهتـة تتراقـص إلـى جانـب كتـف فرسـي، وتخيلـتُ إخبارهـا عـن خطـاب الطبيـب. ولكـن كمـا حـدث مـع ريتشـارد، تاهـت منـي الكلمـات.

وفي المقابل قلتُ، «إنكِ صغيرة السن على قابلة»

«تعلمتُ من أمي. كانت قابلة. الأفضل في الواقع.»

شـعرتُ بكلمـات الطبيـب تحكـم خناقهـا مـرة أخـرى حـول عنقـي، وبيـدي السـليمة أصلحـتُ ياقتـي الملطخـة بالتـراب.

ثـم سـألتها، «عندمـا قلـتِ أنـكِ تعرفيـن مـن نظـرة إلـى امـرأة حبلـى، هـل أخطـأتِ قـط؟»

«أحيانا،» أجابت آليس، لكني استشعرتُ كذبها.

وفيمـا كانـت طلقـة اللسـان سـابقا، بـدت الآن وكأن سـتارا قـد أُسـدل علـى مزاجهـا. وبـدون أن أديـر رأسـي، تفحصتهـا مـن زاويـة عينـي. لـم تكـن جميلـة لكـن حيويـة فـي ملامحهـا جذبـت العيـن للنظـر إليهـا: الأنـف الطويـل، العينـان الثاقبتـان الذكيتـان، اليـدان اللتـان جلبتـا الحيـاة إلـى العالـم. ومـا لبثـت أن أصبحـت مـن أكثـر مـن قابلتهـم سـحرا.

ازدرتُ لعابـي مـن جديـد، وأحكمـتُ قبضتـي حـول اللجـام وكأنـه ربطنـي بهـذه الحيـاة.

«هل تعرفين من نظرة إليَّ؟»

رفعـت آليـس جـراي عينيهـا نحـوي، ثـم عـادت عيناهـا العسـليتان إلـى الأرض.

*

وفـي جوثـورب، أنزلنـي الخـدم عـن فرسـي وأدخلونـي إلـى بهـو الاسـتقبال بجلبـة كبيـرة. وفيمـا هـم يضعوننـي علـى الأرض، بحثـتُ عـن وجـه ريتشـارد بيـن الأربعـة أو الخمسـة المتجمهريـن علـى سـلم المدخـل، وأكثـر منهـم خلـف النوافذ. لكنـي تذكـرتُ بفتـور وهـم يعينونـي علـى صعـود الدرجـات وكأنـي دوقـة عجـوز، أنـه مُسـافر. وفـي غمـرة التحـركات، تذكـرتُ آليـس، ولطمـتُ يـد خادمـة حاولـت إزالـة الجبيـرة البدائيـة المصنوعـة مـن أعـواد الشـجر والأسـمال.

«سـوف أتركهـا علـى يـدي، يـا سـارة،» قلتهـا بصـوت نجحـتُ

كالمعتاد في إضفاء الغلظة عليه عوضا عن الكياسة.

كنتُ في نظر الخدم غريبة الأطوار. لعام كامل في البداية لم أجرؤ على إصدار الأوامر إليهم - حيث كان بعضهم يكبرني بأربعين وخمسين عاما. وحدث مرة، عندما كنتُ في الرابعة عشر أو نحوه، وأمشط حصاني في الإسطبل، أن سمعتُ أحد العمال ينعتني بالعروس الطفلة. فمكثتُ في مكاني حتى الغسق، والخجل يلذعني، وأخشى الخروج لألا يعلموا أني سمعتُ ما قالوا. وعندما سألني ريتشارد أين كنت بحق السماء كل هذا الوقت، أخبرته بما حدث والدموع تحرق عيني، وطُرد العامل في التو واللحظة.

أبعدت سارة يدها مُطيعة، ولكن ليس قبل أن أرى تشكل القصة في مخيلتها، القصة التي كانت ستدخرها لجلسة المساء في مخزن الطعام. وكان هذا عندما أبصرتُ آليس، تكاد العين تخطئها، وهي تهبط سلالم المدخل. ناديتها فتوقفت، يحيط بها إطار مستطيل من ضوء النهار، حيث كان بهو الاستقبال بمتاهته من الممرات حالك الظلمة. خيم على الخدم صمت جماعي فيما تأملوها بفضول صريح.

«هلا أتيتِ لتناول شيء من الطعام؟»

احمرَّت أذناي، وكان عليَّ أن أتنحنح، وأنا أرى الجميع يرعون انتباههم.

بدت آليس مترددة، وكأنها تحاول أن تحدد هل كان كلامي دعوة أم أمرا عليها تنفيذه. لكن سارة قررت نيابة عنها، فأخذت بيدها إلى الداخل بتأفف نافذ وأغلقت الباب الثقيل خلفها في وجه برد الربيع. وفي الداخل

توهجت القناديل واستقر لهيبها، وفركت آليس يديها. التفتُّ وأنا أشتعل من الحرج، إلى واحدة من خادمات المطبخ التي كانت تقف جانبا دون عمل.

«مارجري، أرسلي خبزا وجبنا وشرابا إلى غرفة الضيوف، واصحبي الآنسة جراي إلى هناك. سوف أبدل ملابسي المبتلة وأقابلها هناك.»

كانت آليس تتطلع باهتمام إلى الأسقف العالية والزوايا المعتمة والشمعدانات الجدارية. حاولتُ أن أبتسم لها قبل توجهي إلى الدَّرج، آملة ألا يكون جليا أني أستقبل ضيفي الخاص لأول مرة .

*

لا أحد من الخدم تقدَّم لمساعدتي في خلع ملابس الخيَّالة التي كنتُ أرتديها، والتي اتسخت وضاع هندامها، حتى بات نزعها بيدين صعبا وبيد واحدة يكاد يكون مستحيلا . آلمني معصمي، وشمَّني پاك بفضول، وعندما نزعتُ عني كل ملابسي، وضعتُ يدي بين ساقي من باب العادة للتأكد من أنني لا أنزف. وبعد ما يقرب من نصف ساعة كاملة، كنت أرتدي تنورة وسترة نظيفتين، ونزلت وپاك يخفُّ ورائي. تناهت إلى سمعي أصوات من أسفل الدرج حيث غرفة الضيوف في مؤخرة المنزل، وفتحتُ الباب، لأجد وجهين في استقبالي.

«ريتشارد!»

أقبل عليَّ وقبَّل وجنتي دون تركيز، وهو يتناول معصمي. «كنتُ قادما إلى مخدعكِ - ما هذا الذي سمعته عن

سقوطك عن فرسك، أيتها الشقية الصغيرة؟ وما هذا الاختراع؟ لا بد لي من القول إنه ارتجال بديع. آنسة جراي، هل هذا صنيعك؟ فليتوود، هل أصبتِ بأذى؟ آمل ألا أحد آخر قد تأذى؟»

وكما يحدث دائما، أصابني سيل أسئلة ريتشارد بالدوار، وحرتُ علام أجيب أولا. عوضا عن ذلك تركتُ يدي في يده ووجهتُ أنظاري إلى آليس، التي خلى وجهها من أي تعبير، فلم يفصح عن شيء مما دار بينهما. لم تكن حجرة الاستقبال فخمة، لكن آليس بدت فيها أكثر شحوبا بمرتين، وثوبها باهتا ورثًا مقابل السجاد التركي الناصح كالجواهر وكسوة الحائط الخشبية بلونها العسلي. كانت داخل المنزل شخصا مختلفا -أقرب للعامَّة- وأصغر سنا، ربما في الثانية أو الثالثة والعشرين.

«تبدو عليكِ المفاجأة برؤيتي. هل نسيتِ أني لن أغادر حتى الليلة؟»

جلستُ واهنة بمساعدة ريتشارد، على واحد من الكراسي البلوط المصقولة قرب نار المدفأة الضعيفة، والتي كانت لحسن الحظ تصدر طقطقة مرحة. وقبل أن يتاح لي قول شيء، أحضرت مارجري رغيف خبز مع جبن وفاكهة وإبريق من المِزر، ثم انصرفت وهي تقيِّم بنظرة سريعة آليس وأصابعها الملطخة بالوحل.

«يداكِ، هل أطلب ماءً؟» ثم التفتُّ إلى ريتشارد، الذي كان قد شرع يسكب المِزر في قدحين. «لقد ساعدتني آليس في العودة إلى فرسي.»

«ملاك من ملائكة الغابة،» أعلن، وهو يناولها قدحا.

مسحت يديها في مئزرها قبل أن تقبل القدح وتشرب بعطش. أدركتُ أن ريتشارد ينتظر مني جوابا، وعيناه الرماديتانِ في عيني.

«هل كلُّ شيء على ما يرام؟»

كان رائق المزاج كالعادة، خفيف الروح والقلب. كان يُشعرني أحيانا كمن ترتدي عباءة شؤم وكآبة لن توضع عنها أبدا، إلا أن نفس العباءة لو أحاطت بكتفيه، لتخلص منها بالسهولة التي ينفض بها كلب مبتل الماء عن جسده.

أجبته بابتسامة مطمئنة، «كل شيء على ما يرام.» ثم قلتُ سرًّا، في الوقت الراهن.

نزل على ركبتيه وتناول يدي السليمة، فقبَّلها ثم وضع فيها قدح المِزر.

«سأترككما إلى أحاديث النساء عن الجيبونة الفرنسية وأذهب لتبديل هذه الملابس. أعتقد أنني سأؤخر رحلتي يوما آخر. كما أن عيد الفصح على الأبواب لذا ستخف وطأة الأعمال.»

غرَّد قلبي أمام كلماته، ولكن قبل أن يُتاح لي شكره، كان قد انصرف مُتناولا حفنة عنب في طريقه. تأملتُ آليس، وأنا أتساءل عن الانطباع الذي تركه فيها زوجي، لكنها بدت مُنهكة فحسب، قد خرج شعرها من تحت قلنسوتها وتدلَّت زاويتا فمها لأسفل. فاحت منها رائحة خزامى طفيفة من جديد. طقطقت النار وتوهجت، فملأت الغرفة الصغيرة برائحة دخان الحطب المريحة.

وقبل أن يتأتّى لي قول شيء، سألت آليس، «ما هي الجيبونة الفرنسية؟»

كدتُ أضحك، وقد سرَّني أني أعلم منها في هذا الأمر على الأقل.

«إنها قالب ترتدينه حول خصركِ تحت التنورة لنفخها. ألم يسبق لكِ أن سمعتِ عن واحدة؟ «

هزت رأسها نفيا. «كيف تجدين معصمكِ؟ سيحتاج إلى ربطه جيدا بالخرق. «

نكزته بحذر شديد. «إنه بخير. لقد وقعتُ عن فرسي عدة مرات. يقول صديقي روجر أن المرء لا يصبح فارسا حتى يسقط سبع مرات، ومرة لجلب الحظ. أفترض أنكِ تسقطين عن فرسكِ كثيرا أثناء هروعكِ إلى النساء في مخاضهن.»

«لا أملك فرسا.»

«لا تملكين فرسا؟» كنتُ مصدومة. «كيف تتنقلين إذن؟»

ظهر شبح ابتسامة عند زاويتي فمها. مكتبة سُر مَن قرأ

«على قدميَّ. أو إن أرسل مالك أرض خادمه لإحضاري، فإنه يجلب معه فرسا أحيانا.» ولا بد أني أبديتُ ذهولا، لأنها أضافت، «لا يولد الأطفال بسرعة في أكثر الأحيان.»

«ومن أين لي أن أعلم.» شعرتُ بعينيها تتأملني عبر الحجرة، متوهجتين كجذوتي نار. «اجلسي من فضلك. تناولي شيئا من الطعام.»

أطاعت. «لا أستطيع البقاء طويلا، عليَّ أن... أذهب قريبا.» أومأتُ، وأنا أشاهد طريقتها الأنيقة في تقطيع الجبن بأصابعها الطويلة. «أهو طفلكِ الأول؟»

قلتُ، «نعم.»

أدركتُ أنني قلتها بنفس النبرة التي قالت بها سابقا إنها لا تملك أطفالا. وفيما أكلت بهدوء، أدرتُ خاتم زفافي حول إصبعي وأنا أفكر مليًّا. لأي غرض أحضرتها إلى منزلي، إن لم يكن للتعبير عن امتناني؟ تذكرتُ قلق ريتشارد. كل شيء على ما يرام. إلى متى سيظل على ما يرام؟ وكان شيء ما في آليس يدعو للثقة: الطريقة التي روَّضت بها فرسي في الغابة دون أن تقول شيئا.

«لقد فقدتُ ثلاثة أطفال،» قلتها بسرعة.

وضعت السكين، وتراجعت في جلستها وهي تمسح يديها في مئزرها، وتنفض الفتات من على أصابعها. لم أستطع النظر في وجهها، لذا حدَّقتُ في السجاد، ولاحظت شعيرات پاك البرتقالية وقد تناثرت هنا وهناك، ناعمة جدا حتى بدت من نسيج السجاد.

«أنا آسفة.» كان صوتها مشبعا بالحنان.

فركتُ أحد الأسود الخشبية على يد الكرسي الذي أجلس عليه.

«تعتقد أمي أني عاجزة عن الإنجاب. يروق لها أن تذكرني بإخفاقي في القيام بواجبي كزوجة.»

كان الصمت الآتي من الكرسي المقابل عميقا ومتأنيا.

«كم كانت أعمارهم؟»

«جميعهم ماتوا قبل أن يولدوا.» جذبتُ خيطا ذهبيا نافرا في تنورتي، ثم حاولتُ إعادته إلى مكانه. «بعد أول إجهاض، قلق ريتشارد، فعيَّن امرأة لمراقبتي.»

«مراقبتك؟»

«للتأكد من أنني أتناول الطعام جيدا، أشياء من هذا القبيل. كان قلقا،» كررت.

«قلقا عليكِ أم على الطفل؟»

«على كلينا. فيم كنتما تتحدثان منذ قليل؟»

«أمور شتى. العمل.»

لدعتني الغيرة فقلتُ بتهكم.

«تحدث معكِ عن عمله؟»

«كلا. إنني أَعمل في حانة هاند آند شتل في باديهام. ولم أكن أعرف أنكما المالكان.»

«أنحن المالكان؟» سألتُ، مُدركة بعد فوات الأوان مدى الجهل الذي دلَّ عليه سؤالي. «حسبتكِ... تعملين في مكانين إذن؟»

«لا يولد الأطفال كل يوم. ليس في كولن.»

«منذ متى تعملين هناك؟»

«ليس من بعيد.»

«كم يأجرونك؟»

احتست جرعة طويلة من الجعة ومسحت فمها. وفيما شاهدتها تتلذذ بطعامها وشرابها، شعرتُ بالحسد. قرقرت معدتي.

قالت، «جنيهان.»

«في الأسبوع؟»

حدقت آليس في وجهي. «في العام.»

عرفتُ أن وجهي تضرَّج بالحمرة، لكني لم أبعد

عينـيَّ. إنهـا تجنـي فـي عـام كامـل مـا أدفعـه أنـا مقابـل ثلاثـة ياردات مـن المخمـل. تململـتُ فـي مقعـدي وأصلحـتُ وضـع الخِـرَق المأخـوذة مـن مئزرهـا حـول معصمـي، والتـي بـدأت تحكّنـي. كان البلـوط المصقـول بـاردا مـن حيـث التقـى بجلـدي.

كان فمي جافًا. أردتُ إخبارها عن هجر ريتشارد لمخدعنا، وكيف أني في شباط تقيأتُ أربعين مرة في يوم واحد. «هل يمكنكِ مساعدتي في إنجاب طفل؟ طفل حي؟»

«أنا...»

«سأدفع لكِ خمسة شلنجات في الأسبوع.»

سـيقفز حاجبا جيمـس دهشـة بـلا ريـب وهـو يدخـل المبلـغ فـي سـجل الحسـابات، لكـن إمسـاك يـدي فـي الإنفـاق تسـبب فـي إهانتـي مـن قبـل، لـذا تعلّمـتُ أن أي عـرض يجـب أن يقـع فـي بحبوحـة بيـن الكـرم والإنصـاف. كان ريتشـارد قـد أخبرنـي ذات مـرة إن الفقـراء محـال أن يتفاوضـوا فـي المـال. وكانـت آليـس واضحـة الفقـر –بحثـتُ في يديهـا عـن خواتـم– عزبـاء. عرفـتُ الآن مـا كان يقصـده.

قالت بصوت خافت، «إنه خمسة أضعاف ما أجنيه الآن.»

أدخلـت إصبعـا تحـت قلنسـوتها لتحـكّ شـعرها، ووضعـت قدحهـا برفـق. أصـدرت معدتـي صوتـا سـمعته كلتينـا؛ لـم أكـن قـد تناولـتُ لقمـة.

«سـأضع فرسـا فـي خدمتـكِ أيضـا، حتـى يمكنـكِ ركوبـه إلـى هنـا وإلـى الحانـة فـي باديهـام. إن كولـن طريـق طويـل.»

تمعَّنـت فـي الأمـر، وهـي تلعـق شـفتيها وتحـدق فـي النـار،

قبل أن تسأل، «هل قطعتِ في مدة حملكِ مدة أطول من المرات السابقة؟ متى تتوقعين الولادة؟»

«في بداية الخريف، حسبما أظن. كان آخر إجهاض... في وقت ما قرب نهاية الحمل.»

قالت، «سأحتاج لفحصك. متى كان آخر طمث لكِ؟»

«في عيد الميلاد المجيد. وثمة أمر آخر.»

وضعتُ قدحي، وأدخلتُ يدي في ثوبي وسحبتُ خطاب الطبيب الذي دسسته في سترتي وأنا ألبس. كنت قد حفظته خلف لوح مربع صغير في صواني، وأقفلتُ عليه بمفتاح أخفيته تحت فراشي بين الحبل والحشية. فتحتُ الخطاب، وفردته وأنا أشعر بالدفء الحميمي الذي منحته له حرارة جسدي. لكن آليس لم تمد يدها لتأخذه، وتشكَّل عبوس بين حاجبيها.

قالت بفتور، «لا أعرف القراءة.»

تناهى إلى سمعينا فجأة خدش في الباب، وانتصبت كلتانا في جلستها. دسستُ الخطاب في ثنية الكرسي من الجانب لكن أحدا لم يدخل.

ناديت، «نعم؟»

عندما لم أجد جوابا نهضتُ وفتحتُ الباب، ليقابلني پاك يقف لاهثا، فنزلتُ على ركبتي.

«إنه أنت. فتى مطيع.»

تبعني إلى الكرسي الذي جلستُ عليه ورأيتُ عيني آليس تتسعان أمام حجمه.

«إنه عملاق وديع،» قلتُ لها مُطمئنة، فيما تركته

يستقر عند قدمي. «إنني أفرِّش تنورتي باستمرار لإزالة شعره، لكن الأمر لا يشغلني في الحقيقة. أنهي طعامكِ وإلا التهمه.»

قالت آليس، «إنه ضخم جدا.»

رفع پاك رأسه خمري اللون عندما تحدثت ونبح مرة بصوت عال.

قلتُ له، «يكفي.»

«ما نوعه؟»

«درواس فرنسي.»

«هل كان هدية من زوجك؟»

مددتُ يدي بحركة غريزية لأفرك أذنيه.

«كلا. أنقذته من حفرة لمصارعة الدببة في لندن. كان هزيلا ويتضور جوعا، مربوطا في الشارع بجوار حارس دببة يبيع التذاكر. اقتربتُ منه لأمسد عليه فركله الحارس. قال إن الكلاب ستصبح عديمة النفع إن فقدت شراستها وأنني هكذا أفسده. سألته كم للجرو فقال إنه لا يساوي ثمن الحبل المربوط حول رقبته. فرفعته من على الأرض وقلت إنني سآخذه. وحينها غير رأيه، فقال إنني أحرمه من أحد مصارعيه. أعطيته شلنجا، وغادرنا دون أن ننظر خلفنا. سمَّيته پاك تيمُّنا بشخصية في مسرحية شاهدناها ريتشارد وأنا قبلها ببضعة بأيام –عفريت من عفاريت الغابة. سوى أنه لا يشبه العفاريت في شيء.»

تفرَّست آليس بتمعُّن في الوحش المدلل فوق البساط

التركي. كان لسانه بحجم سمكة سلمون، يتدلى بسعادة من بين فكيه.

علَّقت، «إنه محظوظ جدا. لقد سمعتُ عن مصارعة الدببة لكني لم أشاهد أحدها قط.»

«إنني أجدها مريعة. الناس في لندن دمويُّون؛ ربما لأنهم لا يمكنهم الصيد.»

جلسنا في صمت أكثر ألفة من ذي قبل، وأشارت برأسها إلى الخطاب بين يدي.

«ماذا يقول؟»

«أنني سأموت على فراش الولادة.» وإذ جهرتُ بها لأول مرة، شعرتُ بخصلات الشعر ترتخي حول عنقي. «سوف أحتاج إلى معجزة، كما ترين. لقد أسبغ الرب عليَّ نعما كثيرة. لا أظن الأمومة من بينها، لكنني اليوم طلبتُ من الرب حكيمة وها أنتِ ذا. أريد أن أمنح زوجي ابنا بأي شكل - إنه يتوق إليه.»

«وأنتِ؟»

«أنا زوجته، وأرغب أن أكون أما. لا أريده أن يترمَّل.»

حاولت ابتلاع الغصَّة في حلقي. كانت آليس ترمقني بتعاطف صريح مُذل، ولوهلة تساءلتُ كيف أمكنها ذلك: وهي الفقيرة التي لم تتزوج وتعمل في وظيفتين ولا تملك فرسا. ربما هي لم تنبهر بالمنزل الجميل والزوج الوسيم والملابس الثمينة، وربما رأت أيضا أن كل هذه الأشياء التي أمكنني الحصول عليها لم تُجْدني نفعا أمام أكثر شيء أردته وعجزتُ عن تحقيقه: أن أنجح زوجة لريتشارد، وأرد له ما فعله من

أجلي، والمستقبل الذي أنقذني منه. لأجله، أردتُ أن أملأ المنزل بأكفٍّ لزجة وركب متربة. بدون أطفال، لم نكن عائلة؛ كنا نمتلك منزلا ولكن ليس بيتا. إن قضاء عمري كله حبيسة بارتون، أصحو وأنام على استهجان أمي، لهو أهون عليَّ من هذا. لو لم يظهر ريتشارد، لعرفتُ إلى أين مصيري.

«سيدتي؟»

كانت آليس تطالعني بقلق. طقطقت النار وأرسلت شررا، وكانت السكين ما تزال تبرز من الجبن مثل خنجر غُرز في شجرة.

ملتُ للأمام، بإلحاح لم يسبق لي أن أبديته. كان يأسي موجودا منذ التقيتها، يتنامى منذ شهور، لكنه الآن كان يفيض مني.

قلت، «أرجوكِ. قولي أنكِ سوف تساعديني.» أدركتُ أنني أقبض على يدي الكرسي الذي أجلس عليه. «أحتاج إليكِ لإنقاذ حياتي، ومعها حياة أخرى. ساعديني أن أعيش، آليس. ساعديني أرجوكِ أن أكون أما وأنجب طفلا.»

كانت ترمقني بغرابة، تقيّمني، مترددة أمام الصفقة. وعندما أومأت أخيرا بالموافقة، كانت كمن يمد لي بالعون يده.

الفصل الخامس

في تلك الليلة، وحدي في الفراش، أتاني الكابوس. كانت الغابة حالكة السواد وباردة، وتهشَّمت أوراق الشجر الجافة تحت قدميّ عندما تحركتُ، لذا بقيتُ في مكاني، عاجزة حتى عن رؤية يدي أمام وجهي. دقَّ قلبي بقوة، وأصغيتُ أذني لسماع أي شيء. ثم جاءت الخنازير البرية، بخطى متثاقلة ونخيرهم يتناهى في الجوار، أنفاسهم النهمة حارة وفضولية. أغمضتُ عيني لأسمع أفضل، وشعرتُ بشيء يحتك بتنورتي. تجمَّد كل شيء. سالت قطرة عرق ببطء على وجهي، ثم تمزَّق السكون، وبدأ الأمر. كانت الأصوات التي انبعثت من تلك البهائم فظيعة - عواء وصرخات حادة وهائجة. انطلقتُ أركض كالعمياء، ويداي تسبقاني. كنت أبكي، وكانوا خلفي يزمجرون ويجزُّون على فكوكهم، وأنيابهم الحادة تشبه سكاكين صُنعت من عظام. تعثرت وانكفأتُ على الأرض، ووضعتُ يدي فوق رأسي وانتحبتُ. لقد تمكنوا مني، وأحاطوا بفريستهم الصريعة. كانوا جائعين؛ كانوا سيغرزون أنيابهم في جسدي، سيخترقونه. ثم هاجمني ألم صارخ مزَّقني دفعني لثني ركبتيَّ إلى صدري، لكن تنورتي كتَّفتني، وصرختُ عاليا.

كنت بغرفة نومي في ضوء النهار الساطع، غارقة في العرق. قلبي يدق عاليا كجرس، ووجهي مبلل بالدموع، لكن الارتياح غمرني إذ أدركتُ ألا خنازير هناك، وأنا لستُ في الغابة. هدأت أنفاسي، ونبض ألم خفيف في معصمي. كانت الخرق المُحكمة التي طلبت مني آليس ربطها به قد تراخت، وتدلت تحتي على الشراشف. تثاءبتُ، ورمشتُ أمام ضوء الشمس، وتمطّيتُ وتقلّبتُ إلى الجنب الآخر.

وجوار الفراش، كانت أمي جالسة تراقبني بعيني صقر.

انتظرتْ فيما حاولتُ رفع جسدي إلى وضعية الجلوس. لم أنظر إليها، لكني عرفتُ أنها تزمُّ فمها وهي تعاين شعري الأسود المشعث، وبشرتي الشاحبة بلون رماد المدفأة. كانت ماري بارتون تستهجن المرض أو الضعف أو الفشل من أي نوع؛ بل أنها في الواقع تجده مُهينا. وقبل أن يتأتى لإحدانا أن تتحدث، سمعتُ وقع حذاء ريتشارد في الرواق، وصلصلة النقود في نطاقه.

«انظري من جاء للزيارة،» قالها معلنا وهو يدخل ويضع يده على كتف أمي اليابسة.

التقت عيناي بعيني أمي السوداوين. كان رأسها بلا غطاء وياقتها، المنشَّاة بلا غلطة، تلف عنقها مثل بتلات زهرة. يداها البيضاوان متشابكتان بهدوء في حجرها وملامحها تظهر تحفظا عظيما. كانت ما تزال في عباءة الخروج، فأوحت بأنها إما ترجّلت عن فرسها للتو أو هي في طريقها للانصراف. كانت تستشعر البرد دائما، حتى أنها انتقلت من بارتون بعد زواجي بريتشارد،

بشكوى أنها كبيرة جدا، واستقرت عملا باقتراحه في منزل أصغر أبعد شمالا.

لكنه ليس بعيدا كفاية.

قلتُ، «مرحبا، يا أمي.»

فقالت، «لقد فوتِّ الفطور.»

لعقتُ أسناني. كان مذاقها زنخا.

«سآمر بإرسال شيء من الطعام،» قالها ريتشارد، ثم غادر وأغلق الباب خلفه.

دفعتُ عني اللحاف السميك، ونزلتُ من السرير ورحتُ أحضر خرقة أنظف بها أسناني، وأمي تراقبني كل هذا الوقت.

«إن هذا المخدع يشبه زريبة خنازير. يجدر بخدمكِ أن يكونوا أكثر اهتماما - بأي شيء آخر قد ينشغلون؟» هكذا قالت، وعندما تجاهلتها، تابعت، «هل ستبدلين ملابس نومكِ اليوم؟»

«ربما.»

فوق رف المدفأة، على كل من جانبي درع النبالة الخاصة بعائلة شاتلوورث، انتصب مثل خفيري حراسة تمثالان من الجبس لامرأتين بنصف طولي: الحكمة والعدالة. كنت أحيانا أتخيلهما صديقتين لي. جلست أمي مستقيمة الظهر في موضع توسطهما تماما أمام المدفأة، فبدت مثل أختهما الثالثة، التعاسة.

«لماذا تلهين، يا فليتوود؟ إنكِ سيدة هذا المنزل - بدِّلي ملابسكِ في الحال.»

عـوى پـاك طالبـا الدخـول، ففتحـت لـه. ومشـى مُتمهـلا فـي اتجـاه أمـي، فشمشـم تنورتهـا ثـم انصـرف عنهـا.

قالـت، «لا يسـعني أن أفهـم سـبب احتفاظكِ بهـذا الوحـش فـي المنـزل. إن الـكلاب للصيـد والحراسـة وليـس لمعاملتهـا كالأطفـال. مـا هـذا علـى معصمـك؟»

لملمتُ شـريط القمـاش، وشـرعتُ أربطـه بإحكـام أكبـر.

«وقعتُ مـن علـى فرسـي البارحـة وأنـا أركبـه. إنـه مجـرد التـواء.»

«فليتـوود،» قالتهـا وهـي تخفـض صوتهـا وتختلـس نظـرة مـن فـوق كتفهـا للتأكـد مـن غلـق البـاب. تناهـت إلـى أنفـي الرائحـة المُغثيـة للمرهـم الـذي تضعـه علـى معصميهـا. «أخبرنـي ريتشـارد أنـكِ حُبلـى مـرة أخـرى. وإن لـم تخنِّـي الذاكـرة، فقـد ضيَّعـت ثلاثـة أطفـال قبـل أن يأتـوا إلـى هـذه الدنيـا.»

«لم أضيِّع شيئا.»

«سـأقولها مباشـرة إذن. لثـلاث مـرات فشـلتِ فـي الحمـل. هـل حقـا تظنيـن أنـه بوسـعكِ إلقـاء نفسـكِ مـن فـوق الأحصنـة؟ أنـتِ لسـتِ حريصـة بمـا يكفـي. ألديـكِ قابلـة؟ »

«نعم.»

«أين وجدتها؟»

«إنها من سكان المنطقة. من كولن.»

«أليـس مـن الحكمـة أن تسـتخدمي امـرأة رشـحتها إحـدى العائـلات التـي نعرفهـا؟ هـل تحدثـتِ أنـتِ أو ريتشـارد إلـى جيـن تاونلـي؟ أو مارجريـت سـتاركي؟»

حدَّقتُ فـي وجـه تمثـال الحكمـة. تحاشـت نظرتهـا الرزينـة

لقاء عيني. كنتُ زوجة، سيدة واحد من أرقى المنازل في دائرة قطرها أميال، وكنت أقف في ثوب نومي أتعرَّض للتوبيخ من والدتي. هل ريتشارد هو من دعاها للمجيء؟ كان يعرف كم أكرهها. كوَّرتُ قبضتي مرة، مرتين، ثلاث.

«أنا وحدي من يقرر المرأة التي سأستخدمها، يا أمي.»

قلتُ الكلمة الأخيرة بتملُّق، فوشى وجهها، الجامد في كل وقت، بلمحة غضب ضئيلة.

قالت، «سوف أناقش الأمر مع ريتشارد. أما الآن، فأريدكِ أن تتعهدي بأنكِ ستبذلين كل ما في وسعكِ إحضار هذا الطفل إلى الحياة. ولا أظنكِ تفعلين هذا حاليا. المزيد من الراحة أمر مهم، وأيضا... الأنشطة المنزلية. ربما تتخذين لكِ آلة موسيقية بدلا من العدو بالخيول مثل فارس تحت التمرين. تملكين زوجا ممتازا، وإذا بدأتِ في اتخاذ مسلك الزوجة والأم، فسوف ينعم عليكِ الرب بهبته. لم أوحِّد العائلتين حتى يسعكِ أن تلعبي دور أميرة في برجها العاجي. والآن، سأكون في انتظاركِ على مائدة الغداء. البسي من فضلك وقابليني في الأسفل.»

سمعتها تهبط الدَّرج ودعوتُ الرب أن يسقط إطار صورتها من علَّاقته ويسوِّيها بالأرض.

*

صبَّ ريتشارد كأسا من النبيذ الأحمر أمامي مباشرة ومرَّره إلى أمي. كان غامقا كالياقوت الأحمر، اللون ذاته الذي سال مني ثلاث مرات من قبل - جميلا دون توقع

في ثرائه، وهو يبلل ملاءات السرير وحشيته التي توجَّب حرقها في الخلاء.

ولأتحاشى رائحته المُسكرة رفعتُ وجهي إلى السقف. زُخرف الجصُّ في حجرة الطعام بعشرات من عناقيد العنب، قد خرجت منها اللباليب نحو الأركان، وتشابكت كأيدي العشاق.

«ألا تريدين نبيذا، يا فليتوود؟»

«لا، شكرا لك.»

صبَّ ريتشارد كأسا آخر لصديقه توماس ليستر، الذي كان يعبر المنطقة في طريقه إلى يوركشاير. جلسنا حول المدفأة، التي كانت نارها خفيضة، وأشعرني هواءها الخانق بالنعاس. إنما ليس بما يكفي لتفوتني نظرات توماس الجشعة التي جرت على خواتم ريتشارد عندما ناوله صديقه الكأس، التي أمسكها بيده العارية والتقت عيناه بعيني، فأشاح بوجهه على الفور.

كان توماس في العمر يقع بيني وبين ريتشارد، وفي الثروة يقع بين نبيل ريفي بسيط وبيننا. كان سيقرُّ بالمسألة الأولى أما الثانية فلا بالقطع. كان وريتشارد يتشاركان أمورا أخرى: فكلاهما تزوج في العام نفسه، وكلاهما مات والده؛ وكلاهما ورث تركة كبيرة بأمٍّ وشقيقات يعولهن. قبل أربع سنوات، ألمَّ بالسيد ليستر سينيور مرض في زفاف ابنه، وانهار أثناء تلاوة النذور وبعد بضعة أيام قضى نحبه. لم تستطع والدة توماس تجاوز الأمر تماما ولم تغادر منزلها منذ ذلك الوقت.

كنتُ أرى توماس ليستر رجلا غريبا ومثيرا للاهتمام – لم يكن ينخرط في الأحاديث بسهولة، مفضلا أن يكون على هامشها. كانت عيناه الواسعتان تجحظان قليلا وكان ضئيل الحجم ونحيفا جدا، كامرأة. قال ريتشارد إن بنيته جعلت منه خيَّالا ممتازا، وأنه كان يجلس فوق حصانه منتصبا مثل سهم.

أخفقت أمي في الاندماج مع الشباب: كانت تنجح دائما في منحهم شعورا بأنهم أطفال، وتلعثم توماس وهو يجيبها بتهذيب عندما سألت عن والدته. ثم أنقذه دخول إدموند الغلام الجديد، الذي أبلغ ريتشارد بمجيء امرأة من إحدى مزارعه بأخبار عن كلب هاجم نعجة. في ذلك الوقت من العام نرعى غنما بأعداد كبيرة في الحقول؛ حيث كان بلل الأرض لا يحتمل شيئا آخر.

خيم صمت مؤقت، وضع خلاله ريتشارد كأسه. «لمن الكلب؟»

هز إدموند رأسه. «إنها لا تعرف، يا سيدي. وجدته يركض في الأرجاء ويثير الاضطراب في القطيع. إنها تطلب منك سرعة الحضور.»

غادر ريتشارد بسرعة. ما انفك الناس يدقون بابنا ويسردون علينا حكاياتهم. وكان ريتشارد كريما، فيعطيهم قمحا عندما تموت محاصيلهم وخشبا لترميم منازلهم. كان في باديهام مائتا عائلة ومثل ذلك من المشاكل القابعة على أبوابنا منذ انتقلنا إلى هناك.

سألت أمي توماس، «ما الذي يُذهبك إلى يوركشاير؟»

كانت تُثبت أنها مضيفة جيدة، وهي تتسلّى بتذكيري أني لستُ كذلك.

قال توماس، «سأحضر جلسة في محكمة الصوم الكبير.»

«محاكمة؟»

طقطق الحطب في أرضية الموقد واحترق. تساءلتُ متى يعود ريتشارد. كنا في الهزيع الأخير، ولن يلبث الظلام أن يطبق على النوافذ.

تململ توماس في كرسيه.

وقال بصوت منخفض، «محاكمة جريمة قتل. المتهم امرأة تدعى جانيت بريستون.»

اعتدلتُ قليلا في جلستي.

وسألت، «هل تعرفها؟»

«أعرفها جيدا للأسف.» نبض وتر في فكه. «عملت لدى عائلتي لأعوام، لكنها ما انفكت تحاصرنا منذ موت أبي. قابلناها بالإحسان والفضل، لكنها جاحدة، ودائما تطلب المزيد.»

«ومن اتُّهمت بقتله؟»

«طفل.»

وحّدت بيني وبين أمي لبرهة حالة من الصدمة. وحدّق توماس في النار بتجهم.

«هل تدافع عنه؟»

رمقني توماس بحدة. «أدافع عنها؟ إنني أدينها. لقد قتلت ابن خادمة أخرى - رضيع لم يكمل عامه الأول - بوحشية ودون رحمة.»

وقبل أن يتاح لي منعها، فرضت الذكرى نفسها على عقلي: جسد صغير بارد؛ خطان منمنمان من أهداب لن تُرفع أبدا. أغمضتُ عيني وطردتُ الذكرى.

وسألته، «لم قد تفعل ذلك؟»

«لأنها امرأة غيورة،» قالها توماس باقتضاب. «لم تفلح في إغواء إدوارد فسلبت منه أغلى ما يملك هو وزوجته. إنها ساحرة.»

مالت أمي للأمام. «ساحرة أخرى؟» فارتبك توماس. «ألم تسمع عن آخر ضيوف ريد هول؟»

فسألتها، «وكيف تعرفين أنتِ آخر ضيوف ريد هول؟»

هزت أحد كتفيها باستهانة. «أخبرني ريتشارد.»

قالتها بلهجة ألمحت أنه بالطبع سيبلغ حماته بكل أمر يطال علمه. لكن لها طريقة في سحب الكلام من الناس، واقتناص لحظة تردد أو تعليق قيل بعدم تفكير ونهشه مثلما فعل الكلب مع النعجة. لم يكن ريتشارد ليذيع مسائل العمل الخاصة بصديقه؛ ولابد أن أمي سمعت قبلها بالأمر من شخص آخر وسألته قطعا أثناء انشغاله وانصراف ذهنه.

«من الذي في ريد هول؟» سأل توماس، وهو ينقل عينيه بيننا.

فأخبرته أمي عن روجر، والذي كان توماس وثيق المعرفة به، والبائع المتجول جون لو والساحرة أليزون ديفيس. فأنصتت إليها باهتمام بالغ.

كانت روايتها للأحداث تُنبئ عن اطلاع أقل وتخمين أكبر من رواية روجر. لم أكلف نفسي عناء تصويبها، فمنحني ذلك

شعورا رائعا بالرضا، وكي لا ترى تعبير التعالي على وجهي، أدرتُ وجهي إلى الإفريز الذي زيَّن جدران حجرة الطعام، بحوريات بحر ودلافين وعنقاوات ومخلوقات من كل نوع، نصفها بشر ونصفها حيوان، جميعها قد ثبَّت عينيه على مركز الغرفة، وكأننا في ساحة أسطورية كبيرة. أكثر ما أعجبني في المنزل عندما أتيتُ إلى جوثورب، كان هو الإفريز، وكنتُ أدور وأدور وأتأمل كل شكل فأعطيه اسما وقصة قصيرة. هنا شقيقتان يتيمتان كانتا أميرتي البحر وحكمتا الأمواج؛ وهناك جيش أسود يحملون الدروع، ومستعدون للهجوم. رأيتهم يزدادون إظلاما وغموضا بحلول الليل، ودردشت أمي وتوماس ليستر مثل عاملتي غسيل. بدأ جفناي يرتخيان؛ وكان فمي جافا وظهري يؤلمني. سيكون عليَّ الجلوس هنا لحين عودة ريتشارد، والذي لم يظهر له أثر بعد.

وحينها خطر لي: أنه طالما أمي هنا، فإن ريتشارد سينام في فراشنا حتى لا يثير الأسئلة، ذلك أن عينيها الثاقبتين لا تخطئان شيئا. لم يظهر عليها أنها رأت السرير المدولب، ولكن ربما يكون ريتشارد قد أغلق باب غرفة الملابس.

عبثتُ باللفائف في شعري وتساءلتُ كم سأنتظر يا ترى حتى يصبح بوسعي أن أزيلها.

وفي تلك اللحظة كانت أمي تقول، وعيناها تلمعان، «إن الفتاة في منزل روجر نويل، إنه يُبقيها هناك حتى لا تؤذي آخرين.»

«وهل اعترفت؟»

«هكذا يقولون.»

«ويعتقد روجر أن هناك غيرها؟»

أومأت أمي إيجابا. «في نفس العائلة.»

قلت، «عجبا، يا أمي. سيظن من يسمعكِ أنكِ كنتِ تسيرين بجانب جون لو عندما سُحر.»

كان توماس يبدو غارقا في التفكير، ممسكا بالكأس إلى صدره.

سألته، «هلا أبديت إعجابك بحورياتنا، يا توماس؟ تأملها جيدا. إنها لا مثيل لها حقا، صممها أخوان نفَّذا كل أعمال الجبس في جوثورب.»

نهض تكرُّما واقترب من الإفريز، فالتفتُّ إلى أمي وهمست، «إننا لا نتحدث عن شئون روجر نويل كالقرويات في هذا المنزل. إنه صديقنا. وها هو توماس سينقل ما أخبرته به إلى يوركشاير، وهذا أبعد مما ينبغي للأمر أن يصل إليه.»

ظهر الاستياء على وجه أمي. «كل ما فعلته هو إعلام جارك بما يحدث أمام عينيه. عاجلا أم آجلا سيعرف الجميع بوجود ساحرات في هذه المنطقة. ويجب أن يعرفوا. ألا يقولون إن النساء همجيَّات هنا؟»

«لا أعرف ما يقولون، ولا يهمني أن أعرف. وأظن الهمجيَّة شيء والشر شيء آخر.»

«عمل بالغ البراعة،» قالها توماس مُعلِّقا بتهذيب خلفنا. «معقد للغاية. وخيالي بالكامل.» بدا مضطربا ولم يعد إلى مقعده. «سوف أستأنف رحلتي قبل أن

يحل الظلام؛ قد أمر على ريد هول قبل أن أنطلق إلى يوركشاير.»

قلتُ، «إن ريد هول تبعد خمسة أميال في الاتجاه المعاكس.»

مدَّ يده إلى عباءته.

«أبلغي تحياتي إلى ريتشارد.»

غادر حثيثا، ووقع حذائه يتردد في الممر. سادت لحظة صمت، ثم استأذنتُ في الانصراف بحجة أني أريد النوم.

أضيئت الشموع في مخدعي ووقفتُ أمام المرآة لإزالة اللفائف من شعري. بدا ضعيفا وخفيفا، وعندما مشطته سقطت خصلات منه على الأرض. ذهبت إلى النافذة لأسدل الستائر وفي زجاجها رأيتُ هيئة ريتشارد عند الباب.

سألته، «هل ستنام هنا الليلة؟»

«أظن هذا.»

استدرتُ وكاد قلبي يتوقف في صدري.

كانت يداه قرمزيتان. غطى الدم صدريَّته ولطخ بالبقع وجهه وذراعه حتى المرفقين.

«ماذا حدث؟»

«أمرتُ بإحضار إبريق ماء.» مسح يديه على ذراعيه لكن الدم كان قد جف. وبدأ الجلد حول أظافره يتحول إلى لون بني بالفعل. «كانت فوضى. لولا أني رأيتُ الكلب بعيني لظننته أن ذئبا هو من فعلها.»

دنوتُ من السرير وجلستُ عليه لأخلع نعليَّ.

«ذاك مستحيل. لم تظهر الذئاب هنا منذ قرن.»

فكرتُ في تلاصق جسدينا من جديد الليلة، ودفئه إلى جواري. ربما أمرر إصبعي على ظهره كما اعتدت أن أفعل. ربما سيستدير ويضع شفتيه فوق شفتي، ويلج في داخلي. حتى إن لم نتشارك الفراش مرة أخرى، فلن أنسى أبدا دفء جلده الناعم على أناملي. ثم تذكرتُ الخطاب الخفي، وتبددت الصورة.

«هل كانت النعجة ميتة؟» سألته، وأنا أستدير له ليفك رباط ثوبي.

«كلا. كان عليَّ قتلها.»

«والكلب؟ من أي نوع كان؟ »

«هجين بني. فرَّ قبل أن أتمكن من إمساكه. سوف أتقصى عن مالكه.»

«لقد استأجرتُ الفتاة التي أنقذتني لتكون القابلة الخاصة بي.»

«أوه، حقا؟ ما اسمها؟ أهي قابلة؟»

«آليس. إنها خبيرة جدا.» لم أنظر في عينيه. «آمل ألا تمانع – فقد أعرتها فرسا من الإسطبل، طوال مدة اعتنائها بي.»

«ليس فرسا تخصني؟»

«كلا، فرس المزارع الرمادية. إنها عجوز جدا الآن. ريتشارد...» ازدردتُ لعابي. «هل ستعود إلى فراشنا من الليلة؟»

«العديد من الرجال ينامون في غرف منفصلة عن

زوجاتهم، ليس الأمر شذوذا عن القاعدة،» قالها دون فظاظة.

«يجدر به أن يكون.»

«هراء. كما أنكِ حبلى بالفعل. تتحدثين وكأن بوسعكِ الحبل في واحد آخر.»

لكنني لم أسمعه، لأنني رفعت جلبابي فوق رأسي. وعلى فخذي انسال خيط رفيع من الدم. وضعتُ إصبعا لأوقف جريانه وداهمني الذعر مثل غيوم عاصفة. أغمضتُ عينيَّ وصلَّيت.

الفصل السادس

رقدتُ دون نوم، مُتيبسة كلوح خشب إلى جوار ريتشارد، الذي غط بصوت خفيض. وفي النهاية نهضتُ لأمشي في الرواق الطويل وضوء القمر ينساب للداخل. كان المنزل غارقا في الصمت، وسطع خشب الأرضية المصقول براقا كالثلج. صرَّت الأرضية تحت وقع قدميَّ الصامت فيما ذرعتُ الرواق ذهابا وإيابا، يمينا وشمالا ثم أعيد الكرَّة من جديد. عدتُ إلى الفراش قبل طلوع النهار. ما فتئتُ أنظر كل حين إلى الخط الأحمر الجاف الذي اختلط لونه بلون جلدي لأثبت ما حدث، أو بالأحرى ما بدأ يحدث، ثم توقف. كنتُ قد داريته سريعا بثوب نومي، فلم يلحظ ريتشارد شيئا، إذ انهمك في غسل دم النعجة، الذي وصلتني رائحته من الناحية الأخرى للغرفة، والتوت معدتي بالتقزز والخوف، وكأن شمَّ رائحة الدم قد يستقدم دمي.

كانت آليس قد طلبت مني أن أمهلها بضعة أيام لجمع بعض الأعشاب المقويَّة، وبدت الأيام بالفعل دهرا، لذا وفي الصباح بينما الجميع يتناولون فطورهم، خرجتُ لترويض پاك. عفتُ الطعام لأني شعرتُ بمعدتي مرة أخرى مثل

جراب من ثعابين البحر الملتوية، ولكن من أثر القلق هذه المرة. انعطفنا يمين المنزل وسرنا حذو المرج، ثم النهر مارَّين بالحظيرة الكبيرة ومباني الخدمة. التقطت أنوف الكلاب رائحة پاك من أوجرتها فأطلقوا نباحا عقيما. شمشم پاك عند الزوايا والجدران، ثم انصرف عنها. تساءلتُ أحيانا هل تراه يعرف أنه كلب. هل تراه يتذكر شيئا مما سبق يوم أنقذته، ورجوتُ أنه لا يذكر.

«عمتِ صباحا، يا سيدة شاتلوورث،» قالها المزارعون والغلمان، محملين بمعدات وحبال وأشياء لم أكن أعرف فيما تُستخدم.

«عمتم صباحا،» قلتها، ومضيتُ في طريقي.

ما لبثت المنازل وملحقاتها أن توارت خلف الأشجار، التي أُسدلت فوقها مثل ستارة خضراء. أحاط بي حفيفها وأنا أتبع الدرب الضيق الذي قاد بعيدا عن جوثورب، مُراقبة پاك وهو يستكشف، ويتنقل بخفة بين الأشجار، وأنفه لصيق بالأرض.

بُعَيْد ربع ميل أو نحوه من المنزل، رأيتُ خيال شخصين يقتربان راكبين. دنوتُ من الشجر وانتظرت، ميزتُ في أضخمهما روجر. وعندما أصبحا على بعد عشرة ياردات تقريبا، قال كلمات وجيزة للشخص الذي على يمينه - امرأة ترتدي ثوبا بسيطا من الصوف. كان نظري ضعيفا، لكني عرفتُ أنها ليست زوجته، كاثرين. ترجَّل روجر عن جواده ودنا ممسكا بلجامه، الذي لاحظتُ أنه مربوط بحبل إلى رفيقه. إنها سجينة إذن. كان روجر بصفته

عمدة، ينقل المجرمين كثيرا بين أجزاء المقاطعة وأحيانا يأخذهم إلى سجن لانكستر. ثبتت عيناي زمنا طويلا فوق معصميها المكبَّلين، وعندما رفعتهما إلى الوجه الألمعي لشابة، بعينين سوداوين وشفتين حادتين، وجدتها ترمقني بشيء من الكبرياء العدائي.

قال روجر، «سيدة شاتلوورث، تسرُّني رؤيتكِ تمشين في هذا اليوم الجميل. تبدين في معنويات منتعشة.»

«هل أنت في طريقك لزيارتنا؟» سألته وأنا أمد له يدي ليقبلها.

«زيارة اليوم من نوع مختلف –دعوة موجهة لريتشارد، في الواقع. هل هو في المنزل؟»

«نعم.»

«هل لديه متسع من الوقت هذا الصباح؟»

«سوف يغادر إلى مانشستر خلال ساعة،» كذبتُ. لن يرحل ريتشارد مع روجر ويتركني وحدي مع أمي مهما كلفني ذلك. «إن الخدم يحزمون أغراضه الآن. هل كل شيء على ما يرام؟»

أومأ بنعم. وعلى غير عادته لم يقدم مرافقته.

«يا لخيبة الأمل. إنني في طريقي إلى آشلار هاوس.»

«منزل جيمس وولمزلي؟»

«بالفعل. خطر لي أن ريتشارد ربما رغب في مرافقتي – في انتظاري استجوابان لإجرائهما وكنتُ طامعا في مساعدته.» ثم مال عليَّ. «سيقوم زوجكِ بأمور عظيمة في المستقبل. تذكري كلامي، سوف يتولى منصبا رفيعا

في الحكومة عندما يبلغ عمري، وإنني أنوي مساعدته في طريقه. إنه يتميز عني بنسبه، عمه ذائع الصيت في القصر. سأقدمه إلى الملك في اللحظة المناسبة، وأتمنى له أن يسهم في التطورات التي تحدث في پندل. بوسع ذلك أن يعلي من قدره في نظر العائلة المالكة. إنني أثق في رأيه، وكذلك السيد وولمزلي، لكن سيتوجب علينا المضي قدما بدونه اليوم.»

التفت ليلقي نظرة سريعة إلى الوراء نحو مرافقته، التي كان حضورها الصامت يثير التوتر بصورة ما.

ثم قال روجر بغتة، «سمعتُ أنكِ استخدمت قابلة.»

رمشتُ في مفاجأة. «هذا صَحيح،» أجبتُه وأنا أتسائل كيف عرف، فريتشارد لم يقابله منذ رحلة صيدهم.

تهلل وجه روجر. «رائع. سوف نرى وريثا في جوثورب قبل نهاية العام. هل هي ذاتها آخر قابلة استخدمتها؟ التي من ويغان؟»

وجدتُ صعوبة في التركيز، مع البريق الماكر الذي ينبعث من المرأة التي خلفه.

«كلا. إنها من أهالي المنطقة.»

«جينيفر بارلي؟ كانت قابلة كاثرين.»

«كلا. إنها فتاة تدعى آليس، من كولن.»

ثم حدث أمر غريب. عند ذكر اسم آليس، صدرتُ من رفيقة روجر حركة فجائية أجفلت فرسها. رفعتُ ناظريَّ إليها، ثم أشحتُ بسرعة عندما وجدتُ أنها لم ترفع عينيها عن وجهي، كمن تقرأ كتابا في غاية التشويق.

قال روجر، «سيكون علينا أن نعدَّ هدية للولادة.» كيف بوسعه مواصلة الحديث بيننا وكأن سجينته غير موجودة؟ بدا مسرورا. «ماذا قد يشتري المرء للسيدة التي تملك كل شيء؟»

«من صديقتك، يا روجر؟ ألا تقدِّمها لي؟»

فقال، «هذه هي أليزون ديڤيس.»

سرت في جسدي قشعريرة، وتسارعت دقات قلبي. كان روجر إذن يتبختر بالساحرة في أرجاء پندل وجاء بها إلى جوثورب. شيء في النظرة المعتدَّة لأليزون جعلني أتأكد أنها تعرف ذلك، وشعرتُ بوخزة تعاطف.

«لا يغرَّنِّك الفستان – إنه لكاثرين. كانت أليزون نزيلتي في الأيام القليلة الماضية. ونحن في طريقنا إلى آشلار هاوس لاجتماع مع بعض أقاربها،» قالها ببشاشة، وهو يلتفتُ إلى رهينته.

لم تتكلم الفتاة، لكن هالة من الشر انبعثت منها. وفي الصمت الذي أعقب ذلك، انطلقت صيحة غراب من بين الأشجار وحرَّكت هبَّة ريح الغابة من حولنا.

«أبلغي ريتشارد تحياتي. وليلة الجمعة، ستأتين لتناول طعام العشاء في ريد؟ إن كاثرين تتشوق كثيرا لرؤيتك.»

«سيكون هذا شرفا لنا.»

ثم انحنيتُ احتراما، وتركتُ عينيَّ تنتقلان مرة أخرى إلى أليزون ديڤيس، التي كانت ساكنة كتمثال، وبصرها مستقر في نقطة ما في الفراغ. رفع روجر قبعته تحية ثم امتطى جواده. شاهدتهما يمضيان، فيما رفع روجر يده

التي تزينها عدة خواتم مُودِّعا. ثم ناديتُ پاك وباشرتُ السير عودة إلى المنزل.

*

وإذ أصبحنا في اليوم الأخير من الصوم الكبير ولم تكن أمي تحب السمك، الشيء الذي تذكرته الطاهية دائما، جلسنا إلى مائدة عشاء دسم بضم فطائر الجبن مع البطاطا والفاكهة والخبز والجعة. تناولتُ لقما من الأطراف، لكني كنت قد اعتدتُ ألا آكل، حتى لم أعد أشعر تقريبا بالجوع.

اعترضت أمي على جميع خدمنا عدا الطاهية. فقضت أنهم فظّون وجاحدون وقالت إنها مسألة وقت فقط قبل أن يبدأ اختفاء أواني الفضة ومفارش الحرير. عجبتُ أحيانا هل أعيش في منزلي أم منزلها. كان واضحا أنها تفتقد أيام إدارتها لبارتون، والذي كان بطاقمه الضخم مثل قصر مقارنة بعزبتها المتواضعة. اعتدتُ وريتشارد أن نسميها سمو الموقَّرة عندما كانت تزورنا بعد زواجنا، وتحاول توجيهنا كما لو كنا طفليها. لم أكن أملك حتى ذلك الحين، شخصا أشاركه مرحي. كنا نتوقف عن مضغ الطعام في فاهينا عندما تقول أشياء مثل، «صدقا، يا ريتشارد، لم يسبق لي أن قابلتُ رجلا يرتدي كل هذه الحلي،» و، «يجدر بك وضع شارتك على القناني التي تقدم فيها النبيذ – إنها الموضة، كما تعلم. حتى أنها منتشرة في يوركشاير.»

في عصر ذلك اليوم قررت أن تحتج على طاقم اللوحات فوق المدفأة.

«ريتشارد، أرى أنك لم تأمر حتى الآن بنسخ اسم ابنتي على إطار المدفأة،» هكذا أفصحت، مشيرة إلى المربعات الخشبية الخمس المنقوشة بأسماء أفراد متنوعين من عائلة شاتلوورث.

أضيف الحرفان الأولان من اسم ريتشارد إلى المربع الرابع قبل زواجنا. كان ينوي تكليف نجار بنقش الحرفين الأولين من اسمي في نفس المربع إلا أن الوقت لم يسمح، لذا طفا حرفا الراء والشين وحدهما في انتظار شريك. كان الأمر مثل كدمة ما انفكت أمي تنكزها، وكأن اللوح الخشبي هو الشيء الوحيد الذي يثبت وجودي وليس مجرد ديكور.

قلت، «لا استعجال في الأمر، يا أمي.»

«أليست أربعة أعوام زمنا كافيا؟»

وكان رد ريتشارد اللطيف دوما، «سوف أضيف هذا إلى قائمة مهامي التي لا تنتهي.»

عُقد العزم على أن تغادر في اليوم التالي، الذي هو أحد الفصح، وذهبنا معا جميعا إلى الكنيسة. وربما خُيِّل إليَّ لكني شعرتُ بخصري قد ازداد سمكه عن اليوم السابق. جلستُ خلال القداس وأنا أنظر إلى يدي متشابكتين بأناقة في حجري، وأتساءل أين تُراها آليس جراي وماذا تفعل. جميع أهل البلدة كانوا يحدقون بي أطول من المعتاد؛ وكنت أعرف أني بادية المرض. التزمتُ ارتداء الأسود - لأن الألوان أبرزت شحوب وجهي، الذي كان باهتا مثل سحابة ممطرة. كما أن حضور أمي جذب إلينا أكثر من بضع

نظرات زائدة. حافظت على جمود وجهها بغير اكتراث، لكني كنتُ أعرف أنها في داخلها تخرخر مثل قطة.

أثناء القداس وفيما خطب الخوري، أجَلتُ عيني بين القبعات والقلاسي، بحثا عن شعر ذهبي معقود، لكنني لم أجد شيئا. ثم انتبهتُ لنظرات شابة تجلس بعدي ببضعة صفوف، وترتدي عباءة حسنة سميكة، وبطنها الكبيرة تبرز منها. كانت تنظر لي بنفس الجرأة والودية التي تنظر بها نساء الريف إحداهن للأخرى، وكأنها تقول «أنا وأنتِ واحد ولا فرق بيننا». لكنني وهي لم نكن كذلك، فأشحتُ عنها بوجهي.

كانت يداي باردتان كالثلج، فوضعتهما تحت فخذيَّ حتى أصابهما الخدر. وشعرتُ منذ الصباح بالغثيان يعود بطيئا، ملحًّا ومكروها. كانت كولن تبعد أميالا قليلة وفيها أبرشية، لذا كان مُستبعدا أن ترتاد آليس كنيسة سانت ليونارد. ولكنها تعمل في حانة هاند آند شاتل، التي تبعد أقل من ميل؛ فهل أجرؤ على المجاهرة بنفاد صبري وزيارتها هناك؟ كنت قد دعوتها للمجيء في جمعة الآلام، لكنها قالت إنها لا تستطيع وإنها ستأتي بعد عيد الفصح.

رأيتُ الصَّيدلاني جالسا على بعد بضعة صفوف مع أسرته، ووجهه الحليم مُتجه إلى منبر الوعظ مثلما تتجه الزهرة إلى الضوء. هل ستزرع آليس الأعشاب بنفسها أم تبتاعها منه؟ وإن فعلت، فهل ستحفظ لسانها؟

كان لجون باكستر، كاهن الرعيَّة، صوت عال وواضح وصل رنينه حتى طنف الكنيسة، مُبدِّدا الظلام من كل زاوية.

وفـي تلـك اللحظـة كان يقـول، «وَأَمَّـا هيـرودس فَلَمَّـا رَأى يَسُـوع فَـرِح جـدًّا، لأَنَّـهُ كَانَ يُرِيـدُ مِـنْ زَمَـان طَويـل أَنْ يَـرَاهُ لِسَـمَاعِه عَنْـهُ أَشْـيَاءُ كَثِيـرَةً وَتَرَجَّـى أَنْ يَـرَاهُ يَصْنَـعُ آيَـة.»

وبيـن يديـه علـى منبـر الوعـظ اسـتقر الإنجيـل الجديـد الـذي ابتعنـاه لـه مـن لنـدن. وكانـت تلـك أول مـرة أدخـل فيهـا دار طباعـة، مبنـى عـال فـي المدينـة كان يشـبه فـي ضيقـه بالنسـبة لـي خزانـة ملابـس. وفـي الشـوارع خارجـه، حمـل الأطفـال سـلالا فيهـا أرغفـة خبـز فـوق رؤوسـهم، كمـا لـو كنـا فـي الجليـل. أمـا داخـل دار الطباعـة فـكان عالمـا مختلفـا بالكليـة، نصفـه أكاديمـي بأجـواء مـن الـورق والحبـر، ونصفـه يشـبه غرفـة تعذيـب بـآلات خشـبية طنَّانـة ضخمـة.

«وَوَقَـف رُؤَسَـاء الْكَهَنَـة وَالْكَتَبَـة يَشْـتَكُونَ عَلَيْـه باشْـتدَاد فَاحْتَقَـرَهُ هيـرُودس مَـع عَسْـكَرِه وَاسْـتَهْزَأَ بِـهِ وَأَلْبَسَـه لِبَاسًـا لاَمِعـا وَرَدَّهُ إلَـى بِيلاطِـس.»

كان الإنجيـل الجديـد قـد طُبـع فـي العـام الماضـي وابتعنـا منـه ثـلاث نسـخ: نسـخة للمنـزل، ونسـخة للكنيسـة، ونسـخة لأمِّ ريتشـارد. وكانـت النسـخ الثلاثـة تحفـة جماليـة، بحـواف ذهبيـة، وصفحـات برقـة البتـلات.

«فَصَرَخُـوا: «اصْلُبْـه! اصْلُبْـه!» فَقَـالَ لَهُـمْ ثَالِثَـةً: «فَـأَيُّ شَـرّ عَمـلَ هَـذَا؟ إنِّـي لَـمْ أَجِدْ فِيـه علَّةً لِلْمَوْت فَأَنَا أُؤَدِّبُه وَأُطْلِقُه» فَكَانُـوا يَلِجُّـونَ بِأَصْوَاتٍ عَظيمَـة طَالِبِيـنَ أَنْ يُصْلَب.»

كان جـون باكسـتر عجـوزا، لا يختلـف لـون جلـده عـن لـون صفحـات الإنجيـل، لكـن صوتـه تجـاوز سـعال الأطفـال وتململهـم وهمهماتهـم وكأنـه شـاب صغيـر. شـعرتُ بخفَّـة

في رأسي، وكأني ساعة رملية تحتاج إلى قلبها على وجهها الآخر.

«لأَنَّه هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتي يَقُولُونَ فِيهَا: طُوبَى لِلْعَوَاقِرِ وَالْبُطُونِ الَّتي لَمْ تَلِدْ وَالثُّدِيِّ الَّتي لَمْ تُرْضِعْ حِينَئَذٍ يَبْتَدِئُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا!»

شعرتُ بأمي تتحرك بجواري، ثوبها يحتك بثوبي. كان مشدُّ خصري ضيِّقا وخفق الدم في عنقي. كان رأسي من الخواء حتى ظننتُ أنه ربما ينفصل عن عنقي ويطفو مثل ريشة نحو روافد السقف.

دعانا جون باكستر إلى النهوض، وتحرك الحشد قُدُمًا، فحملني معه، ومالت الغرفة وطفت. ثم ساد الظلام كل شيء.

*

صباح اليوم التالي، وعوضا عن انتظار آليس أمام النافذة، قررتُ الانضمام إلى ريتشارد في الحديقة حيث رأيته يدرب الشيهانة الجديدة. انحسرت سحابة قاتمة مع رحيل أمي، لكن السحابة القديمة عادت لتحتل مكانها. وإذ تقدَّمتُ بحذر عبر العشب المبتل إلى حيث كان ريتشارد يقف قرب سلالم المدخل، توقفتُ بهدوء وراءه حتى لا أخيف الشيهانة التي كانت مربوطة إلى معصمه بحبل. مغميَّة العينين بقلنسوتها، رفرفت مُرتبكة فوق رأسينا، وقد جننتها رائحة الدجاج في جراب معلق بفخذ ريتشارد.

لتدريب الطيور فن خاص، وكان ريتشارد ضالعا

فيه. أصدر صوت طقطقة وشدَّ الحبل فانخفضت معه الشيهانة، مُتخبِّطة إلى أن وجدت مجثما فوق قفازه. وألقى ريتشارد إليها بنُتفة لحم.

قلت، «لن أفهم أبدا لماذا تصر على تدريب الصقور بنفسك وتخلِّي الصقَّار بلا شغل. يُدهشني أن عينيك مازالتا في رأسك.»

أجاب بثقة، «لأنه ممتع لأبعد حد. وأضيفي إلى ذلك، أن ولاءها لا يصبح لكِ وحدكِ إلا إن درَّبتها من أول الطريق. إن الولاء يُكتسب، ولا يُطالَب به.» انطلقت الشيهانة محلِّقة من جديد، لتصيبها الصدمة بوصول الحبل إلى نهايته وتزعق بصوت عال. «هذه الشيهانة من تركيا. لن تحتاج إلى جرس إن أصرت على إطلاق هذا الصوت.»

قلتُ أغيظه، «إنها تلعنك.»

«لم أكن أعرف أنكِ تتقنين التركية.»

«مازلتَ تجهل الكثير عني.»

ابتسمنا أحدنا للآخر، وطفت أفكاري من جديد إلى السطح. فقاومتها.

سألني ريتشارد، «ثمة ما يزعجك؟»

ما كان أسهل أن أذهب وأحضر الخطاب من صواني.

ثم أسأله وأنا أمد يدي به، «أخبرني لماذا أخفيتَ هذا عني. أخبرني أنه ليس صحيحا.»

لكني عوضا عن ذلك، نفيتُ بحركة من رأسي وثبتُّ عينيَّ على الشيهانة.

وقلتُ، «إن روجر يدعونا لمشاركته العشاء يوم الجمعة.»

«أجل، أخبرني أنه قابلكِ. كان يصطحب معه ساحرته؟»

«كانت مخلوقة غريبة. لا أعرف أيهما أثار رجفتي أكثر – حضورها أم هدوء روجر تجاه الأمر. إنها خطيرة بلا شك وإلا ما قام بتكبيلها. لماذا قد يحضرها روجر إلى منزلنا؟»

«إنه يجرها وراءه كظله. إن بقاءها في محيطه يضمن له بقاءه في محيط الملك. أنا واثق أنه سيتخلص منها ما إن تؤدي الغرض.»

«إن تلك قسوة لا يجدر بك أن تظنها في صديقك.»

نظر لي ريتشارد بطرف عينه. «وتلك سذاجة لا يجدر بكِ أن تظنيها فيه.» ثم لمس بإبهامه في رقة الكدمة الحديثة على صدغي.

قلت، «إن فيها ألوانا أكثر من ثوبي. لكن الكدمة في كبريائي أكبر – لقد وقعتُ أمام مشهد كبير.»

«سيتوجب علينا أن نحبسكِ في المنزل. في البداية تسقطين عن فرسك، ثم تفقدين الوعي في الكنيسة. ماذا نفعل معكِ؟»

وخلفنا كانت براميل نبيذ تُنقل إلى داخل المنزل، مُتدحرجة فوق الممر الحجري الذي قاد إلى القبو. عاد انتباه ريتشارد إلى الشيهانة، وتبعتُ نظراته لأبدي إعجابي بمخالبها البراقة، وجناحيها الرقيقين وهما يقاومان الحبل. بعد بضعة أشهر من الآن، سيضعون لها فريسة أرنبا بريًّا ميتا محشوا بدجاجة حية، ثم أرنبا بريًّا بساق مكسورة. تساءلتُ أين تراني سأكون عندما يأتي موعد أول رحلة صيد لها، مدفونة في باحة الكنيسة؟

زعقت الشيهانة ورفرفت فوقنا، ومن بين ضربات جناحيها انبعث صوت أظافر. أنزل ريتشارد الشيهانة إلى قفازه، وكان حينها أن شعرتُ بها: الرفسة الأولى. واضحة، لكني قبل أن أدرك حدوثها، توقفت، فجأة حتى ظننتُ أني ربما تخيلتها. لكني ميَّزتُ الإحساس من المرات السابقة: وكأنني برميل ماء وفي داخلي سمكة تتقلَّب. تشبثتُ بذراع ريتشارد، وطنين في جسدي كله.

«فليتوود، هل أنتِ بخير؟»

«نعم،» كذبت. «الطفل... شعرتُ به يتحرك.»

«لكن هذا رائع!» تهلل وجهه، ولم يسعني سوى رد ابتسامته.

رفرفت شيهانته متململة، وقبل أن تمسك برأسي تراجعت. «لا بد أن آليس في طريقها إلى هنا - سآخذ فرسي لملاقاتها على طريق كولن.»

«هل معصمكِ في حال تسمح بقيادة فرسكِ؟»

رفعتُ ذراعي المربوطة. «عاد كالجديد.»

*

في الهواء النقي، والنهر على جانب والغابة على الآخر، ومع كل حركة للفرس شعرتُ بأفكاري تزداد ابتعادا عن حياتي وقربا من حياة آليس. كنتُ أجهل عنها أمورا كثيرة. عندما رافقتها إلى الباب الرئيسي يوم أنقذتني، سألتها عن والدها، وأخبرتني آليس أنه مريض وعاجز على العمل. تساءلتُ هل تراهما مقرَّبان، أم أنَّ آليس تحلم بالزواج حتى يمكنها مغادرة المنزل. لم تكن البنات

الفقيرات مثل الثريات، اللاتي لم يكن عليهم سوى الانتظار في بيوتهن إلى أن يأتي العريس، وكأنهن ديوك رومية تسمَّن من أجل عيد الميلاد المجيد. أما الفقيرات فبوسعهن اختيار أزواجهن، بل وربما مثلهن مثل الرجال: جار يجذب أعينهن، أو عامل في متجر يبتعن منه اللحم كل أسبوع. حاولتُ تخيُّل آليس مع رجل -أصابعها البيضاء الطويلة تلمس وجهه، وهو يُزيح خصلة شعر ذهبية من على وجهها- لكني لم أستطع.

انحسرت الأشجار وأفسحت المكان للسماء المكشوفة، وتقبَّبت التلال الخضراء في الأرجاء كما تفعل الملاءات الجديدة وهي توضع على الفراش. التوى النهر أمامي وكان عليَّ اختراق غابات هاج، تاركة الخلاء إلى الأشجار من جديد. كانت حوافر الحصان أخف وقعا هناك، وبعد قرابة دقيقة رأيتُ أمامي شخصين في مساحة خالية من الأشجار - امرأتين ترتديان ثوبين باهتين وقبعتين بيضاوين. لم تنتبها لي. كبحتُ لجام فرسي، عندما أدركتُ أن إحداهما كانت أليس، وكان صوتها مرتفعا وغاضبا، متخللا الأشجار. ترجَّلتُ بخفة عن حصاني وعبرتُ بهدوء الأرض المطحلبة إلى حيث كانتا فتوقفتُ خلف شجرة، منها رأيتُ المرأة الأخرى بصورة أوضح.

كانت أقبح امرأة رأيتها في حياتي - يكاد النظر إليها يصيب المرء بالرعب. وكانت فقيرة: كما هو واضح. فستانها فضفاض جدا ولا شكل له حتى بدا وكأنها خاطته من جِوال، ما أظهرها نحيفة وممسوخة. لكن أكثر

شـيء مخيـف فيها كان عينيهـا: حيـث كل منهمـا فـي مـكان مختلف وليس على نفس المسـتوى كبقيـة النـاس. إحـدى العينيـن فـي أعلـى وجههـا، تحـدق فـي أوراق الشـجر مـن حولهـا، والأخـرى، أدنـى منهـا علـى الخـد، ترمـق الجـذور. هـل كانـت بذلـك تـرى أكثـر، أم أقـل؟ وقفـت فاغـرة فاهـا، فتركـت لسـانها يمـر فـوق شـفتيها وآليـس تتحـدث، بصـوت حـاد وخفيـض فـي نفـس الوقـت.

لـم أسـتطع سـماع مـا قالتـه، وإذ جهدتُ لأصغـي سـمعي، تحـرك شـيء بجـواري فجعلنـي أقفـز. كلـب بنـي نحيـل أجـرب هـرول مـن بيـن الأشـجار، فتجاوزنـي وانطلـق نحـو المرأتيـن، اللتيـن لـم تلتفتـا إليـه. مـرَّ عبـر الفـراغ الصغيـر بينهمـا ومنـه إلـى الأشـجار خلفهمـا. إنـه أليـف المـرأة القبيحـة إذن. فكـرتُ فـي الابتعـاد قبـل أن ترانـي إحداهمـا، لكـن آليـس بـدت كمـن تمشـي مترصـدة لـي ولحصانـي، فتسـمَّرتُ. تكلمـت المـرأة الأخـرى بصـوت خشـن أجـش، فألقـت عليهـا توبيخـا أو مـا يشـبه.

نبـح الكلـب مـن بعيـد، والتفتـت صاحبتـه مـن فـوق كتفهـا لبرهـة قبـل أن تحـوِّل عينيهـا المتضاربتيـن -بصـورة اقشـعرَّ لهـا بدنـي- فـي اتجاهـي. سـرى وخـز فـي جلـدي، وأملتُ أن يحـول ثوبـي الأخضـر الداكـن دون رؤيتـي. تكلمـت إلـى آليـس مـرة أخـرى، ثـم غـادرت بتثاقـل خلـف الكلـب، وهـي تغمغـم مُحدثـة نفسـها.

بقيـت آليـس لبرهـة فـي مكانهـا ورأيتهـا تطبـق قبضتيهـا وترخيهمـا. ثـم فركـت ذراعيهـا كمـن تشـعر بالبـرد - إشـارة

ضعف أشعرتني بالذنب لاختبائي. ثم ذهبت في الاتجاه المعاكس، مباشرة إلى النهر.

لم ألمح فرسها في أي مكان، ولا سمعتُ وقع حوافر على أرض الغابة. ووسط حيرتي فيما أفعل، راقبتُ رحيلها لدقيقة، ثم امتطيتُ فرسي وعدوتُ به في طريق مختصر إلى المنزل. ترجلتُ لاهثة عند ذيل سلالم المدخل، ثم التفتُّ لأنظر في الطريق التي جئتُ منها وبعد بضع دقائق رأيت هيئتها المتقوسة تمشي بعجلة من كومة الأشجار شرق الأرض المحيطة بالمنزل. في طريقة سيرها خفَّة، وبهاء، وهيمنة، وقد عبرت المرج الذي يقع أمام المنزل بسرعة أرنب، محدودبة في مواجهة الريح. لم ترتدِ عباءة. وكان تعبير وجهها قاتما وبدت مضطربة.

«أين فرسك؟» كان أول ما سألتها. وقبل أن يُتاح لها الرد انبعث نباح كلب من الجهة التي أتينا منها. نظرت خلفها، مشتتة الفكر. «آليس؟»

فُتح الباب الأمامي، ووقف ريتشارد على رأس السلم.

«آه، عادت عفريتتا الغابة. طاب مساءكِ، يا آنسة جراي.»

أومأت آليس، وعيناها في الأرض.

«طاب مساءك، يا سيدي.»

«أترعين زوجتي جيدا؟»

أومأت آليس مرة أخرى.

ثم سألني ريتشارد، «فليتوود، هل ستقود فرسكِ نفسها إلى الإسطبل؟»

عدتُ إلى رشدي وأخذتُ اللجام، وهممتُ بإعادة

الفرس من الطريق المختصر، لكن ريتشارد أوقفني.

«بوسع قابلتكِ أن تفعل ذلك.»

نظرتُ بقلق إلى آليس، التي كانت مشتتة الذهن وأكثر شحوبا من المعتاد.

سألها ريتشارد، «إن لم يكن لديها اعتراض؟»

بعلائم استياء، تناولت آليس مني اللجام. وشاهدتها تذهب، محنيَّة على الحيوان، ثم رفعتُ تنورتي ودخلتُ المنزل.

«تبدو صغيرة السن مقارنة بالقابلات،» قالها ريتشارد فيما تجاوزته إلى داخل الدهليز المظلم. اضطرب لهيب مصابيح الحائط مع هبَّة الهواء التي أحدثها إغلاق الباب.

«إنها في عمرك تقريبا.»

«ما زلتُ أرجح ذهابنا إلى لندن. إن فيها مئات القابلات، اللاتي يولدن الأطفال كل يوم.»

«لا تجبرني على الذهاب إلى لندن، يا ريتشارد. أريد لابننا أن يولد في البيت.» وختم ذلك الأمر على ما يبدو، فتناول يدي، وضغط عليها. «سأكون وآليس في مخدعي لتفحصني.»

*

مرَّت عشر دقائق ولم تظهر آليس بعد، فنهضتُ من على الأرض حيث كنت أمسِّد پاك وذهبتُ إلى أعلى الدَّرج. وهناك وجدتها، تقف تحت صورتي، وتحدق فيها. لم تلحظ أنني أراقبها، ورأيتُ زاويتي فمها تتقوسان لأعلى، وكأنها تبتسم، شاردة في ذكرى عزيزة.

«ما رأيكِ في أمي؟» سألتها، فأجفلت.

«إنهـا... حـادة المـلامـح جـدا،» كانـت تلـك إجابتهـا، فابتسـمتُ ابتسـامة أظهـرت أسـناني. «هـذه أنـتِ؟» وأشـارت إلـى الطفلـة فـي الصـورة.

«علام كنتِ تبتسمين؟»

«فـي وجهـكِ جديـة لا تناسـب سـنكِ الصغيـرة. إنـكِ تذكرينني بـ...» ثـم أحجمـت.

«بمن؟»

لكنها لـم تجـب، وتحرَّكت وكأنهـا قوطعت أثنـاء اسـتغراقها فـي حلـم يقظـة، فرفعـت تنورتهـا وانضمـت إلـيَّ فـي أعلـى الـدَّرج. مررنـا بغرفـة المـلابـس التـي ينـام فيهـا ريتشـارد، وكان السـرير المدولـب ظاهـرا بوضـوح، ولاحظـتُ أن يديهـا فارغتـان؛ وبـدا أنهـا لا تحمـل شـيئا معهـا.

قلتُ وأنا أغلق البـاب خلفنـا، «إن زوجي يتسـاءل كم عمرك.»

انفرجت شفتاها دون أن تقول شيئا وتهدَّل كتفاها قليلا.

«لا أعرف.»

حدقتُ بها.

«لا تعرفين كم عمرك؟ حسن، ما تاريخ ميلادك؟»

هـزَّت رأسـها علامـة الجهـل. «أخشـى أنَّ علـيَّ الاعتـراف بشـيء مـا. لقـد أضعـتُ الحصـان الـذي أعطيتنيـه.»

«أضعته؟»

«ربطتـه خـارج منزلـي وفـي صبـاح اليـوم التالـي، كان قـد اختفـى.»

ظهـر الأسـف فـي كل ملمـح منهـا، ولعنـتُ حماقتـي فـي سـري؛ حيث لـم يخطـر لـي سـؤالها إن كانـت تملك إسـطبلا،

ولكن من أين لها بالطبع أن تملك واحدا. كان جديرا بي أن أوجرها لتبقيه في خان أو مزرعة قريبة. أساءت فهم استجابتي فظنَّتها خيبة شديدة.

«سأرد لكِ ثمنه؛ سأعمل دون أجر. بكم الفرس الواحدة؟»

«لا أعرف... بضع جنيهات؟» فتهاوى وجهها. «لا تقلقي، ما حدث قد حدث، وسوف أوجركِ كما اتفقنا،» قلتها دونما اقتناع، إذ أنَّ غضب ريتشارد لن يعرف حدودا.

كيف أخبره؟ لا يهم. في وجود آليس، لن نلتفت إلا لما يحدث هنا والآن.

سألتها ماذا أحضرت، فذهبت إلى المزينة وشرعت ترفع تنورتها، وتُخرج صُرَّات كتانية صغيرة من جيبها وتصفها على سطح المزينة المصقول ثم تفتحها لتكشف عن أعشاب بدرجات متباينة من اللون الأخضر. مع نار المدفأة عامرة ودافئة، والكلب يغطُّ بوقار فوق البساط، أصبح لمخدعي نفس جو المطبخ العملي، وذهبتُ إلى طرف السرير وجلستُ عليه، حائرة فيما أفعل.

قلتُ، «تشبهين تجار الأعشاب المتجولين. سوف ينبهر ريتشارد.»

أشارت بإصبعها من اليسار إلى اليمين. «شبت، مخمليَّة، خزامى، بابونج.»

رفعت أول حزمة: ناعمة وخفيفة بأوراق سرخسية رقيقة هفهافة. «اجعلي طبَّاختكِ تقطِّع هذه الأعشاب وتخلطها مع الزبدة، ويمكنكِ وضع المزيج على اللحم والسمك وغيره.»

«ما فائدتها؟»

«لها فوائد كثيرة. هذه البتلات،» ورفعت الأزهار الذهبية الرقيقة، «يمكن تجفيفها وتقليبها في حليب ساخن، أو استخدامها لتنكيه الجبن. اطلبي من المطبخ صنع قدح ساخن وإحضاره لكِ كل صباح ومساء مع تقليب هذه الأعشاب فيه، وسوف يخفف ذلك من المرض.»

أومأتُ وأنا أستذكر: زبدة، حليب ساخن، جبن.

ثم قالت، «أما الخزامى، فاتركيه في ماء عذب لعمل منقوع، وانثريه على كيس مخدتك ليساعدكِ على النوم، ويُبعد عنكِ الكوابيس.»

رمقتني بنظرة ذات مغزى، ولوهلة تساءلتُ هل سبق لي أن أخبرتها عن الكابوس. كيف لها أن تعرف؟ رفعت مئزرها مرة أخرى وأخرجت قارورة زجاجية صغيرة حملتها بين سبابة وإبهام.

«أعددتُ لكِ كمية بالفعل - إنها آخر قارورة كنتُ أملكها.»

ثم قصدت الفراش وسدَّت بإصبعها نصف فوهة القارورة، وهزتها برفق فوق المخدَّات واللحاف. ثم أوقفها شيء ما، وانحنت أكثر لفحصه.

«شعركِ يتساقط؟»

لمسته بخجل، وقد غطى اللفائف تحته بالكاد.

«أجل.»

لم أر وجهها من حيث وقفت، لكن الظاهر أنها كانت تفكر فيما مسحت ماء الخزامى فوق أغطية السرير.

وبعد لحظات عادت لتقف جانبي، فوضعت القارورة في يدي، ثم رفعت ملء يدها من نبات يشبه الأقحوان.

«كحوض بابونج أصفر، داس عليه الناس، فانتشر أريجه أكثر،» تلوتها من الذاكرة. « هل تعرفين تلك الترنيمة؟»

«لا،» قالتها باقتضاب. «انقعي هذا أيضا في حليب ساخن، ثم صفِّه، ثم سيصبح جاهزا لشربه. وآخر شيء.» وبين أصابعها الطويلة أمسكت شريطا رفيعا يشبه جذع شجرة. «لحاء صفصاف. امضغيه إن شعرتِ بألم – سيساعدك.»

«من أين ابتعتِ كل هذه الأعشاب؟ صَّيدلية باديهام؟»

قالت، «بل نساء أعرفهن.»

«حكيمات؟»

«أكثر النساء حكيمات.»

لم أدرِ إن كانت تمازحني.

«هل هنَّ محلُّ ثقة؟»

منحتني آليس نظرة ساخطة.

«عند الملك؟ لا، بل إنه ساقهم إلى الجحور. لكن الناس مازالوا يمرضون، ويموتون، وينجبون الأطفال، ولا يملك الجميع أدوية ملكية. لقد خلط الملك الحكيمات بأعمال الشعوذة.»

«يبدو من كلامكِ أنكِ لستِ من أنصاره.»

لم تجب، وشرعت تطوي المربعات الكتانية الصغيرة. عديد من الناس كانت لهم آراؤهم الخاصة حول الملك إلا

أنهم احتفظوا بها لأنفسهم لأسباب وجيهة، ولهذا فوجئت بصراحتها. ربما هكذا تتحدث طبقة الفقراء.

«إن الملك لا يشجع النساء اللواتي يحاولن صنع شيء في الحياة بأي طريقة متاحة: مساعدة الجيران، طرد الأمراض، الحفاظ على حياة أطفالهن. وطالما هو كذلك، لن أكون من أنصاره.» ثم نفضت كفيها وأصبحت أكثر عمليَّة. «تتذكرين جميع التعليمات؟»

«أظن ذلك.»

كم سرَّني أن ريتشارد أو الخدم لم يسمعوا حديثنا عرضا. أخرجت آليس صرَّتها وطوّت الكتان داخلها، ثم طلبت رؤية معصمي.

«كدت أنسى...» شرعتُ أقول وهي تفحصه، فتضغط هنا وهناك وتثني كفي أماما وخلفا. لم أعد أشعر بألم. «لقد نزفت في تلك الليلة.»

ثبتت آليس عينيها العسليتين الواسعتين في عيني من جديد فاحت منها رائحة الخزامى. من أين تأتي؟ لا يُعقل أنها تملك عطورا. لا بد أنها تفركه بمعصميها وعنقها. تخيَّلتها ترتدي ثوبها الصوفي الخشن وتدسُّ شعرها تحت قلنسوتها قبل أن تأتي بهذا المسعى البسيط نحو الأنوثة.

«هل شعرتِ بأي ألم؟» نفيتُ بحركة من رأسي. فضيَّقت عينيها. «يُحتمل أن جسمكِ يحوي دما زائدا عن الحد، ما يشكل ضررا عليكِ وعلى الجنين. عندما آتي في المرة القادمة سأحضر شيئا له.»

«ومتى سيكون ذلك؟»

«خلال بضعة أيام. وحتى ذلك الحين، استخدمي هذه الأعشاب كما علَّمتكِ، وسوف تجدين تحسُّنا.»

ذهبت إلى صواني، حيث احتفظتُ بخطاب الطبيب، وأخرجتُ صرَّة نقود صغيرة، فناولتها لها.

«ما هذا؟»

«أجرة أول شهر مقدما. بكم أدين لكِ مقابل الأعشاب؟»

«لا شيء.»

احتوت وزن الصرَّة في كفِّها، وتركت النقود تنساب حولها. ذكرني الصوت بريتشارد، واختلستُ نظرة إلى الباب. لم أكن قد أخبرته أو جيمس بالأجرة التي أدفعها لآليس - يمكن تأجيل ذلك إلى وقت لاحق، حين تكبر بطني ويرى تركيباتها تؤتي نفعها. وحينها لن يكون بوسعها أن يحتج كثيرا.

رافقتها إلى الخارج، ولوَّحتُ لها من أعلى الدَّرج، وعدتُ إلى مخدعي لأستريح. كنتُ في العادة أضطر لنزع خصلات شعري الداكن من فوق الوسادة وإلقائها في النار، لأواجه بالقلق من أنه في النهاية سيتساقط كله وأن رأسي ستصبح صلعاء كبيضة. ماذا أيضا سوف يسلب هذا الطفل مني؟ إنهم يصنعون باروكات فخمة هذه الأيام، لكن شعر المرأة لا يقل قيمة عن ملابسها ومجوهراتها، وشيء لا يمكن نزعه. لو أن ريتشارد لا يشتهيني بالفعل، مع بطني التي تكبر وبشرتي الشاحبة، فهو لن يشتهيني قطعا بدون شعري الأسود الكثيف الذي طالما كان لامعا كشعر الغراب. عندما قابلتُ شقيقته

نظرتُ بعين الحسد إلى شعورهن الذهبية الناعمة. لكن الأسود لون باهظ، تصعب صباغته والمحافظة عليه. الأسود يعني الثروة والنفوذ.

جلست على طرف السرير ومررتُ يدي فوق الوسادة، لكن لا خيوط سوداء ظهرت فوق الأبيض. لابد أن آليس أزالتها. اضطجعتُ، وأسبلتُ جفنيَّ وتركتُ الخزامى يحملني إلى النوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

منذ أول يوم في زواجنا، وريتشارد يتفاخر بإظهاري معه. كنتُ في الحفلات أتألق تحت نظرات رفاقه مثل جوهرة تحت ضوء الشموع، وأبحث دائما عن عينيه طلبا للرضا فأجده، وأزداد تألقا.

كنت أتطلع شوقا إلى عشاء روجر، وكنتُ أتألق أكثر من أي وقت مضى الآن وقد أتت تركيبات آليس أكلها. وكان من حسن حظي مع ذلك، أنها لم ترني أذرع مخدعي، وأستجمع شجاعتي للنزول إلى المطبخ وتكرير تعليماتها على الخدم. كانت أمي تقول إنني لطالما اكترثتُ أكثر من اللازم لما قد يظنه الناس، لكن الحقيقة أنني أكترث أكثر من اللازم لما يقولونه، خاصة عندما أوليهم ظهري. إن الظنون تظل في الداخل. أما الشائعات فلا، وبوصفي سيدة جوثورب كنت أعرف أنني مادة لكليهما. أنصتت لي الطباخة بحاجب مرفوع عندما أريتها الشبت للزبدة، ونثرتُ أوراق البابونج على طاولة العمل الخشبية. لكنها أطاعت، ووصل قدح من الحليب الدافئ الممزوج بالبابونج الحلو إلى باب مخدعي ليلا، وأُحضر لي طبق زبدة مخصوص في طعام العشاء باليوم التالي، ولأول مرة

أشعر بالحب نحو الخدم. واظب ريتشارد على النوم في الغرفة المجاورة، لذا رجوتُ أن يشع تألقي في عشاء روجر حتى ليظل السرير المدولب دون أن يفسد ترتيبه.

ثم جاءت الجمعة، وفي الحادية عشرة، كنا جاهزيْن للذهاب إلى ريد هول. كان النهار قد صار أطول، وحتى لو قضينا وقت العصر كله في منزل آل نولز، فسوف يأتي موعد رحيلنا والنهار مازال قائما. لم أكن أحب السير في الطريق ليلا، عندما لا تُرى أطراف الغابة وإنما تُسمع وهي ترتجف وتحاول التخلص من جذورها مثل كلاب الصيد في مقاودها. لقد ظللتُ مريضة زمنا طويلا حتى لم أعد أتذكر آخر مرة رافقتُ فيها ريتشارد لزيارة أحدهم، ولذا ارتديتُ واحدا من فساتيني المفضلة بلون أزرق داكن، ومطرز بطيور وخنافس عجيبة، واعتمرتُ قبعة حرير طويلة، وعلى الفستان وضعتُ زي الركوب. قررتُ تأجيل إخباره عن الحصان الذي سُرق إلى يوم آخر، لأنه سيعكر السهرة بلا شك. وكنتُ عازمة ألا يُعكرها شيء.

*

«آه، حمامتا الحب.»

استقبلنا روجر في البهو الرئيسي، فناول كلا منا كأسا من النبيذ الأبيض. وكان يرتدي ملابس رفيعة الذوق مع لمسة أبقاها من قرويته ظهرت في حلّته القطيفة السوداء وحذاءه الأملس ذي الرقبة الطويلة. أما زوجته كاثرين، فقد توجَّهت نحوي مباشرة في ثوبها الدانتيل الأسود بتطريز ذهبي أنيق. لم تعتمر قبعة، وكان فستانها

بفتحة صدر واسعة جدا. رغم أني أصغر من ابنتها، إلا أننا تشاركنا الاهتمام بالموضة ولندن، وأفضل متاجر الملابس في مانشستر وهاليفاكس ولانكاستر.

«كيف الحال في جوثورب؟ مضى وقت طويل لم نركِ فيه - أخبرنا ريتشارد إنكِ مريضة للغاية. أرجو أن تكوني قد تعافيتِ؟» وكانت كاثرين قد قالت ذات مرة إننا قلنا ما يلزم من المديح على ملابسنا. تلألأ قرطاها الزمرديان السديلان في ضوء الشموع.

قلت، «آه. أجل، كنتُ حبيسة المنزل لبعض الوقت لكنني أفضل الآن، شكرا لكِ.»

«أخبرني روجر أنكِ رافقتهما للصيد منذ وقت ليس ببعيد؟ كانت مفاجأة - مع كل الوحل الذي يُفسد الثياب!»

«أجل، وإن كان ريتشارد قد ألقى عليَّ اللوم في إخافة الطريدة بصوتي - قد لا يكون الصيد أفضل مناسبة للتحدث مع الأصدقاء.» وابتسمت.

«إنَّ بابنا مفتوح دائما لاستقبالك - وإن كنا في نقص من الغرف في الوقت الراهن.»

«ها؟»

«سأدع لروجر أمر إخباركِ في وقت العشاء.»

وفي تلك اللحظة استدار أحد الرجال الحاضرين في الحفلة فوجدتُ أنه توماس ليستر. التقت عيناه بعينيَّ ومنحني إيماءة مهذبة.

قلتُ، «منذ قريب زارنا السيد ليستر في جوثورب، أثناء توجهه إلى يوركشاير.»

كان نِك بانستر العجوز المتغضن، وعمدة پندل السابق، يقف بدوره مع روجر وتوماس وريتشارد، وهو يضم قدحه إلى صدره.

«كما أنَّ روجر قد أغرى نِك بالخروج من قوقعته أن وعده بطيور سمينة وبراميل من النبيذ الأبيض،» هكذا أضافت كاثرين بودٍّ، قبل أن تدعونا إلى الجلوس.

كان توماس ليستر على يساري ونِك بانستر على يميني، وروجر وكاثرين وريتشارد قبالتنا.

«لا بد أن نباعد بين حمامتي الحب وإلا غرَّدا أحدهما للآخر طوال الليل،» قالها روجر وهو يغمز بعينه.

فابتسمتُ، وتخيَّلت الأثر الذي سيحدثه الإعلان أن حمامتي الحب ينامان في غرفتين منفصلتين.

ثم وُضع أول صنف في العشاء: وليمة من فطائر ضأن، ومعجنات محشوة بلحم الأيل الأسمر، وحساء لحم خنزير مع بازلاء. انتظر روجر وضع كل شيء وتقديمه في الصحون ثم تكلَّم.

فقال ونحن نتناول السكاكين، «والآن، كما ستعرفون جميعا، فقد كنت أحقق في سلسلة من الجرائم في محيط پندل. ما لا يعرفه بعضكم أنه جرى اعتقال أفراد آخرين بعد عدد من الاستجوابات التي أثارت قلقا عظيما.» قرَّب كرسيه من الطاولة وأشار لأحد الخدم بصب النبيذ الأبيض في الكؤوس. «قد تتذكرون أنني أخبرتكم عن أليزون ديڤيس، الفتاة التي مارست سحرا على البائع المتجول جون لو؟ يسرُّني أن أبلغكم أنها الآن

في زنزانة حصينة مع عائلتها، وهكذا أصبح أهل پندل الأطهار الآن في منجى من عمل إبليس.»

فسألته، «عائلتها أيضا في السجن؟»

أومأ روجر ببطء. «أمها وجدتها وشقيقها جميعهم اعترفوا بالسحر والكثلكة. حيوات عديدة ضاعت على يد آل ديڤيس – لقد ضللوا الشرطة زمنا طويلا.»

وعن يميني تحدث نِك بانستر لأول مرة بصوته الأجش المتحشرج.

«إنها صدفة، أليست كذلك، أن وقع ديڤيس يشبه إبليس؟»

انفجر الجميع في الضحك وانتظرتُ لأتكلَّم.

«ماذا فعلوا؟»

«آه...» لوَّح روجر باستهانة. «خليط رهيب من الأشياء: دمى مصنوعة من الطين، تعاويذ، لعنات. ولكن يكفي دليلا أن لكل منهم خادمه من الجن.»

«رأيت خُدَّامهم؟» سألته، ذاكرةً أنه لم ير تابعة أليزون بنفسه قط.

«لم أكن بحاجة إلى ذلك. أعرف أنهم موجودون. لقد وصف جون لو تابعة أليزون – الكلب. وأمها إليزابيث أيضا تملك كلبا يُدعى بول، وجدَّتها تربِّي واحدا منذ قرابة عشرين عاما. منذ عقدين من الزمان، أبرمت معاهدة مع الشيطان، ونفَّذت أعماله في أرجاء المقاطعة.»

فسألته، «ولكن كيف تعرف يقينا لو أنك لم ترهم؟»

سادت بضع ثوانٍ من الصمت تخللتها أصوات المضغ والبلع من حولي. ونظر لي روجر بثبات.

«لا يظهر الشيطان إلا لمن يعرفهم خُدَّاما له. إنهم يجعلون حيواناتهم تمص الدم من أجسادهم - هل يبدو لكِ هذا أليفا مسالما؟ هل تجعلين كلبكِ يفعل هذا، يا فليتوود؟»

قال ريتشارد بفتور، «روجر. سأطلق شيهانتي عليك وسوف تمتص دمك.»

ضحك الجميع فيما عداي.

أمسكتُ سكِّيني وحركت الطعام في صحني، لكن لحم الضأن الدسم أثار اضطراب معدتي.

«ما الجديد بخصوص امرأة بريستون؟» سألت كاثرين توماس ليستر، الذي طالما استدراجه إلى المحادثة.

اعتدل قليلا في جلسته عند ذكر خادمته، وتنحنح.

«كانت تبرئتها صدمة.» تحدث بهدوء، وهو يتجرَّع النبيذ في قدحه. «لكني واثق أنها لن تلبث أن تعود.»

لم أكن واثقة أني فهمتُ قصده.

فسألته، «تعود إلى أين؟ مُؤكد أنكم لن توافقوا على عودتها إلى ويستبي ما دمتم تعتقدون أنها قتلت طفلا؟»

وضع قدحه ومسح فمه الصغير بمحرمة.

«بل في محاكمات يورك القادمة.»

أجلتُ نظري في بقية الضيوف.

«عفوا، لا أفهم.»

قال بصوت خفيض، «حسنا. لقد قتلت جانيت بريستون أبي.»

خيَّم الصمت على المائدة. ولم تقطعه سوى أصوات الريح عند النافذة والنيران تستعر بقوة في المدفأة

العظيمة. بدا أن بقية الضيوف يشاركونني الحيرة. تراجع روجر في مقعده ومنح توماس إيماءة أبوية، وكأنه كشف عن شيء من خبايا نفسه.

ثم تكلم ريتشارد. «لقد مات والدك منذ أربعة أعوام.»

جعل توماس عينيه في صحنه، قد تصلَّبت بنيته الصغيرة.

قال بصوت خافت، «لم أخبر أحدا بالكلمات التي قالها عند موته. كلانا أن وأمي سمعناه. كان في غاية الرعب.»

«من ماذا؟»

«من بريستون. صرخ أبي وهو يحتضر: «جانيت تُطبق على أنفاسي! زوجة بريستون تُطبق على أنفاسي – أنجدوني، أنجدوني!»» وهنا رفع صوته في صراخ عالٍ ومنفعل. صمت كل من على المائدة، ورنَّ صوته المدويّ بين الجدران العالية. «أمرنا بإغلاق الأبواب، جميع أبواب المنزل حتى لا يمكنها الهرب.»

«كانت هناك؟»

«روحها كانت هناك. كان يستطيع رؤيتها، أعرف ذلك. بعد موته جيء بها إلى جثمانه وقد نزف دما من لمسة يدها.»

فقال روجر بثقة، «أول علامات الساحرة.»

شرعتُ أقول، «ولكن لو أن هذا حدث منذ أربعة أعوام، فلماذا لم تُقدَّم للمحاكمة سوى الآن؟ بل قُدِّمت بتهمة أخرى في الشهر الماضي؟»

نظر توماس إلى روجر.

فقال الأخير بنبرة بطيئة ومبينة، «في جمعة الآلام

بالأسبوع الماضي، وجميعنا من المواطنين الصالحين نصلي، تجمَّع نفر ما. وفيما جميعنا صائمون، كما أمر الرب، أولم ذلك النَّفر على لحم ضأن مسروق. حدث ذلك في مسكن حقير يُدعى برج مالكن- منزل العجوز ديمديكي، جدة أليزون ديفيس. وكانت جانيت بريستون واحدة من الحاضرين.»

فسأل ريتشارد، «بريستون على علاقة بعائلة ديفيس؟»

أومأ روجر مرة. «لأنها ساحرة. وعمَّ تحدثوا في ذلك التجمع، عدا التباهي بخدَّامهم وشتم الرب يسوع، الذي كان ينبغي أن يصوموا لأجله؟ عجبا، لقد تحدثوا حتى عن رفيقنا الشاب السيد ليستر.»

«لماذا؟»

فقال روجر ببساطة، «كانت بريستون تخطط لقتله.»

وإلى جواري، شعرتُ بتوماس ليستر يرتجف. شرع يلمس أدوات مائدته وصحونه، فجعل يحركها ويصفُّها في تصميم موسوس.

استطرد روجر. «لم يكن ذلك الشيء الوحيد الذي تحدثوا عنه. فقد تجمَّع نفرهم لتدبير مؤامرة لا تختلف عن تلك التي كادت تطيح بالملك منذ وقت ليس ببعيد.» مال للأمام، ولمعت أسنانه في ضوء الشموع. «كانوا يخططون لتفجير قلعة لانكاستر، التي يُحتجز فيها أقرباؤهم. لإطلاق سراحهم.»

«كيف تعرف هذا؟»

مسح روجر أنفه بمحرمته، ثم دفع كرسيه لينهض وهو يعيد المحرمة بطيَّة أنيقة إلى مكانها.

«اسمحوا لي أن أقدم لكم أهم شاهدة لديَّ.»

ثم غادر الغرفة، ودارت شهقة صغيرة حول المائدة عندما عاد وهو يقبض بكفه العريضة التي تشبه قبضة دب حول كتف طفلة صغيرة.

خطت معه إلى داخل الغرفة وتوقفا على مسافة قصيرة من المائدة. لا بدَّ أن عمرها لم يزد عن تسع أو عشر سنوات، ولها وجه شاحب حاد القسمات وعينان واسعتين صافيتين. تمرَّد شعرها البني الفاتح خارج قلنسوتها المُنشَّاة حديثا، وكان مئزرها مشدودا حولها، إلا أنها عامت في فستانها الصوف البسيط. لم ترهب النظر في أعيننا واحدا واحدا، وعندما وصلت عيناها الجريئتين إليَّ لم أستطع إبعاد عيني. لكن ما أقلقني هو أنها لم تُبدِ خوفا ولا انبهارا، بل كانت ملامحها هادئة وكأنها لوحة على جدار.

أعلن روجر، «هذه هي جانيت ديفيس.»

قال السيد بانستر بصوته المتحشرج، «يا له من اسم شائع بينهم.»

«سيد شاتلوورث، سيدة شاتلوورث، سيد ليستر، اسمحوا لي أن أقدم لكم مصدر كل معلوماتي. إن جانيت تساعدني والسيد بانستر في تحقيقاتنا منذ البداية. إنها شقيقة أليزون.»

رأيتُ كاثرين تختلس نظرة سريعة إلى الفتاة بملامح مرتابة وخائفة. بدت كمن تتمنى لو بوسعها الفصل بينهما بشخص آخر لو أمكن.

التفتُّ إلى السيد بانستر وهمست، «أتقيم هنا في ريد هول؟»

فقال بهمس، «أجل. في واحدة من غرف الأطفال القديمة.»

ما تُراه يكون رأي أبناء روجر الكبار في هذا – كنتُ نفسي حائرة في الأمر. كانت الساحرة شقيقة أليزون بذاتها؟ لم يقل أحد شيئا، بل تأملوا إلى فتاة ديفيس من أعلى لأسفل بنظرة أصابت جلدي بالخدر، فتكلمت.

وقلتُ لها، «مرحبا، يا جانيت. كيف تجدين ريد هول؟»

«لطيف بحق،» قالتها الصغيرة بصوت أجش ولهجة قوية.

«وإلى متى تمكثين؟»

«سوف تمكث حتى يُحدَّد تاريخ الجلسة في محكمة الصيف.»

صدرت عن كاثرين جلبة بسيطة. «حتى شهر آب؟ روجر، هل ستبقى حقا كل هذه المدة؟»

«وأي مكان غير هذا تذهب إليه، يا كاثرين؟ إن عائلتها في سجن لانكاستر الذي سيبقون فيه لحين استدعائهم أمام قضاة جلالته.»

لم تظهر على جانيت أية علائم للضيق؛ بل ظلت تجيل عينيها في الضيوف والغرفة نفسها، هامت نظراتها في اللوحات وزخارف الجدران وشعارات النبالة المعلقة. لا شكَّ أنها لم تر مثل هذه الأشياء في حياتها من قبل، ولا رأت مدفأة بمثل ضخامة المدفأة التي ارتفعت عاليا فوق رأسها، ولا طعاما بمثل هذه الوفرة.

سألها روجر، «هلا شاركتنا العشاء، يا جانيت؟ لدينا دجاج مشوي ولحم بقر وخبز وزبدة أعدَّت هذا الصباح.»

أومأت جانيت موافقة بلهفة فأُجلست في نهاية المائدة إلى جوار كاثرين، التي لم تزدد إلا تحرُّجا. تباين أثر ابتسامة مُرحِّبة على شفتيها، لكنه لم يظهر في عينيها. وتلألأ قرطاها.

أفصح روجر وقد عاد إلى مقعده، «كانت جانيت ضمن الحاضرين في برج مالكن يوم جمعة الآلام وأخبرتني بكل ما قيل - بما في ذلك المكيدة في حق رئيس بريستون الحاضر معنا. كان الجمع يضم عددا كبيرا من الناس الذين أخبرني عنهم شقيقها جيمس، وقد صدَّقت جانيت على جميع الأسماء في القائمة. نحن نتعاون معا جيدا، أليس كذلك، يا جانيت؟»

كانت الطفلة ترمق بقايا الطعام على المائدة، ولم يسعني إلا اختلاس النظر إليها كل بضع ثوان. كان رأسها من صغره حتى لأتخيل أن روجر يستطيع سحقه بيد واحدة. لم يبدُ عليها قط أن حبس كل عائلتها قد أثَّر فيها، وحارت نفسي هل تقشعر منها أم تشفق عليها.

ثم أُحضرت الوصلة الثانية وتبادل روجر وريتشارد أحاديث عن أمور أخرى تعنيهم: سعر الملح؛ ما تجلبه ماشيتهم في السوق. تناولت جانيت طعامها كحيوان بري، فلطَّخ الدهن وجهها ويديها. وكنت ما أزال أراقبها عندما سمعتُ ريتشارد يخبر روجر أنه اشترى بندقية، ما جعلني ألتفتُ بحدة.

«بندقية؟ ريتشارد، إنك لم تخبرني بذلك.»

ألقى ريتشارد بنظرة سريعة إلى روجر.

ثم قال، «فليتوود، لا أظنني بحاجة إلى استشارتك. ما لم تكن لديكِ خبرة لا أعرفها في أزندة البنادق؟»

انتشرت على المائدة ضحكة مكتومة، وتضرج وجهي خجلا.

«ألن تنطلق نيرانه داخل المنزل؟»

«ليس إن استُعمل بالطريقة السليمة، وهو ما سيحدث،» قالها ريتشارد بصلافة.

ثم استدار في جلسته نحو روجر، في إشارة لغلق الموضوع.

حاولتُ إجراء حديث مع توماس على يساري لكنه تصرَّف بغرابة شديدة ويتحاشى النظر في العينين: أظن وجود الطفلة قد أخافه. انكمشت كاثرين التي تجلس جوار جانيت ولم تتحدث معها مرة واحدة.

ثم ما لبث الحديث أن عاد إلى عملية صيد السحرة التي يقوم بها روجر.

«لنتحدث عن هذا الأمر بعيدا عن الطفلة تحسُّبا ألا تأتيها الكوابيس بسببه،» قالها روجر. «جانيت، اصعدي إلى مخدعكِ وسأقوم باستدعائكِ في الصباح.»

انسلَّت الفَتاة من أمام المائدة دون حتى أن تزيح مقعدها، كانت نحيفة جدا. لم تُحدث أي صوت أثناء انصرافها وعندما غابت عن الأنظار، كان من اليسير أن نصدق أنها لم تكن موجودة من البداية.

عاد روجر بوجهه إلينا وازداد صوته تحوُّطا.

«لقد خرجت أمها عن طوعها عندما عرفت أن الصغيرة قد وشت بهم. ظننتها ستفقد عقلها أمام عيني.»

وإلى جواري تجشأ السيد بانستر واعتذر، وهو يغطي فمه بيده التي امتلأت ببقع بنية.

ثم قال، «إن إليزابيث ديفيس هي متعة للناظرين. ستقفزين رعبا إن رأيتها: عين في أعلى رأسها وعين تنظر في الأرض.»

وكأنما صبَّ أحدهم عليَّ دلوا من الماء البارد. حدقتُ بذهول في السيد بانيستر، الذي ظنَّ دهشتي افتتانا.

«يمكنكِ القول إنها شخصية من مسرحية كوميدية، لكنها موجودة حقا. إني لأتساءل كيف أنجبت ثلاثة أطفال من رجلين.»

أصبح فمي جافا كرمال صحراء.

«أين يعيشون، آل ديفيس؟»

«على حدود كولن. إن برج مالكن لهو كوخ رطب شنيع. لا أعرف كيف يعيش الأهالي في أماكن كتلك.»

الفصل الثامن

«**لن** يكون الأمر مُبهجا. عليكِ التحلّي بالقوة.»

تناولت آليس واحدا من القطع التي وضعتها على الصوان في مخدعي إثر مجيئها: سكين مطوية، في جراب من صدَفة قرنية. مرَّت لحظة مُرعبة ظننتُ فيها أنها تعزم إجراء جراحة في بطني، لكنها رأت التعبير على وجهي فَلَان تجهُّمها.

وقالت موضِّحة، «سوف أفصِّد أوردتكِ. إنه السبيل الوحيد لعلاج فرط الدم.»

ثم أخرجت النصل كليل المظهر من جرابه وأرتني كيف أن رأس السكين كان باردا، وليس حادا، وكيف أن مثلثا صغيرا برز منه بزاوية عمودية. كان شيئا يثير الفضول. أخبرتني أنه يُسمَّى مِفْصَدًا، كنتُ قد رأيتُ من دمي ما فيه الكفاية وشعرتُ بألم يكفي ألا أخاف منه.

وكانت آليس قد ظهرت فجأة كعادتها، فعبرت منطقة العشب أمام المنزل بعزم ظهر في ميل جسدها للأمام. لم تعرض الدردشة، ولكني لم أفعل كذلك. إلا أن لقاءاتنا أصبح يشوبها المزيد من الألفة – بقدر ما يمكن أن ينشأ بين امرأتين بغاية الاختلاف. أعجبني صوتها

الناعم، وتساءلتُ هل تُراها تقرأ لأبيها أمام المدفأة. ثم تذكرتُ أنها لا تعرف القراءة. لكن صوتها كان الشيء الوحيد الناعم فيها، هكذا فكرتُ وأنا أجلس ساكنة فيما تحرَّكت هي حول الغرفة في خطوط مستقيمة سريعة، ظهرها منتصب، وعنقها طويل ومائل للأمام. كانت لتصبح ربَّة بيت ممتازة لمنزل كهذا في حياة أخرى. ربما أفضل مني. إن العمل في حانة قد يمد المرء بالصلابة. والفقر يفعل ذلك بالتأكيد. على أنها ستترك هذا المنزل وهي أكثر ثراء مما وصلته.

أمرتني أن أخلع سترتي وما أسفلها من طيَّات لكي تصبح ذراعاي مكشوفتين، ثم جرَّت كرسيا حتى النافذة وأشارت لي بالجلوس عليه. ربطت شريطا حول عضدي ثم نكزت بإصبعها الجلد الأبيض عند مرفقي.

قلت، «آليس. هل تظنين أنه أصبح له أهداب الآن؟»

«أهداب؟»

«هل تظنين أن الطفل صار له أهداب؟»

«يا له من سؤال غريب. يصعب معرفة ذلك.»

أومأتُ ثم نظرتُ الأغراض التي طلبت مني تجهيزها لها: وعاء كبير، ومفرش جديد، وماء، وإبرة، وخيط أبيض. كنتُ قد اتبعتُ حدسي وأدرتُ المفتاح في باب المخدع، تحسبا لريتشارد في الطابق السفلي مع جيمس ودفتر الحسابات. وعندما التفتُّ إلى آليس، وجدتها تقف عند المدفأة، وعيناها على التمثالين المنتصبين على كل جانب.

وسألت، «هل هما من عائلتك؟»

«كلا. بل هذه برودينسيا.» وأشرتُ بإصبعي. «وهذه يوستيتا.»

«ماذا يعني ذلك؟»

«التبصُّر والعدالة هو شعار عائلة شاتلوورث.» ثم أشرتُ برأسي نحو المِفصد. «من أين حصلتِ عليه؟»

مسحت الشفرة فوق مئزرها لبضع لحظات. «إنكِ تسألين كثيرا من أين آتي بأدواتي،» قالتها، ولكن دون فظاظة.

«حسنا، يسرُّني أنكِ لم تطلبي مني البحث عن واحد. لأنني أولا، لم أكن لأعرف أين أبحث عنه. وثانيا، أتخيل وجه جيمس عندما أخبره أنني اشتريتُ واحدا.»

«ومن يكون جيمس؟»

«وصيفنا.»

فسألت، «ولماذا عليكِ إخباره؟»

«كل ما نشتريه يُدوَّن في دفتر حسابات المنزل الذي معه، وكل ما يخرج من جوثورب، سواء كان جعة من المخمرة أو دجاجا من المزرعة أو قابلة لربَّة المنزل.»

«حتى أنا؟»

«نعم، حتى أنتِ.»

نبضت يدي مع تجمع الدم فيها. وطلبت آليس أن أناولها الوعاء -وعاء نحاسي جميل منقوش بالورود، أهدته لنا والدة ريتشارد- فنصَبَتْه على الصوان، ووضعت ذراعي فوقه.

«هل أنتِ مُستعدة؟»

وقبل أن يتاح لي قول نعم، كانت قد زجَّت بالمِصفد

في انعطافة ذراعي المعصوبة بالعود الخشبي، وعويتُ كجرو وهي تُخرجه. وعلى الفور بدأ دم أحمر دافئ يتدفق من الثقب الذي أحدثته. لطمتُ فمي بيدي الأخرى إلا أنني لم أستطع إبعاد عيني عن بشاعة المنظر.

ثم سألت آليس، وهي تُحكم قبضتها على ذراعي، «ماذا يعني التبصُّر؟»

كان ألم خفيف وواضح يجتاح جسدي كله.

«آه... التبصُّر. التبصُّر يعني... إلى متى يستمر هذا؟»

«إلى أن يمتلئ نصف الوعاء.»

«نصفه؟» كان الدم يخرج بسرعة كبيرة.

عادت آليس لتقول، «ماذا يعني التبصُّر؟»

«إنه يعني الرويَّة. الإقدام على الشيء بحرص.»

«والعدالة تعني التحرر؟»

«كلا،» قلتها وأنا أحاول النظر إلى أي شيء عدا الوعاء الذي يمتلأ بدمي بمثل السهولة التي يُصبُّ بها نبيذ من زجاجة. شعرتُ برأسي يدور كما حدث عندما فقدتُ وعيي في الكنيسة. «العدالة تعني الإنصاف. انتفاء الظلم.»

وبنفس السرعة التي عملت بها سابقا، أخذت آليس بطرفي الجلد المحيط بالثقب وأدخلت فيه الإبرة. أشحتُ بنظري إذ خاطته، مُجفلة في كل مرة تدخل الإبرة.

«سأبدو مثل مخدَّة،» قلتها وأنا أشعر بأنفاسها على ذراعي. «أتظنين هذا سيُجدي نفعا؟»

قالت، «إن تفصيد الأوردة هو أفضل وسيلة لإخراج

الدم عند توقف الطمث. إن النزيف يصبح صحيا عندما يحدث من المكان السليم.»

ثم غسلت ذراعي من الدم وكوَّرت المفرش وضغطته فوقه، وأمرتني بإمساكه. اقترب پاك متثاقلا بفضول. رفعتُ المفرش عن ذراعي ورأيتُ دما جديدا يتسرب عبر الغرز العشوائية. شمَّها پاك ولعقها عدة مرات قبل أن يقرر أنها ليست باللذة التي تصوَّرها.

وفي الحال تذكرتُ كلمات روجر، «هل تجعلين أليفكِ يمص دمكِ، يا فليتوود؟»

كدتُ أضَحك على سخافة كلماته. لفَّت آليس شريط كتان حول ذراعي وربطته، قبل أن تأخذني إلى الفراش وتطلب مني الاضطجاع فيما مضت لتنظيف المكان. كان الجرح في نفس الذراع التي أصابها التواء - تنوعت إصاباتي وتعدَّدت منذ قابلتها، وقلتُ لها ذلك. فابتسمت وأسدلت الستائر.

وبعد برهة قلت، «لا أشعر بأي اختلاف.»

جاءني صوتها يقول، «امنحي الأمر يوما أو يومين.» ثم سمعتُ رنة كأس. «إذا لم تشعري بتحسن فبوسعنا إعادة المحاولة مع الذراع الأخرى بدم أكثر. أما زال لديكِ لحاء شجر الصفصاف الذي أعطيتكِ إياه؟»

«نعم.»

ثم تبدَّت عند ثنية الستار وهي تحمل قطعة من القماش لا يزيد حجمها عن كف يدي، وأخرجت من طيَّاتها ورقة خضراء. فمزَّقت من طرفها جزءا صغيرا وناولته لي.

وقالت، «مصِّيه. سيوقف التدفق السريع للدم. ولكن لا تأخذي أكثر من هذه الكمية، وابصقيه - لا تبتلعيه.»

رقدتُ ويداي على بطني، أمصُّ جذاذة الورق كصبي مزارع في ظهيرة يوم صيفي. شعرتُ به يذوب على لساني، وغمرني إحساس بالسكينة. لم أعرف آليس سوى من أسبوعين، ومع ذلك بدا في وجودها أن مخاوفي تخبو كجذوات محتضرة، ثم يأتي الليل فتتوهج من جديد. لم يكن بوسعها أن تعد بإنقاذ حياتي. إنها لم تعد بأي شيء في الواقع. لكن اطمئناني إلى أنها تحاول مساعدتي، جعلني أشعر بأمان أكثر من أي وقت ربما منذ تزوجتُ ريتشارد.

«آليس، هل في مواصلة ركوب الخيل خطر عليَّ وأنا حُبْلى؟»

خيَّم صمتٌ قصير أثناء تفكيرها في الأمر.

«لا أعرف نساء كثيرات ممن يملكن الخيول، لكن أمي قابلت عديدات منهن، وكانت تقول دائما إن هذا ممكن. هل تركبين الخيل بانتظام؟»

أجبتها، «كل يوم.»

«ما دمتِ مُعتادة على الأمر، فلا سبب إذن يدعوكِ للامتناع، طالما أنكِ لن تقعي من على ظهره مرة أخرى. لفارسة ماهرة، أتوقع أنه آمن كالمشي.»

«بدا على ريتشارد في آخر مرة أنه يعتقد أنَّ... أنها غلطتي بسبب عنفي، وركوبي الخيل ولعبي مع پاك. يعتقد أن كل ذلك يضرُّ بالمرأة. الحق أنني قد أموت

كمـدا إن اضطـررتُ للبقـاء فـي المنـزل طـوال الوقـت، فأجلس علـى الكراسـي الصلبـة وأطـرز الوسـائد، وإن كان ريتشـارد يعتقـد أنـه المـكان الأكثـر أمانـا للمـرأة.»

«ربمـا يريـد إبقـاءكِ فـي مجـال رؤيتـه، مثـل كل الأزواج. إلـى أن يصبـح زاهـدا فـي وجـودك.»

جعلتنـي المـرارة في صوتهـا أرفـع رأسـي. «ظننتـكِ قلـتِ أنـكِ عزبـاء؟»

«أنـا كذلـك،» قالتهـا بسـرعة، ثـم أضافـت كمـن أفصحـت أكثـر ممـا ينبغـي، «آه، لقـد وجـدتُ فرسـكِ التـي فـرَّت. إنهـا فـي إسـطبلك.»

أعقـدت الدهشـة لسـاني عـن الـرد، وحدَّقـتُ فـي سـدائل الفـراش.

«هل سمعتـي؟» نادت من خلف السدائل.

«نعم. أين كانت؟»

«وجدها أحد الجيران ترعى في حقل وأعادها.»

«أمتأكدة من أنها نفس الفرس؟»

«علـى أنفهـا رقعـة بيضـاء مثلثـة؟ وطـرف أذنهـا أسـود؟ أعتـذر ولكـن عدَّتهـا اختفـت؛ الراجـح أنهـا تخلصـت منهـا.»

أو الأرجـح أنَّ أحدهـم سـرقه، هكـذا قلـتُ لنفسـي، فلـم يصـل لعلمـي أنَّ حصانـا قـد يتخلـص مـن سـرجه ولجامـه ورسـنه وعنانـه بنفسـه. وقبـل أن يتـاح لـي الـرد، أجفلتنـي جلبـة عنـد البـاب، أعقبهـا صـوت ريتشـارد.

«فليتوود؟ لماذا الباب موصد؟»

أزحـتُ سـدائل الفـراش وكانـت آليـس فـي طريقهـا نحـوي

بالفعل وهي تحمل سترتي، التي ارتديتها لأخفي الجرح.
«فليتوود؟»
كان ريتشارد يطرق الباب بنفاد صبر، وعندما فتحتُ الباب أخيرا ولج إلى الغرفة على الفور.
«لماذا كان الباب موصدا؟» أعاد السؤال مُتوجها به إلى آليس.
نظرت إليَّ عاجزة الحيلة، واختلستُ أنا بذعر نظرة إلى الصوان حيث كانت أغراضها منذ قليل، لكني وجدته خاليا ولامعا كالعادة.
«ريتشارد، لا بد أن تفهم أننا لا نريد مقاطعة أثناء قيام آليس بعملها.»
حاولتُ أن تكون نبرتي مُهدِّئة، إلا أنه واصل التحديق في آليس.
«وأي عمل هذا؟»
حاربتُ بحثا عن إجابة. «تمرينات نسائية.»
ساد صمت فظيع استمر ربما لخمس ثوان، وحوَّلت آليس عينيها إلى الأرض. أين أخفت أغراضها بهذه السرعة؟ بحثتُ بعينيَّ في ركن الغرفة وعند المدفأة، لكني لم أجد أثرا لوعاء الدم.
ثم قال ريتشارد أخيرا، «حسن. إن روجر في الأسفل ويرجو مقابلتكِ. وبرفقته... شخص ما.»
«من يكون؟»
منذ عشاء روجر وثمة فتور بيننا. وإن كنتُ لا أعرف السبب. هل تُراني أزعجته بأسئلتي الكثيرة.

«قريبا تعرفين.» ثم دار على عقبيه، لكنه لم يفعل قبل أن تفتش عيناه الغرفة. «في الغرفة رائحة غريبة، أليس كذلك؟»

رمق آليس بنظرة طويلة، ثم غادر، مُغلقا الباب بحزم خلفه.

«كان يقصد رائحة الدم، أنا أيضا أشمُّها.» هكذا أخبرت آليس، لكن تعبير وجهها كان هادئا. يا لتقلب مزاجها، كالسحب التي تعبر بسرعة من أمام الشمس. كانت تشبه ريتشارد في هذا الأمر.» هلا انتظرتِ هنا فيما أرى أي ضيف ذاك الذي جاء؟»

وأثناء نزولي إلى أسفل طابق من المنزل، فكرتُ في اللقاء الغريب الذي شهدته لتوِّي. تصرَّف ريتشارد كمن أهانه وجود آليس، بل أثار اشمئزازه أيضا. تذكرتُ لقائهما الأول، عندما كان يُضاحكها ويمازح معها. لكن ريتشارد كان رجلا يعجبه المديح والإذعان له، ولا شك أنه وجد إهانة في العتاب الصامت الذي وجهته له آليس عندما طلب منها وضع فرسي في الاسطبل. عندما يتحدث إلى الخادمات يغمرهن الخجل وتتورد خدودهن، بينما تُظهر آليس عدم اكتراث. حسنا، سبق له أن اختار لي وصيفة، والآن قد حان دوري. بيد أنَّ كل أفكاري عن زوجي وقابلتي قد تبخرت عندما درتُ حول المنعطف الأخير للدَّرج، ففي بهو الاستقبال كان يقف شخصان: روجر نويل بكل ضخامته وطفلة آل ديڤيس النحيفة كورق البرشمان.

«روجر. جانيت.» حاولتُ ألا أبدي ما شعرتُ به من جفول شديد. «يا لها من مفاجئة سارة.»

لم تكن جانيت تنظر نحوي، وإنما تقيِّم بعينيها الواسعتين كل شيء وقع في مجال رؤيتها – الدرابزين المصنوع من خشب البلوط، واللوحات المعلقة في غياهب بئر السلم. كانت ما تزال ترتدي نفس الفستان القديم والقلنسوة البيضاء المُنشَّاة، ما أضفى على وجهها شحوبا أكبر. ودون كلمة، سارت إلى النافذة الكبيرة في مؤخرة المنزل. نظرتُ إلى روجر في دهشة.

«هل لك شأن مع ريتشارد؟»

«نعم، إنه ينتظرني في الردهة. جئتُ لأطلب منكِ، إلم يكن في ذلك إزعاج، أن تأخذي جانيت في جولة حول جوثورب فيما أناقش مع ريتشارد بعض الأمور؟ إنها لم تر من قبل قصرا كهذا وسوف يعجبها كثيرا أن تشاهده.»

لمستُ ذراعي من حيث ثقبه المِصفد؛ كنتُ أشعر بحكة بسبب الضمادة. فكرتُ في آليس التي في مخدعي بالأعلى، وتفحَّصتُ الظل الصغير لجانيت عند النافذة. ودون أن ينتظر ردًّا، غمز لي روجر غمزة أبوية ثم انصرف، وصدى حذائه اللامع يتردد فوق الأرضية الحجرية. ازدردتُ لعابي وذهبتُ إلى حيث وقفت الصغيرة.

«ذلك تل پندل.» وأشرتُ بإصبعي إلى الكتلة البادية في الأفق. «وهذا نهر كالدر. قد ترين السَّلمون أحيانا يقفز بعكس التيار.»

كان وجهها دقيق القسمات، وليس قبيحا. تناثر النمش

على أنفها المعقوف الصغير، وكانت أهدابها طويلة ورمادية.

«أيُّ غرف تحبين رؤيتها؟»

هزت كتفيها في عدم اهتمام وقالت بلهجتها المحليَّة، «كم لديكم منها؟»

«أتعلمين، لم أفكر في هذا من قبل. لا أعرف. ربما يمكننا عدُّها؟ وإن كان نصيب كبير منها يخصُّ للخدم، ولا أظن جديرًا بنا مقاطعتهم. كم غرفة في منزلك؟»

حدَّقت في وجهي. «واحدة.»

«آه. حسنا إذن. هيا بنا.»

طفتُ بها في أرجاء الطابق الأرضي - حجرة المائدة، وحجرة المؤونة وحجرات الشغل الخاصة بالخدم، حيث كانت حجرة المكتب. في البهو الرئيسي، أشرتُ بإصبعي إلى شرفة العرض وأخبرتها كيف أن المطربين والعازفين قدموا أحيانا لتأدية العروض، وأننا نستمع إليهم من الأسفل. سارت معي صامتة أغلب الوقت، فكانت بين الحين والآخر تسأل من يكون الشخص المرسوم في لوحة. بدا أنها فُتنت بحوريات البحر والشخصيات الأسطورية في حجرة المائدة، كما حدث مع السيوف المصقولة ودروع الفرسان، وقد تفحصت كل منها ويداها خلف ظهرها، وكأنها نسخة مصغرة من روجر. ثم ذهبنا إلى مباني الخدمة: الحظيرة الرئيسية، التي أخبرتها أنها إحدى أكبر الحظائر في المقاطعة، والإسطبلات وغرف إدارة المزرعة. وبينما نسير عبر الفناء، تقابلنا تحيات غلمان الاسطبل وتمنياتهم بنهار سعيد، رأيتُ الفرس

الرمادية ذات المثلث الأبيض على أنفها والطرف الأسود على أذنها تأكل قشًّا بتراخ في مقصورتها.

سألتها أثناء عودتنا إلىً المنزل، «هل تعجبكِ الإقامة في ريد هول؟»

رغبت جانيت في رؤية الطوابق العلوية، وبعد تردد دام لحظة وافقت.

هزت كتفيها مرة أخرى. «إنه ليس كبيرا كهذا المنزل.»

«لكن روجر وكاثرين يوفران جوا منزليا محبَّبا. أنا واثقة أنهما يوليانكِ عناية فائقة.»

إنني لأعجب كيف يمكن لروجر أن يعاملها بطريقة ويعامل عائلتها بطريقة أخرى، فيرعى واحدة ويقضي على الباقين.

ونحن نصعد السلم استدارت جانيت لتواجهني.

وسألتني، «هل بوسعي العيش هنا بدلا من هناك؟»

وقفت هناك وإحدى يديها على الدرابزين، كإحدى آنسات البلاط. فتحتُ فمي وأغلقته، وقد باغتتني صراحتها.

«أخشى أن هذا غير ممكن. أنتِ ضيفة على روجر.»

لم يكن ثمة أي شيء طفولي في قوة نظرتها المُحدِّقة، التي منحتني أغرب شعور بأنني أسأت القول، وسوف ألقى جزائي لاحقا. ثم دارت على عقبيها وواصلت صعودها إلى أعلى المنزل. شعرتُ بعد طلبها بالحرج وأنا أريها كل غرف النوم الفارغة، المُعدَّة لضيوف لم يبيتوا فيها قط.

قلتُ كذبا، «تأتي والدتي أحيانا لزيارتنا. وعائلة

ريتشارد، الذين يقيمون في يوركشاير. له إخوة وأخوات كثرٌ، أما أنا فوحيدة أبوي.» وكنّا قد عدنا إلى الدَّرج.

«من يكونان؟» وكانت تشير بإصبعها إلى اللوحة الخاصة بعائلة بارتون.

«هذه أمي وأنا.»

«لماذا على يدكِ عصفور؟»

«كان ذلك أليفي، ساموِيل. لم يعش طويلا. كنتُ أحتفظ به في قفص بغرفتي.»

«ولماذا لا عصفور لوالدتك؟»

«لم تكن تملك أليفا.»

«أمي تملك كلبا.»

تذكرتُ المرأة القبيحة إليزابيث ديڤيس، التي رأيتها في هاج وود مع آليس، والهجين البني الذي جرى من جانبي، وما قاله روجر عن تابعة إليزابيث. كان ذلك هراء بالقطع – فقد رأيتُ المخلوق بنفسي ولم أجد فيه شيئا يسم بالشيطنة. لكن المرأة التفتت نحوي عندما مر بجانبها... اقشعرَّ جلدي عند تذكر عينيها.

سألتها، «ما اسمه؟»

«بول.»

«ذاك اسم غريب لكلب. هل تملكين كلبا؟»

«كلا، لم يُظهر أليفي نفسه بعد.»

كم كانت طفلة غريبة الأطوار.

قلتُ، «أملك كلبا كبيرا يُدعى پاك. إنه في مكان ما بالمنزل.»

«هل يتحدث معكِ؟»

«كلا، لكن أحدنا يفهم الآخر.»

فأومأت جانيت. «لشقيقتي واحد أيضا. ولجدتي صبي.»

«صبي؟ تقصدين ابن؟»

«كلا، بل صبي. يُدعى فانسي. ويرتدي معطفا بنيًّا وأسود ويأتي أحيانا إلى منزلنا فيخرجان في نزهة.»

«آه، تعنين أنه كلب.»

«كلا. إنه صبي. عرفته جدتي منذ عشرين عاما ومازال صبيًّا كما هو.»

لم أجدني إلا وأحدِّق فيها.

«هل أخبرتِ روجر بكل هذا؟»

«بالتأكيد. إنه معنيٌّ كثيرا بعائلتي.»

وقفنا في صمت محرج، ننظر إلى صورتي المرسومة، ثم اعتلت جانيت آخر درجات في السلم وأريتها شرفة العرض الطويلة. كان نهارا مشرقا، والأرضية قد لُمِّعت حديثا، فانعكست صورة النوافذ على الخشب كما تنعكس صورة السماء على وجه بحيرة. شعرتُ بجانيت تفقد حماسها تجاه الجولة، وإن ظلت عيناها تجول فوق كل خوان، وكل كرسي، وكأنها تاجر يقيم الأغراض لبيعها. وحالما عدنا إلى برج السُّلم أشارت بإصبعها.

«ما هذه الغرفة؟»

«إنها غرفة نومي.»

«هل يمكننا الدخول؟»

ضحكتُ ضحكة متوترة. «ليس اليوم.»

«هل بالداخل شخص ما؟»
«كلا.»
بعد سكوت قصير، أومأت برأسها وبدأت تنزل السلالم بطريقتها الأنيقة. كانت يداي زلقتان بسبب العرق، وقلبي يدقُّ بعنف في صدري. لو أن آليس تعرف والدتها، فهل يعني ذلك أن جانيت تعرف آليس؟ أدركتُ أنني لا أريد معرفة الجواب، حيث انتابني إحساس غريب بأن جانيت ديفيس كانت شخصا خطيرا، ولم أعرف لماذا. ومع ذلك فقد بدا تفكيرا بغاية السخافة – كانت طفلة في النهاية.
صحبتها إلى داخل الردهة فركضت نحو روجر كما تفعل الحفيدات. كان هو وريتشارد يجلسان على جهتين متقابلتين من الطاولة وبينهما ورق متناثر، وكان روجر يسكب في قدحه آخر ما تبقى في إبريق نبيذ.
«هل أعجبتكِ الجولة، يا صغيرة؟» هكذا سأل. وأومأت جانيت بنعم. «فليتوود، تبدين أجمل كل يوم.» فابتسمتُ وأومأت برأسي. ثم استأنف قائلا، «ريتشارد. هل لي في طلب بعض الطعام قبل أن أنطلق إلى لانكاستر؟ هل تبقى شيء من فطيرة الدجاج التي تعدها طباختك؟ لن نمانع في طرف من تلك الفطيرة. أليس كذلك؟»
ثم أرسل غمزة إلى جانيت، التي كانت تقف خلف كرسيه كخادمة وفيَّة.
سألني ريتشارد، «فليتوود، هلا سألتِ الطبَّاخة؟»
«من دون شك.»

انحنيتُ احتراما وعدتُ أدراجي عبر المنزل، شاعرة بالبرد رغم اشتعال النار في معظم المدافئ. كان المطبخ جزءا من المنزل نادرا ما قصدته. امتدت بطوله منضدة طويلة وخفيضة يغطيها الدقيق والقدور كل حين. وعلى أرضه انتصبت سلال تحمل خضارا واشتعل الموقد مُلقيا بالدفء في أرجاء المكان. وفوقه كُتبت جملة «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة» بأحرف كبيرة وكل كلمة بحجم الساعد، تذكرة من العم لورانس. تدلى أرنب متوسطا إطار النافذة، وهو يتأرجح برفق. رمقني خدم المطبخ بالطريقة التي صرتُ آلفها: يلقون بنظرة سريعة، ثم يشيحون.

«باربرا؟» ناديتُ الطباخة عريضة البنية التي تقف أمام المنضدة، تدهن الفطائر بصفار البيض.

لم تكن قد انتبهت لدخولي، وضاع صوتي وسط أصوات الجلجلة والقعقعة في المكان، حتى اضطرت إحدى الخادمات الأصغر سنا أن تحضرها. أبلغتها بطلب روجر، فمضت إلى حجرة الكرار لتأتي منها ببعض الطعام وتلفه في صُرَّة. كان المطبخ كعادته مُنكبًّا على العمل في همَّة، وراقبتُ خادمات شتَّى يقمن باللف والتقطيع والإعداد. وإذ ناولتني صرَّة دافئة تملؤها الفطائر واللحوم الباردة، تلكأتُ للحظة.

ثم قلتُ، «أشكركِ على التنفيذ الرائع لتعليماتي بخصوص الأعشاب. الزبدة لذيذة وحليب البابونج يُرسلني إلى النوم فورا.»

تهلل وجهها الأحمر بابتسامة.

«على الرحب والسعة، يا سيدتي. تسرُّني رؤية امتلاء خديكِ. إن الأعشاب التي أعطيتني إياها تكاد تنفد، فهل أطلب من جيمس أن يشتري المزيد؟»

فأسرعتُ أقول، «لا. سوف أوصي قابلتي بإحضار المزيد.»

شكرتها واستدرتُ لأغادر، لكنها قالت، «سيدتي، هل صحيح أن الطفلة الساحرة موجودة في جوثورب اليوم؟»

«إن كنتِ تقصدين جانيت ديڤيس، فهي ضيفة روجر نويل.»

أصغى بضعة من الخدم المجاورين آذانهم.

واستطردت باربرا، «لستُ متحمسة للنظر إليها. يقولون إنها ابنة الشيطان.»

«إنني واثقة أن هذا بعيد عن الحقيقة.»

«وأنا واثقة أن سيدتي تعي ما تفعله باستقبال مثل هؤلاء الناس، وإنما أرجو ألا تحيق باللعنات هذا المنزل. صباحا فقط بدأ الحليب يفسد. وكان طازجا من المزرعة.»

أومأتُ مرة أخرى، راغبة في إنهاء الحديث، وهممتُ بالمغادرة، لكن باربرا نادرتني عند الباب، قد ارتفع صوتها.

وقالت، «قابلتك. من أين هي؟»

أجبتُ، وقد فرغ صبري الآن، «كولن.»

تمعَّج فم بابرا.

«لم تسبق لي رؤيتها، وأختي قابلة. كان بوسعكِ أن تسألينا هنا إن كنا نعرف واحدة لترشيحها.»

«حسنا، كانت إضافة الأعشاب إلى نظامي الغذائي هي فكرة آليس، وقد أثبتت فاعليتها.»

شعرتُ بسخونة في أذنيَّ، واحمرار ينتشر في عنقي. هل من المعتاد أن يشكك الخدم في الأشخاص الذين توظفهم سيدة المنزل؟ هل ينصحونها من تدعو إلى منزلها ومن لا تدعوه؟ رفعتُ الصُرَّة عاليا.

«أشكركِ على هذه.»

تعثرتُ أثناء خروجي، ما أدى إلى انتشار ضحك مكتوم عبر المطبخ. وحين وصلتُ إلى الردهة، كان شعور من الهياج والغيظ يغمرني، وعادت نواياي الطيبة تجاه أهل البيت لتفسد من جديد. وجدتُ الرجلين واقفين، يرفعان الأوراق التي كانت بينهما. وكانت جانيت تقرفص عند المدفأة، وهي تنظر إلى زواياها - كان جوف المدفأة ليسعها، مثلما كانت مدفأة بارتون تسعني وأنا في مثل عمرها.

«هذه هي القائمة الخاصة بنِك بانيستر،» قالها روجر، وهو يفصل وثيقة مغلقة من حزمة الورق التي أمامه. ثم طرحها على الطاولة. «لديَّ نسخة في ريد، ولكني لن أكون هناك، لذا سيأتي إلى هنا لاستلامها.»

أومأ ريتشارد، وهو يسحبها نحوه ويدسُّها في صدريته.

قال روجر مُحذِّرا، «لا تقتربي كثيرا من تلك النار، يا جانيت. إن النار لأواني الطبخ والكفَّار، وليست للأطفال.»

سألت الصغيرة، «والساحرات؟»

«في الموطن الأصلي لجلالته، يُلقى بهن في النار. إنني أرى أن إنجلترا ينبغي لها أن تسير على خطى اسكتلندا،

ولكن من سوء الحظ أن القصاص المتبع هنا هو الإعدام شنقا. ربما مازال ممكنا إقناع جلالة الملك بتغيير رأيه. والآن، علينا أن نبدأ رحلتنا إلى لانكاستر.»

نهضت دفعة واحدة. «لرؤية ماما؟»

أرسل روجر بنظرة سريعة إليَّ، في إشارة لأناوله صرة الطعام، فعبرتُ الغرفة.

«ما تزال والدتكِ في الخان حيث لا يسمحون بدخول الأطفال. شكرا لكِ، يا فليتوود.»

«ماذا عن أليزون؟ وجدتي؟»

«هما أيضا هناك. لن يمضي وقت طويل حتى تقابليهن، في غرفة ضخمة داخل قلعة تضم العديد من الأشخاص المهمين الذين سيطرحون عليكِ أسئلة بشأنهن. وتتذكرين ماذا ستقولين، أليس كذلك؟ كل ما تحدثنا عنه؟» أومأت بنعم، وهي تأخذ منه صُرَّة القماش وتفضُّها وتحشو فمها بملء كفها من الفطيرة. «إن هذه الصغيرة تملك معدة أكبر من عينيها. حسنا، سوف نغادر الآن.»

رافقهما ريتشارد للخارج، ورأيتُ جانيت تتبعهما إلى داخل الممر، بخطى سريعة وصامتة وكأنها ظل.

كانت آليس تجلس بهدوء عند النافذة في مخدعي تتأمل التلال عندما عدتُ.

قلت، وأنا أغلق الباب خلفي، «أعتذر عن إبقائكِ هنا وقتا طويلا. أرجو ألا أكون قد عطلتكِ عن عملك في الحانة؟»

هزت رأسها. «أعمل متأخرا. هل سمعتُ صوت طفلة؟»

لعقتُ شفتي، فيما أقرر.

«أحضر صديقي روجر نويل طفلة تدعى جانيت ديفيس. تنتظر عائلتها محاكمة في لانكاستر بتهمة السحر.»

راقبتُ وجهها في انتظار أن يفصح عن تعرفهم، لكني لم أجد شيئا - كان وجهها خاليا تماما من التعبير.

انتظرتُ لثانية، ثم قلت، «هل تعرفينهم؟»

نهضت وهي تسوِّي تنورتها وتعيد الكرسي إلى مكانه عند الحائط.

ثم قالت، «لا. لا أعرفهم.»

*

صارت الليالي التي بات فيها ريتشارد في الغرفة المجاورة لغرفتي تفوق العد، حتى بدأت أعتاد الاستيقاظ وحيدة في الفراش. وبفضل منقوع الخزامى على وسادتي، لم يأتني الكابوس، وما عاد شعري يتساقط بمعدل مُرعب. وجدتُ ريتشارد يتناول الفطور في حجرة المائدة، واتخذتُ مجلسي قبالته، والخادمة تضع في طبقي شيئا من العسل ورغيفا قطعته إلى كسر.

«ريتشارد،» قلتها حالما غادر الخدم الغرفة. «لقد تحسنتُ كثيرا في الآونة الأخيرة. هلا فكرتَ في العودة إلى مخدعنا؟»

واصل قراءة مراسلاته هنيهة، ثم رفع عينيه.

«ماذا قلتِ؟»

«قلتُ إنني تحسَّنتُ كثيرا، وأرغب في أن تنضمَّ إليَّ في مخدعنا. إنني لم أتقيَّأ منذ أسبوعين تقريبا.»

«تلك أخبار طيبة.»

وعندما استأنف القراءة والمضغ، وصار جليًّا أنه لن يستجيب، تذكرتُ شيئًا كان قد أزعجني ذلك الصباح.

«لا أجد العقد الياقوت الذي أهديتني إياه بعد عام من زواجنا.»

هذه المرة حظيتُ باهتمامه، فطوى الخطاب الذي كان يقرأه ودسَّه تحت طبقه.

«عجبا؟ أين تحتفظين به؟»

«في درج بخزانة الملابس. بحثتُ عنه ليلة البارحة ومرة أخرى هذا الصباح، ويبدو أنني أضعته. لا أذكر متى ارتديته آخر مرة.»

بدا تفكير عميق في عينيه الرماديتين.

«إن قابلتكِ تقضي الكثير من الوقت هناك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح، لكنها لم تكن لتسرقه.»

سأل باستخفاف، «حقا؟ هل لديها وفرة من الجواهر؟»

وضعتُ كسرة صغيرة من الخبز في فمي وابتلعتها.

«أعرف أنها لن تفعل. إنني اثق بها.»

«يُخيَّل لي أنكِ وثقتِ بها أسرع بكثير من الآنسة فونبريك.»

«سأبحث مرة أخرى.»

ثم دفعتُ صحني وغادرتُ قبل أن يعترض، محاولةً تجاهل الإحساس المتسلل للشك الذي نخز أفكاري مثل إبرة. قلبت غرفتي رأسًا على عقب في ذلك الصباح، وبحثتُ في جميع غرف الضيوف والأدراج التي أملك مفاتيحها. كنتُ أحفظ أثمن مجوهراتي في مكان مُحكم،

إلا أنـي أضـع المفاتيـح فـي مزهريـة علـى رف المدفـأة فـي غرفـة الملابس - ولـم يكن ذلـك بمخبـأ يصعب كشـفه. كانت بقيـة مجوهراتـي فـي مكانهـا - خواتمـي الأوبـال المفضلـة، الطـوق المخملـي المزيـن باللؤلـؤ، الأقـراط الزمـرد التـي أهدتنـي إياهـا أمـي فـي عيـد ميـلادي الثالـث عشـر.

ثـم نزلـتُ إلـى الطـابق الأرضـي، يملؤنـي الانفعـال والضيق، لأسـأل خادمـات الغـرف هـل رأيـن العقـد حديثـا، عندمـا سـمعتُ جلبـة. وعنـد المنعطـف الأخيـر مـن الـدرج، كـدتُ أرتطـم بريتشـارد صاعـدا فـي عجلـة، والغضـب بـادٍ عليـه.

عاجلني، «هل وجدته؟»

«كلا، أنا...»

«كان ذلـك العقـد يعـود لعمَّـتي،» قاطعنـي مهتاجـا. «منحـه لـي أبـي عندمـا ماتـت. إنهـا إهانـة لذكـراه. ذلـك العقـد ينتمـي للعائلـة.»

«أنـا آسـفة،» تلعثمـتُ، لكنـه هـز رأسـه رافضـا. وكان هـذا حينمـا انتهبـتُ لتقاطـر الخـدم مـن الأبـواب والممـرات فـي اتجـاه الردهـة، وهـم يلقـون نحونـا بنظـرات متوتـرة.

«تعالي معي، سوف نضع نهاية لهذا الأمر.»

أمسـك بيـدي وأخذنـي إلـى نفـس الاتجـاه، وأفزعنـي أن أجـد أهـل البيـت جميعهـم وقـد تجمعـوا تحـت السـقف العالـي: خمسـة عشـر شـخصـا أو عشـرين، وواحـدا لـم أتوقعـه.

«آليس!»

رفعـت عينيهـا نحـوي بنظـرة سـريعة، وكان وجههـا متوتـرا. وفـي يديهـا صُـرَّة مربوطـة بدوبـارة: دفعـة أخـرى مـن

الأعشاب، إذ كانت قد وعدت بإحضار بعض منها عندما أخبرتها أن الكمية قاربت على النفاد. تلوَّن خداها بحمرة شديدة، وتهدَّل شعرها الذهبي بعشوائية أكبر من المعتاد حول وجهها، وكأنها جاءت ركضا إلى هنا.

كان ريتشارد قد ترك جانبي، ويصعد الدَّرج الضيق الذي يؤدي إلى شرفة العروض الغنائية. كان جليًّا أنه سيعلن شيئا.

وقال، «لقد أبلغتني زوجتي باختفاء عقد ثمين من الياقوت. هذه سابقة من نوعها في جوثورب، وإن لأكره اقتراح أن واحدا -أو بضعة- منكم يعرفون أين هو، لأنكم خدم أمناء.» وفيما شاهدته يتكلم، والعرق يلسع إبطيَّ، شعرتُ بعدة أعين عليَّ. «يُحتمل بالطبع أنه قد ضاع، لكن السيدة شاتلوورث أكدت لي أنها بحثت عنه في كل الأماكن المعتادة.» ثم استطرد، وقد ذابت الصرامة في صوته ليصبح ذا نبرة مؤثرة، «والآن، إن ذلك العقد هو هدية من والدي، ويهمني كثيرا أن نعثر عليه. سأطلب من خادمات الغرف إجراء تفتيش دقيق للغرف، ومن البقية تفتيش مساكنهم المعتادة. وغدا في مثل هذا الوقت أريد رؤيته بين يدي. ولن أطرح أية أسئلة عندما يحدث ذلك.»

اعتدل بضعة من الخدم في وقفتهم استجابة لكلامه - أدركتُ أنه استقدم عمال الاسطبل وسائق العربة أيضا. ولماذا لم يأتِ بعمال المزرعة أيضا؟ قلتها سرا في حنق. ثم انتبهتُ أن أحدا رفع يده: سارة، واحدة من الخادمات

الوقحات، المغرمات بتملق ريتشارد. والتي وجدت سعادة بلا شك في نومه بمفرده، وربما جمح خيالها أيضا إلى الذهاب إليه حافية آناء الليل.

«سارة؟» أومأ ريتشارد، يدعوها للحديث.

فقالت، «تعرف بالتأكيد أن أي واحد من الذين يعملون هنا منذ زمن طويل سيجلب لك أو للسيدة أي شيء يجده. ربما إذن عليك الالتفات إلى أولئك الذين لم يمض على عملهم هنا زمن طويل.»

ثارت موجة اهتمام عبر المكان – انقسمت بين المفاجأة والسخرية من إعلانها المقتضب.

«ما الذي دعاكِ إلى قول هذا، يا سارة؟ هل لديكِ من معلومات تودين مشاركتها؟»

كانت نبرة ريتشارد مغرية. وتخيلتهما وحيدين معا، ثم نفضتُ الفكرة بعيدا. الأمر وما فيه أنه رجل أعمال بارع، يبرع في الحصول على ما يريد.

اختلستُ نظرة إلى آليس، التي كانت تتكئ بوزنها على كل قدم قليلا. لم تنظر إلى ريتشارد، بل إلى سارة مباشرة. كانت عيناها صارمتان، وتضرج خداها بحمرة خفيفة.

عادت سارة تثرثر بلهجتها المحلية المتغنجة، «ما أعنيه، أنها ربما ليست مصادفة أن يبدأ شخص جديد العمل هنا وبعد دقيقتين تختفي مجوهرات السيدة.»

أشرقت وجه الفتاتين أو الثلاث الواقفات قربها ببهجة لم يبذلن جهدا في إخفائها.

«يا لها من لعوب طويلة اللسان!» تمتم صوت أكبر سنا من وراء كتفي.

«أشكركِ، يا سارة، هذا يكفي. لا حاجة لإلقاء الاتهامات، كما أنني أثق في أمانة أهل بيتي بوجه العموم. بيد أن البعض قد يعبرون عن ولائهم بصورة أوضح.» هل نظر ريتشارد إلى آليس بالتحديد؟ استهل ريتشارد مضيَّه نحو السلم. «سأترك الأمر لكم. تذكروا، ظهر الغد، سيعود ذلك العقد إلى حيازة فليتوود. وهذا ليس طلبا.»

وإذ ماجت الردهة بالكلام واصطف الخدم في طريقهم للخروج، قصدتُ آليس وتأبطتُ ذراعها.

«هلا صعدنا؟»

لكنها تخلصت من يدي.

«لا أظنني سأفعل.»

دفعت إليَّ بالصرَّة. فتطايرت منها رائحة الأعشاب والخزامى، لكن قوة الروائح المختلطة أصابتني هذه المرة بالغثيان.

«ولماذا؟»

«لقد أحضرتُ ما طلبته. ولا أرى لي حاجة أخرى هنا.»

«حجرة الضيوف، إذن. سأطلب من المطبخ أن يرسل بعضا من...»

«لا، أشكركِ. عليَّ الذهاب إلى الحانة.» كان صوتها قد فقد كل نعومته.

عمَّ الهدوء في الردهة الآن، مع رحيل آخر الخدم

بخطى أحدثت صريرا على أرضية الممرات. راقبنا جدود ريتشارد باهتمام من لوحاتهم على الجدران.

«أرجو أنكِ لا تظنينني أتهمكِ بالسرقة،» حاولتُ تغليف كلماتي بالسخرية، لكنها خرجت متوسلة.

«تملكين مجوهرات جميلة، لكني لا أظن شيئا منها يناسبني. لا أظنكِ بحاجة إلى خدماتي بعد الآن؟»

«عفوا؟ آليس، لا، لا ترحلي. أعرف أنكِ لم تسرقيه.»

هل أعرف حقا؟

تذكرتُها وهي تغلق سدائل الفراش من حولي بعد أن سحبت دمي. وكيف أنها، بعد أن غادرتها بساعة، كانت تجلس شاردة عند النافذة في مخدعي بظهرها المستقيم وملامحها الرقيقة، كمن تتموضع لرسم صورتها. وتذكرتُ شيئا آخر دُفن تحت كل ذلك: ماذا فعلت بدمي؟ كان في الغرفة وعاء ممتلئ به، وعندما طالب ريتشارد بإدخاله، اختفى. هل ألقته في النار؟ لكني لم أسمع فحيحا لسائل يشتعل، ولا زناخة دم يحترق. لم يكن ذاك وقت التساؤل؛ فقد كانت آليس تراقبني، وعلمتُ أن وجهي قد فضح شكوكي.

قالت ببرود، «لا بد أن أذهب. لا أستطيع العمل في مكان أكون فيه محل شك.»

وقبل أن يتأتَّى لي أي حركة، كانت قد انسابت داخل الممر؛ وحين وصلته، كانت هي عند الباب الرئيسي، تفتحه وتنزل الدرج على عجل، فكادت ترتطم بالشخص الذي يترجل عن حصانه في أسفله.

«سيدة شاتلوورث!» قالها نِك بانستر، وهو يستدير ليرى قوام آليس النحيل وهو يبتعد.

«سيد بانستر،» قلتها بصعوبة وأنا ألهث.

شعرتُ وكأنني أنهار؛ كان شيء فظيع قد حدث، وأنا عاجزة عن القيام بأي شيء حياله. وكل ذلك بسبب عقد غبي لا يعني لي شيئا!

«تبدين كمن أفزعها شيء ما – من كانت تلك المرأة؟»

اقترب العمدة بتردد، واضعا يدا متغضنة على ذراعي التي أُدخل فيها المِصفد. آلمني الجرح مع لمسته، فسحبتُ ذراعي، وأنا أتأتأ باعتذاراتي. كان الجرح قد اندمل خلال بضعة أيام فحسب مُخلفا شكل هلال.

لم أعد أرى من آليس الآن سوى قلنسوتها البيضاء وهي ترتفع وتنخفض نحو أطراف الغابة. كعادتها لم تتخذ الطريق الذي يتخلل مباني الخدمة، بل مباشرة عبر الأشجار.

«سيدتي، هل أنتِ على ما يرام؟»

تنهدتُ، وشعرتُ بالرياح الباردة تزحف بأصابعها من أسفل ثوبي. كانت بطني تضغط على مشدَّي؛ ولن يمر وقت طويل حتى لا لا يصبح بوسعي ارتدائه.

«نعم، على خير ما يرام، شكرا لك، يا سيد بانستر. هل جئت لمقابلة ريتشارد؟»

«فقط لو أنه مُتاح. جئتُ لاستلام رسالة تركها روجر عندما كان هنا آخر مرة.»

«نعم، أعرفها. سأبحث لك عنها.»

كنتُ قد سمعتُ ريتشارد يقول إنه سيتركها مع جيمس، لكنني لن أذهب لإحضاره؛ لم أرغب حتى في النظر إليه. تبعني نِك إلى داخل المنزل وأمرتُ خادمة مارَّة أن تعتني بأمر جواده. كان مكتب جيمس على بعد خطوات من الباب الأمامي، وكان هو يومها بالخارج مع مساعد العمدة. أتاني پاك وكأنما استشعر ضيقي، فدفع أنفه الرطب داخل يدي.

«المعذرة، يا سيد بانستر، ما الذي أبحث عنه؟»

«ربما يعرف السيد شاتلوورث مكانه...»

«كلا. يمكنني مساعدتك،» قلتها بحدة لم أستطع تداركها. «عمل ريتشارد ما فيه الكفاية اليوم.»

دفعتُ الباب لأفتحه وقصدتُ المكتب الكبير في منتصف الحجرة. كان جيمس يحافظ على مكتبه مرتَّبا، فلا يعتلي سطحه أكثر من وعاء للريشات وقنينة حبر واحدة ودستة ورق أنيقة. وخلف المقعد الجلدي رف يحمل عددا من دفاتر الحسابات المجلدة، يعود تاريخها إلى عشرين عاما عندما بدأ والد ريتشارد يحتفظ لأول مرة بسجلات عائلة شاتلوورث. بحثتُ بين أكوام الخطابات المرتبة والمُصنَّفة بطريقة ما لا أعرفها، وتذكرت حينها كيف أحضر لي جيمس الرزمة الأنيقة التي تحوي خطابات حملي الفاشل. كان غضب آخر يضطرم داخلي: لم يستحسن ريتشارد إخباري بموتي المُنتظر، وها هو قد أبعد الشخص الوحيد الذي وثقتُ في أنه سينقذني. أدركت أنني كنت أرتجف، وأغشت

دموع حارة بصري. استعطتُّ، وتنحنح نِك بانستر. وقال، «تملكين حيوانا بديعا، يا سيدتي.»

مسحتُ عيني وأجلتهما على الأرفف مرة أخرى، فوجدت ما كنتُ أبحث عنه: الخطاب المختوم بشمع عليه شعار نويل. قلبته لأجد اسم نِك بانستر مكتوبا بخط روجر الأنيق، وناولته للرجل العجوز المهلهل الذي يلاطف كلبي.

«شكرا لكِ.» وأومأ برأسه. أعرف أنني أشعرته بالحرج، وكان يبحث عن شيء يقوله. «إنها فضيحة.»

«ما هي؟»

«ساحرات پندل. ومع ذلك، ثقي أن روجر سيستأصلهن. أشك في أنه سيتقاعد أبدا من خدمة الملك. لقد قلتُ له: «روجر، نل هذا التهليل الأخير، ثم عِش بهناءة. ودع دماء جديدة تتسلم منك الراية، كريتشارد مثلا.» إنه يثق في رجلك. ويأمل أن يكمل مسيرته يوما ما، بصفته عمدة.»

«أجل،» قلتها بفتور.

«إنَّ روجر لا يقبل بأنصاف الأمور – لن يكفيه إرسال أسرة كاملة للمحاكمة، لا، لا. إنه يريد عودة أيام المجد؛ يريد اسمه في الصحف اللندنية. أقسم أنه يسعى خلف الفروسية. لقد شاع اسمه في القصر بالفعل، لكنه لن يتوقف عند هذا الحد. تعرفينه مثلي.«

تُرى إلى أين وصلت آليس – هل بلغت الحانة بعد. هل كان يجدر بي أن أذهب خلفها.

واصل نِك، «قلتُ: «خيرٌ لك أن تأتي بهم جميعا». لا ضرر هنالك من استجوابهم.»

«استجواب من؟»

كنتُ شديدة الفظاظة، لكنني أردتُ من نِك أن ينهي وصلة حديثه المنفرد ويغادر، حتى يسعني التفكير فيما أفعل. ربما خلال الأشهر التي تكبر فيها بطني، يكون غضب آليس قد ذهب، ويسهل حينها إقناعها بالعودة؟

«اجتماع الساحرات في برج مالكن. لقد وجد معمعة هناك. ليس عائلة ديڤيس فقط ولكن أصدقاءهم أيضا، الذين تحدثوا عن قتل السيد ليستر، وتفجير السجن. إن القائمة تحوي بضعة أسماء من سكان المنطقة؛ لا شك أن هذا سيطلق فضيحة في المنطقة. من كان سيخطر له أن كل هذه الأعمال الشيطانية تحدث في هذا الركن الصغير الرطب من العالم؟ وفي جمعة الآلام أيضا - ها! ستكون مؤلمة حقا لهم هذه المرة.»

«ألديك القائمة هنا؟» أشرتُ برأسي إلى الورقة في يده، وقد أثار فضولي شيء ما في كلماته. «ماذا تقول؟»

فطلب سكينا، وقد خفف اهتمامي من حرجه، ووجدت واحدا في أول درج بمكتب جيمس. ففضَّ لفيفة روجر، وتركها تنسدل وهو يمدها بطول ذراعه ليقرأ ما فيها بصوت مسموع.

«جينيت ديڤيس وجيمس ديڤيس قالا إنهما ركبا مهرين أبيضين بعد الاجتماع، وأمرتهما جينيت بريستون بالقدوم إلى منزلها في جيسبورن لحضور اجتماعهما التالي خلال عام. أحضرت بريستون تابعتها إلى الاجتماع: مهر أبيض على وجهه رقطة بنية.»

شعرتُ بقلبي يدق بعنف في صدري.

«من أيضا حضر اجتماع جمعة الآلام؟»

استغرق العمدة العجوز دهرا ليجد الأسماء بعينيه المغبشتين.

«دعيني أرى... آه، نعم، وجدتهم: زوجة هيو هارجريفز من بارلي؛ وزوجة كريستوفر بولكوك من موس إند وولدها جون؛ ووالدة مايلز نوتر؛ ومولدهيلز من كولن؛ وآليس جراي من نفس المكان.»

الفصل التاسع

تبعد حانة هاند آند شتل مسافة قصيرة من النهر، قبل أن ينقسم الطريق إلى فرعين يتجه أحدهما شمالا والآخر غربا. كنتُ أمر بها كثيرا في السابق إلا أنني لا ألتفت إليها. وإذ ربطتُ فرسي في الباحة، أدركتُ أن اسمها قد استُقي بالطبع من شعار النبالة الخاص بعائلة شاتلوورث: درع من ثلاث وشائع، ترتفع منها يد تمسك بوشيعة رابعة. وكان ذات الرمز محفورا على لافتة خشبية على جانب المبنى المنخفض.

وإذ ولجتُ من الباب غرق المكان في الصمت، وتوجهت نحوي ما بدا وكأنها مئة عين، مع أني ارتديتُ أكثر ملابسي تواضعا، والتي كانت عباءة من الصوف الأسود، وقبعة سوداء بسيطة ذات شريط ذهبي. كان المكان صغيرا ومنخفض السقف. جلس رجال في بضع مجموعات حول ما يشبه مقاعد قصيرة مثقلة بالأباريق، وجوههم صارمة وجامدة. وقف رجل خلف فاصل يشبه باب اسطبل يترقب ما سأفعله، ولعله ظن أنني دخلت الحانة خطئا. تحركتُ نحوه.

وقلت، «يجب أن أتحدث إلى آليس.»

كان لـه وجـه محمـر، وفغـر فـاه، مُظهـرا أسـنانا كريهـة المنظـر. «آليـس...»

همست، «آليس جراي. هل هـي هنـا؟»

أومـأ مذهـولا. «سـأذهب لإحضارهـا، يـا سـيدتي. قـد تفضليـن مكانـا أكثـر خصوصيـة؟»

«شكرا لك.»

ذهبتُ خلفـه عبـر سـتارة مـن القمـاش وقادنـي إلـى داخـل ممـر ضيـق ومعتـم أفضـى إلـى غرفـة الطعـام التـي كانـت فارغـة. عـمَّ البـرد فـي المـكان، مـع خلـو المدفـأة مـن النيـران، وفـاح برائحـة كريهـة مثـل مخامـر جوثـورب. أحكمـتُ عباءتـي حولـي وتوجهـتُ إلـى النافـذة التـي تطـل علـى الباحـة، حيـث كانـت براميـل تُدحـرج إلـى داخـل المخـزن. عرفـتُ فيهـا إنتـاج المنـزل، مـن الختـم الـذي يحمـل شـعار شـاتلوورث. قفـزتُ فـي مكانـي عندمـا تناهـى طـرق علـى البـاب وخطـى فـي الممـر.

«كفاك مجيئا إلى هنـا.»

استغرقتُ وهلة لأميـز فـي الصـوت العالـي صـوت آليـس. وضعـتُ يـدي حصنـا أمـام بطنـي وخرجـتُ مـن البـاب لأرى مـا يحـدث. وفـي نهايـة الممـر وجـدتُ شـابا داكـن الشـعر، فـي قميـص قـذر وسـروال رث لـم ينقصـا شـيئا مـن وسـامته. بـدا أقـرب لأجنبـي، قرصـان أو أميـر، بشـعر أسـود وبشـرة حنطيـة وعينيـن داكنتيـن بديعتيـن. وكانـت آليـس تولينـي ظهرهـا بيديهـا علـى خصرهـا.

قال، «هل تظنين بوسعكِ أن تهجريني بهذه البساطة؟»

«أهجر سكيرا بفيضا مثلك؟ لم قد أفعل ذلك بحق السماء؟ عد إلى المنزل.»

«لا شيء هناك أعود لأجله، ليس بعد الآن.»

تمعَّج وجهه، وبدا وكأنه على وشك البكاء.

وأمام قوله تهدَّل كتفاها، وأمسكت بذراعيها كما رأيتها من قبل تفعل في الغابة. تراجعتُ عن الباب خشية أن يرياني. وعندما عادت آليس للحديث، كان صوتها أجشًّا.

«علينا أن ننسى الماضي.»

«يسهل عليكِ قوله ذلك، مع عملكِ ومنصبكِ... الجديد.»

«ارحل، هلا فعلت.»

ألصق وجهه بوجهها، ولمعت عيناه الداكنتان.

«بوسعي أن أفسد ذلك عليكِ إن أردت. بوسعي إخبارهم بأمور... الناس يسألون.»

«اتركني وشأني!» صرخت بها، وانتصب شعر عنقي. «إياك والعودة.»

وبنظرة هازئة أخيرة، سار مُتعثرا في الممر، فتجاوزني وخرج إلى الباحة، قد التصقت به رائحة الجعة الواضحة. أخذتُ بضع خطوات مترددة إلى حيث وقفت آليس، تنظر بعيدا، وهي ما تزال تضم ذراعيها.

«آليس؟»

استدارت نحوي، بوجه أكثر شحوبا من المعتاد. كانت عيناها جاحظتين وخائفتين - خوفا أكبر من الذي كان في عينيها وسط الردهة الممتلئة بالخدم.

«فليتوود. ماذا تفعلين هنا؟»

تناولتُ يدها وقدتها إلى الغرفة.

«هل يستطيع أحد سماعنا هنا؟»

«مثل من؟»

«أي أحد.»

هزت رأسها نفيا، وأغلقتُ الباب.

همستُ، وصوتي يرتجف، «من ذاك الشاب؟»

هزت رأسها. «لا أحد. لو أنكِ جئتِ بخصوص العقد...»

«كلا، لم أفعل، إنسي كل ذلك. آليس، لقد قرأتُ خطابا بعد رحيلكِ مباشرةً، مُوجَّها من روجر نويل إلى نِك بانيستر. هل تعرفين أيًّا منهما؟» هزت رأسها نفيا مرة أخرى، وكان وجهها صريحا جدا ومرتبكا حتى لم يخامرني أدنى شك في أنها تقول الحقيقة. «حسنا، إن روجر يعرفك، أو سيعرفك. آليس، كيف تعرفين عائلة ديڤيس؟»

ترنَّحت آليس مثل شجرة مقطوعة وكان عليها أن تتشبث بظهر كرسي.

«كيف تعرفينهم، يا آليس؟ كيف؟»

«لا أعرفهم.»

«ماذا كنتِ تفعلين بمنزلهم في جمعة الآلام؟ إنهم متهمون بالسحر، يا آليس. الجدَّة، الأم، أليزون... وجينيت، الابنة الصغرى، تقيم بمنزل روجر، وتخبره بكل شيء.»

دارت عيناها حول الغرفة. «أنا...»

«آليس، يجب أن تفهمي. إن اسمكِ مُدرج في لائحة

- لائحة هي بين يدي رجل ذو نفوذ كبير يطبق القانون هنا. سوف يعتقلونكِ، وشبه أكيد أنهم يحاكمونكِ بتهمة السحر.»

امتقع وجهها بشدة. وخُيِّل لي أنها ستنهار، فركضتُ إليها، وأمسكتُ بها من ذراعيها وأجلستها برفق على كرسي.

«سوف... يعتقلونني؟ ويحاكمونني... ولكن ماذا يعني ذلك؟»

ازدردتُ لعابي. «إنه يعني أنكِ ستقفين أمام القاضي. وحيث أن محكمة الصوم الكبير قد انعقدت، فموعدكِ الصيف، ربما.»

همست، «القاضي. لكنهم يشنقون الساحرات.»

«يشنقون أغلبهن.» جثوتُ أمامها، وأمسكتُ بيديها. «لكنهم لم يعتقلوكِ بعد، وأمامنا فرصة لنغير فكر روجر. آليس، عليكِ أن تخبريني ماذا كنتِ تفعلين مع عائلة ديفيس في برج مالكن. يمكنني مساعدتك؛ ريتشارد يمكنه مساعدتك.»

هزت رأسها في عدم تصديق، وقد شلَّت الصدمة حركتها. ثم كوَّرت قبضتيها، ودسَّتهما تحت إبطيها ليتقلص حجمها أكثر.

«من أعطاه اسمي؟ إليزابيث ديفيس؟»

«ابنتها، جينيت، حسبما أظن. ما الذي حملكِ إلى هناك، يا آليس؟ يجب أن تخبريني حتى يمكنني إخبار روجر أنه أساء الفهم.»

تناهى وقع قدمين في الممر. ودقَّ قلبي بعنف مع كل

خطوة حتى ابتعدت، ورفعت آليس عينيها لبرهة، ذاهلة من الخوف.

سألتها، «هل أساء الفهم؟»

وبعد مدة بدت وكأنها دهر، اعتدلت في جلستها ودسَّت شعرها تحت قلنسوتها. كان فمها العريض جادًّا.

وقالت، «لا أعرف هؤلاء الناس.»

«أليس، يجب أن تفهمي أنهم سيظنون العكس لو أنكِ كنتِ هناك. سيعتبرونكِ ساحرة.»

عَضَّت شفتها وتفجَّر الدم من تحت أسنانها. فأخرجت طرف لسانها الوردي كلسان أفعى لتلعقه.

«أخبريني. وبدوري سأخبر ريتشارد، ومعا سنذهب إلى روجر ونخبره أنه أخطأ.»

ولكنها لم تكن تنظر في عيني، بل شردت عيناها في مكان بعيد.

ثم قالت، «كلا. إنني لا أثق به. ولا يجدر بكِ أن تثقي به أيضا.»

«أثق بمن؟ روجر؟»

أغمضت عينيها وفركتهما، وكأنها شعرت فجأة بالتعب.

ثم قلتُ، «ريتشارد؟» لكن فمها ظل مغلقا. «لا يمكنني أن أثق بريتشارد؟ زوجي؟» نهضتُ لأقف، لكن طولي الضئيل لم يرفعني سوى مسافة رأس أو رأسين منها. «هل هذا بسبب ما قاله عن العُقد؟ إنه يعلم أنكِ لم تسرقيه – أنا مُتيقنة من ذلك. كان غاضبا فحسب.»

كنتُ قد بدأت أرتجف إثر شيء ما أدركتُ أنه الخوف.

أردتُ إبعاد يدي آليس عن وجهها وأجعلها تنظر إلي.

«لا أظنكِ قد استوعبتِ مقدار الخطر المُحيق بكِ.» ارتجف صوتي من أثر الانفعال. «إن روجر في مهمة لصيد الساحرات. إنه يقشش النساء كمن يقشش ورق لعب على طاولة. لقد جئتُ لأحذرك وأعرض مساعدتي. هذا إن كنتِ تريدينها، وهو ما أظنه. كما أني أنصحكِ بالابتعاد عن كولن في الوقت الراهن.»

«لكنني أعيش هناك.»

«وهناك سيبحثون عنكِ. يحسن بكِ أن تقيمي مع صديقة أو قريبة. إن روجر وريتشارد يعرفان اسمكِ الأول على الأقل. لن يستغرقا وقتا طويلا حتى يدركا أنكِ آليس نفسها التي في قائمة روجر.»

«لماذا لم يقتحموا المكان لاعتقالي إذن؟»

«لأنهم لا يعرفون بعد، وأنا لن أدلَّهم عليكِ.»

فصدر عنها صوت يشبه الاستهزاء. رفعتُ يدي إلى مقبض الباب.

«سأذهب إلى المنزل وأشرح كل شيء لريتشارد، وهو سيقصد روجر.»

«إنكِ تعشقين زوجك.» رنَّ صوتها بوضوح في الغرفة الخالية والباردة.

«بالطبع أفعل. إلام ترمين؟»

«لا تذهبي إليه.»

«لماذا؟» اشتعل غضبي من جديد. «ألا تستوعبين ما يمتلكه زوجي من نفوذ؟ هل تقولين إنكِ لا تحتاجين

مساعدتنا؟ وإنكِ بطريقة ما ستخرجين من هذا المأزق بنفسك؟ آليس، إن حياتكِ على المحك. إن روجر الذي أعرفه لن يجعل من نفسه أضحوكة أمام قضاة لندن. لقد صنع قائمة بالأشخاص المطلوبين للعدالة، واسمكِ من بينهم. ما الذي لا تفهمينه مما أقول؟»

فوضعت رأسها بين يديها مرة أخرى. زاد عمرها عشرة أعوام في يوم واحد.

«آليس، هل تصغين إلي؟ ألا تثقين بي؟»

فقالت، «بلى، أثق بكِ.»

كان نصرا صغيرا، ورغم غضبي، أضاء صدري بكلماتها. لم يقلها لي أحد من قبل، ولا احتاج أحد لذلك.

«لكنكِ لا تثقين بريتشارد؟ لماذا؟»

وببطء شديد، أدارت وجهها لتنظر إليَّ.

وقالت، «دفتر الحسابات.»

«ماذا؟»

«دفتر الحسابات الذي يحتفظ به وصيفكما. قلتِ إن كل ما يُشترى أو يُباع من جوثورب يُدوَّن هناك. أليس كذلك؟»

أومأتُ بنعم، في حيرة.

«انظري في دفتر الحسابات.»

«ولكن... كيف تعرفين ما فيه؟ إنكِ لا تعرفين القراءة.»

كان في عينيها العسليتين الواسعتين تعاطف لا يُعلَّل.

«لا أحتاج لقراءة الأشياء حتى أراها.»

*

قصدتُ مكتب جيمس مباشرة. ورغم النار في المدفأة، إلا أنني كنتُ باردة كحجر واصطكت أسناني معا وأنا أخرج الكتاب السميك المجلَّد بجلد العجل. وبخط جيمس الأنيق كانت قائمة بكل شيء تمَّ شراؤه ودفع ثمنه:

آذار: وسقتان من الشعير؛ برميلان من النبيذ الأبيض؛ ثلاث سمكات مملحة كبيرة سُلِّمت لتوماس يات في لندن...

عمَّ يُفترض بي أن أبحث؟

نيسان: مايكل ثورب إلى كولن حاملا لحم خنزير مقدد؛ أجرة نصف عام عن آيتنهيل بارك؛ نقل بندقية من لندن.

هل كانت تقصد البندقية؟ لكنني أعرف بأمر البندقية.

السيد وليام أندرتون لإحضار رخصة زواج من يورك.

وعند هذا توقفتُ، وتجمَّد إصبعي في المكان. لماذا قد يحتاج أحد في جوثورب إلى رخصة زواج؟ لا أحد من قاطنيه كان على وعد بالزواج، حدَّ علمي.

وحينها لاحظتُ كلمة من شدة ما ألفتها حتى أغفلتها بالكامل:

صابون ناعم إلى بارتون.

فحم من منجم باديهام إلى بارتون.

دجاج اشتُريَ من كليثرو إلى بارتون.

بارتون.

بارتون.

كان ذلك اسمي في السابق وأيضا منزلي. لكن لا

أحد يعيش هناك الآن؛ إنه مهجور منذ تركناه أمي وأنا قبل أربعة أعوام.

«سيدتي، ها أنتِ ذا.» وقف جيمس عند الباب، قد اكتسى وجهه الهادئ في العادة بقناع من القلق. «هل ثمة ما تحتاجين؟»

«كلا، يا جيمس، شكرا لك.»

ثم صفقتُ الكتاب ودرتُ حول المكتب، وبي حرج. إلا أنني بعد أن تجاوزته إلى الممر، عاد الغضب فجأة: كيف أكون مُخطئة بالنظر في دفتر حسابات منزلي؟ لماذا لا ينبغي لي أن أبالي كيف تُدار الممتلكات التي جلبتها إلى هذه العائلة؟ شيء ما أوحى لي بوجوب الحذر. كانت تلك أيضا هي الكلمات التي فارقتُ بها آليس في الغرفة الصغيرة الرطبة بالحانة.

سألتها، «إلى أين ستذهبين؟»

فاكتفت بهز منكبيها في غير علم، وحدَّقت في جوف المدفأة الفارغ. كنتُ من الإنهاك حتى لم أستطع عرض المساعدة، وقطعتُ الرحلة القصيرة إلى المنزل ركضا بالفرس مُشوشة بالاضطراب في داخلي.

قال جيمس، «كان السيد يبحث عنكِ.»

لاحظتُ بخوف أنه لم يكن قلقا فحسب، بل شاحبا جدا ومتجهما.

«هل من خطب؟»

«إحدى الخادمات ألم بها مرض، سارة، خادمة الغرف. وكان ريتشارد قد طلب مني استدعاء الطبيب.»

«حسن. ماذا حدث؟»

«شكت في البداية من ألم في الرأس، ثم هي الآن تعاني من حمى. إنها تهذي وتطلب أمها.»

«أرسل إذن في طلب أمها. أم بالإمكان إرسالها إلى منزلها؟»

«أظن هذا أفضل، حالما يراها الطبيب. تحسُّبا من العدوى.»

قطَّبت. كان رأسي يعجُّ بأمور كثيرة في آن واحد، إرسال مؤن إلى بارتون وإصابة خادمة بالمرض وعلاقة آليس بعائلة ديڤيس وعُقد الياقوت. تجاوزت أحداث اليوم ما جرى في عام كامل.

«كانت تبدو على ما يرام في الصباح،» فكرتُ بصوت عالٍ، وأنا أتذكر كيف عبَّرت عن رأيها في الاجتماع المنزلي الذي عقده ريتشارد.

ثم تذكرتُ وجه آليس الأحمر ونظرتها الصارمة، وارتعدت فرائصي. صليتُ سرًّا ألا تكون الحمى أو أي مرض مميت آخر قد حل بهذا المنزل.

كان الممر مظلما خارج مكتب جيمس الأنيس والدافئ، لم تكن بي رغبة في القيام برحلة طولها عشرون ميلا، لكنها واجبة الآن.

«جيمس، أحتاج منك أن تقوم لأجلي بأمرين: أن تسرِّج حصاني، وتوصل رسالة إلى ريتشارد.»

«نتوقع عودة السيد في أية لحظة...»

«الرسالة هي: سأنطلق إلى كولن، وهناك سأستأجر

غرفة في خان ليلة أو ليلتين وأحاول إقناع آليس بالعودة إلى العمل قابلة لي.»

نظر لي في ذهول. «ولكن، يا سيدتي...»

«أشعر أنَّ ريتشارد لم يحسن معالجة أمر العُقد. لقد أهان موظفينا الأوفياء. رأيتَ ذلك بنفسك. لكنك لن تخبره بالطبع أنني قلت ذلك. أخشى أني بسببه خسرتُ قابلة ماهرة نالت ثقتي وإعجابي الكبيرين، ولن أقبل أن يولِّدني غيرها. أخبره ما شئت. إن السبب الحقيقي، يا جيمس، هو أنني لا أطيق النظر إلى زوجي بسبب الطريقة التي عامل بها الخدم. إنني آتمنكم وأقدركم جميعا، وآمل ألا تشعروا نحوه بضغينة جراء ذلك. لهذا أريد الابتعاد عن جوثورب، لأنني مُستاءة. أخبره رجاء ألا يلحق بي، وسوف أعود في الصباح.»

وبعد تردد دام لحظة، أومأ برأسه في تهذيب.

«أمركِ، يا سيدتي.»

استدرتُ، ثم وكأنني تذكرتُ لتوِّي، التفتُّ إليه نصف التفاتة، آملة أن يحجب الظلام وجهي ولا يشي بتعبيراته.

«آه، جيمس؟ كيف تسير الأمور في بارتون؟ أكل شيء على ما يرام؟»

وفي الحال تداعى وجهه، وأصابه شحوب شديد. لم أكن بحاجة لأكثر من ذلك. فتح فمه وأغلقه بضع مرات كسمكة تحتضر فيما انتظرتُ بهدوء.

«هل منشيء ترغبين في إحضاره من هناك، يا سيدتي؟ إنه مُغلق منذ...»

«أربعة أعوام، أليس كذلك؟»

تحرَّكت تفاحة آدم في عنقه إذ ابتلع كلماته.

«أجل، هذا صحيح.»

«حسن. سوف أحضر عباءتي.»

*

وصلت بُعيد الغسق. كان القمر غائبا، حجبته الغيوم، لذا غلَّف السواد كل شيء، لكنني رأيت الهيئة الفسيحة للمنزل تكمن في الأفق، والضوء الدافئ يتراقص في غرفة بالطابق الأرضي. لم تزاولني من قبل قط رغبة في العودة إلى هنا. لم أرغب في رؤية المخدع الذي تشاركناه أمي وأنا. لم أرغب في رؤية غرفة الضيوف حيث انتهت طفولتي في الزمن الذي استغرقته أمي لإحضار شيء ما. لم أرغب في رؤية السُّلم المتصدع أو الأسقف العالية الباردة أو القفص الخالي الذي وجدت فيه ساموبل ميتا ذات صباح شتوي بعد أن تُرك أمام المدفأة مسافة أقرب من اللازم.

كنتُ قد ترجلتُ خارج المنزل عندما جعلتني جلبة -أو ما هو أقرب إلى حضور ما- أدير رأسي، ثم عبر شيء خفيض وممشوق جدا العشب على يميني. لم يكن أكثر من ظل حريري، لكنه توقف في الطريق، وذيله المنتفش قد انتصب خلفه: ثعلب. تسمَّر في مكانه، ثابتا كتمثال، وحدَّق أحدنا في الآخر، واقشعرَّ جلدي. ولكنه لم يلبث أن جفل وتلاشى في الظلام، وواصلتُ طريقي وحيدة، حيث تعثرتُ على درجات المدخل ولعنتُ النعل الخشبي

الواقي. تخلصتُ منه فارتطم بالأرضية محدثا ضجة.

فُتح الباب دون ممانعة، وكان بهو المدخل معتما جدا بلا مشاعل مُضاءة، والبرودة القديمة المألوفة تداعبني على عتبة الباب.

ناديتُ، «مرحبًا؟»

لم أستطع -أو لم أجرؤ- على التفكير في الشيء أو الشخص الموجود بالغرفة التي عهدتُ أنها البهو الرئيسي. ربما هو متشرد في أسوأ الأحوال - أم أن هذا سيكون أفضلها؟

كانت قدماي بلا وقع تقريبا. كانت الأصوات الوحيدة في المكان هي أنفاسي متقطعة في صدري ودمي نابضا في أذني. سرتُ كالعمياء في الظلام، ويداي أمام وجهي، إلى حيث كان باب البهو الرئيسي، وأنا أتحسس طريقي حذو الجدران. حاولتُ طرد الفكرة المتسللة بأنني قد ألمس وجه الشخص الذي ينتظرني في الظلام بدون صوت. وبعد تمشيط الجدران من أعلاها إلى أسفلها، وجدتُ المقبض الذي كنت أبحث عنه وجذبته.

ثم التقت عيناي بمشهد أضاءته أنوار دافئة. كانت حاملات الشمع الجدارية تتوهج في الأرجاء، وزجاج المدفأة يلقي بالضوء الذي وقع عليه إلى الغرفة، فتعكسه ثريًّا السقف من جديد. وعند المدفأة الكبيرة التي بلغ عرضها عشرة أقدام -المدفأة التي اعتدتُ المشي داخلها والتعرض للتوبيخ، لإتلافي نعلي فوق الرماد- جلست امرأة. شعرتُ وكأنني أحلم، وكأنني أطفو، إذ أني تقدَّمتُ نحوها، لكن المسافة

بيننا بدت وكأنها لا تقصر. انتبهت إلى وجودي ونهضت. كانت تكبرني ببضع سنوات، وشعرها الأسود مكشوفا. بدت خائفة، ولم أفهم، ثم فهمت، وخفق قلبي وتوقف.

ثم حدثت جلبة في الممر خلفي كانت جديرة بإجفالي، لكنها لم تفعل، ولذا عندما ظهر جيمس هناك، لاهثا ومُهتاجا من ركضه بجواده من جوثورب، لم أحرك ساكنا. تركَّزت عيناي على المرأة التي أمامي، لأن عباءتها كانت قد تراجعت عن جسدها إثر نهوضها. رأيتُ بطنها كبيرة مثل بطني.

مادت بي الأرض. وأسرعت بلاطات الأرضية للترحيب بسيدتهم الأولى، وشكرتُ احتواءهم إذ انهار عالمي، ومعه جسدي.

الجزء الثاني

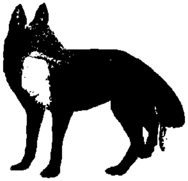

ويستمورلاند (كمبريا حاليا)

آيار، 1612

إن القوانين [تشبه] خيوط العنكبوت، تعلق بها الحشرات الصغيرة

أما الكبيرة تخترقها.

السير فرانسيس بيكون

الفصل العاشر

عاد بي جيمس إلى جوثورب، عبر الرياح والأمطار، وما إن بلغتُ مخدعي حتى أغلقتُ الباب بالمفتاح. ظل كذلك نهارا كاملا وليلة، واعتدتُ صوت طرقات ريتشارد عليه حيث كان الاهتمام لأي شيء عسيرا ومعدتي شديدة الخواء. انتظرنا برودينثيا ويوستيتا وأنا، انتظرنا ماذا، لم نكن نعرف، ثم في نهاية اليوم الثاني، وفي اللحظة التي بدأتُ أفكر جديًّا في طلب نار في مدفأتي وإرسال شيء من الطعام، جاءت خادمة غرفة إلى الباب وأبلغتني بمجيء مبعوث من والدتي.

فأمرتها عبر ثقب الباب أن تخبره أنني أريد البقاء وحدي، ثم عادت وقدمت بصوت مغموم صوتا آخر لذكر لم أعرفه.

«تود السيدة بارتون إبلاغكم أن عربة تنتظركم خارج جوثورب.» هكذا قال الصوت. وانتظرت. «وهي تصر أنها لن تغادر إلا وأنتم على متنها.»

فقلتُ، «ستظل هناك إذن إلى أن تتعفن.»

تنحنح الرجل. من تُراه قد يكون واقفا معه في صمت.

«إن السيدة بارتون تدعوكم للإقامة معها في كيربي

لونسديل. لقد ارتأت أنكم ربما تحبون شيئا من التغيير.» ثم سكت احتراما. «سوف أنتظر هنا حتى تمام استعدادكم.»

عدتُ إلى الفراش وبقيتُ فيه زمنا، أزيل الشراشف قليلا وأعيدها قليلا.

وأخيرا قلتُ بصوت مُختنق، «هل أنت هناك، يا ريتشارد؟»

صمت قصير، ثم قال المبعوث، «إنني وحدي تماما، يا سيدتي.»

بجهد عظيم، جررتُ نفسي مرة أخرى إلى ثقب الباب. كل ما استطعتُ رؤيته هو سروال رجل وجراب سيف. كنتُ ما أزال عاجزة، حتى بعد انقضاء يوم وليلة، على استيعاب حجم الخيانة. لقد بدأت من فراشي وزحفت إلى المخمرة التي أرسلت لها الجعة؛ والمكتب، مع كل مرة غمس فيها خادمنا المخلص جيمس ريشته في الحبر. وانتقلت إلى هاند آند شتل، حيث أفترض أن آليس سمعت بها. حتى أنها تسربت إلى ماضيَّ، وطبعت وصمتها على طفولتي التي لم ينقصها الجفاء. أما أسوأ ما في الأمر: فهو أن ريتشارد كان يختلي بعشيقته في المنزل الذي نشأتُ فيه، والذي سُلِّم له كطرد يوم تزوجنا، حيث عرف أنني لن أعود إليه قط مرة أخرى.

وكان ذلك عندما خطرت لي الفكرة: هل كانت أمي تعلم بأمر المرأة دكناء الشعر وبطنها الكبيرة؟ ظل السؤال يطن في رأسي مثل ذبابة والأصيل يمضي ببطء، ثم

سمعتُ پاك ينبح على الجانب الآخر من الباب. خمش الباب وأنَّ من وراءه، وأدركتُ أنني نسيته تماما، مشغولة بأمر نفسي. جثوتُ مقتربة أكثر من الباب.

«پاك،» قلتها بصوت خفيض، «پاك، كفى. أنا هنا. أنا هنا.»

انهمرت الدموع على وجهي مع عويله، الذي وكأنه يمزقني شطرين، ومهما قلت له فإنه لا يسكت. فاقت الرغبة في ضمِّه احتمالي، لذا أدرتُ المفتاح في القفل فوقع بقائمتيه الأماميتين داخل الغرفة، وطرحني معه أرضا. لعق بلسانه الضخم وجهي ولم أستطع كتمان ضحكي إذ اعتلي جسدي، وهو يعوي ويلهث ويصدر أصواتا تنم عن سعادة خالصة. وعندما أخذ كفايته، رفعتُ جسدي لأجلس. كان المبعوث يقف بعيدا عن الباب، ينتظر بحياء.

قلتُ، «سوف آتي إنما بشروطي.» فانحنى تهذيبا، ثم اعتدل في وقفته، مُترقبا. «سوف أحضر كلبي. وثمة مكان في الطريق علينا المرور به أولا.»

سألني، «هل أطلب إرسال خادمة لحزم أمتعتكم؟»

«سوف أحزمها بنفسي.»

*

وخلال الرحلة نحو الشمال، دبَّرنا آليس وأنا خطة. حتى لا يتمكن روجر من العثور عليها، تركت وظيفتها في الحانة، بعد أن أخبرت رئيسها أن والدها مريض ويحتاج للرعاية. انتظرتُ في العربة بعيدا عن الحانة ببضعة شوارع حتى لا يراني أحد. أحاطت كلتينا أجواء

من الاستعجال المتوجس، حيث كان بوسعها التهرب من كل شيء عدا اسمها - وكنتُ قد سألتها إن كان ثمة ما تحتاجه من المنزل فاكتفت بهز رأسها نفيا. وإذ تقاطر الطريق من خلفنا، قررنا أنها ستأتي إلى منزل أمي بصفتها مرافقتي جيل، والذي أخبرتني أنه اسم والدتها.

سألتها، «هل تحبين تناول شيء من الطعام؟»

كنا ننتظر في ساحة خان آخر ريثما يبدل سائق العربة الأحصنة، وهبَّت رائحة طبيخ عشاء ولحم مشوي. كان مساء معتدلا من مساءات أيار -دافئا وساكنا- وأصغينا إلى الأصوات في الساحة، إلى حوافر الأحصنة ودردشة أناس حول أمور معيشتهم اليومية، مع إسدال الستار على نافذة العربة حتى لا يرانا أحد.

هزت آليس رأسها.

قلتُ، «أخبرتني أن والدتكِ كانت قابلة. هل هي...»

«لقد ماتت.»

«أنا آسفة.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«مضى على ذلك أعوام.»

جلست آليس منتصبة الظهر؛ كانت تملك جسدا ممشوقا حتى بدون مشد.

«كيف ماتت؟»

بعد فينة، أجابت.

«أصابتها حمى. ظلت مريضة لوقت طويل، ثم نقلها المرض إلى الحياة الآخرة. لم يكن باليد حيلة.»

«هل تعلمتِ الأعشاب منها؟»

أومأت برأسها. «كانت تملك حديقة... مطبخها كما كانت تسميها، لأننا لم نملك واحدا. زرعت ثمارا، وأعشابا... أحاول الحفاظ عليها لأنني أعرف كم أحبتها. علَّمتني أسماء كل شيء. كنا نخرج للتجول فتشير لكل نبات وتخبرني فيم يفيد. قالت إنه مما يفيد المرأة تعلمه، ومما يساعد الزوجة والأم أن تحافظ على صحة أبنائها. راق لها أن تتخيلني زوجة وأما.» ختمت بنبرة خافتة.

سألتُ، «أين تعلَّمت مهنتها؟»

«أين تتعلم المرأة تلك المهنة؟ بممارستها، حسبما أفترض. كانت وصديقتها تتعاونان، فتذهبان إلى حيث يطلبهما الناس. كانوا يسمون كاثرين، مولدهيلز وتعني الرائقة، لأنها تستغرق وقتا طويلا في كل شيء، حرصا على سلامتها. كانت دائما ما تخرج أدواتها بتأنٍّ، حتى لو ارتفع صراخ الأم إلى السماء السابعة.» ابتسمت لذكرى شخصية. «كانت تشعل النار وكأنها تملك كل الوقت في العالم.»

«وكنتِ ترافقينهما؟»

أومأت آليس برأسها

«كم طفلا ولَّدتِ؟»

«لا أعرف... عشرون؟ ربما أكثر؟»

فاجأتني إجابتها - ظننتها أكثر خبرة، لكني لم أكن قد سألتها في النهاية. وبعد برهة سألتها إن كان والدها يفتقدها في الغياب. فكَّرت في الأمر، ثم هزت رأسها.

«كلا. ربما يفتقد ما أفعله، لا أنا بذاتي.»

«ماذا تعنين؟»

«الطهـي. إطعـام الدجـاج. تنظيـف المنـزل. كسـب المعيشـة.» كان صوتهـا رتيبـا.

«ألم تفكري قط أن تتزوجي ويكون لكِ منزلك الخاص؟»

اكفهـرَّ وجههـا لثـوان حتـى ظننتنـي تخيَّلـتُ الأمـر. بـدا لـي أنهـا تراجـع جوابهـا، ثـم قالـت، «لا فـارق هنـاك فـي الحقيقـة. حيـاة الابنـة هـي نفسـها حيـاة الزوجـة – الاختـلاف الوحيـد هـو فـي الرجـل الـذي سـيملي عليـكِ مـا تفعلينـه.»

«أظنـكِ علـى حق. لكنـكِ ستنجبين أبنـاءً مـن صلبك. كل امـرأة ترغـب فـي ذلـك؛ إنـه هدفنـا فـي الحيـاة.»

فأدنـت عينيهـا. «إنَّ الأبنـاء جهـد لا يسـتحق كل هـذا العنـاء.»

كان جوابـا غريبـا، ومـن قابلـة بالخصـوص. صعـد السـائق إلـى سـقف العربـة، فرجَّنـا فـي مقعدينـا، وعدنـا لاسـتئناف رحلتنـا.

عندمـا لـم تتكلـم آليـس مـرة أخـرى، ظننـتُ أننـي ربمـا أسـأتُ إليهـا، حتـى قطعنـا بضعـة أميـال، وبـدأ النعـاس يغلبنـي، وسـمعتها تقـول بصـوت خفيـف، وكأنمـا تحـادث نفسـها، «لـم يسـبق لـي أن ركبـتُ عربـة مـن قبـل.»

بوصولنـا كان الظـلام قـد حـلَّ. اسـتقرت العزبـة نفسـها عاليـا أسـفل تـل يتوسـط أجمَّـة مـن الأشـجار الكثيفـة، وكان الطريـق إليهـا شـديد الانحـدار، لـذا كان علـيَّ دفـع قدمـي فـي المقعـد المقابـل لأمنـع انزلاقـي. امتـد المنتـزه حتـى قمـة الـوادي، حيـث التقـت أكـوام الحجـارة والخلنـج

بالسماء. كان پاك نائما، وكذا آليس. كانت غريبة في نومها الذي ظلت معه تبدو متيقظة، رقبتها طويلة، ووجهها جامد، كمن أسبلت جفنيها للتو.

توقفت العربة وترجلتُ عنها منهكة، قد استُنفذت بعد رحلتي الطويلة الثانية خلال أيام قليلة. نزل پاك إلى الأرض خلفي، فتثاءب وتمطّى، وآليس من بعده. أخرج هنري صندوق أمتعتي وفي نهاية سلم المدخل فُتح الباب الأمامي العريض، فألقى بالضوء على حزبنا الغريب وأحاط بالظل المميز لأمي.

«فليتوود،» قالتها، فانتقل صوتها الحاد في ثنايا الليل. «كنتُ أظنكِ لن تأتي أبدا.»

أرسلتُ نَظرة سريعة آليس ومعا صعدنا الدرجات.

كان المنزل الذي تقيم فيه أمي ملكا لعائلة شاتلوورث، اشتراه عم ريتشارد قبل عقدين من الزمان تقريبا بهدف الراحة أو الصيد على طريق اسكتلندا. لم آتِ إليه سوى مرة من قبل، عندما أصيبت أمي بوعكة في صدرها وأقنعني ريتشارد بالزيارة.

قررتُ أن أتطرق مباشرة إلى الموضوع. وقبل حتى أن يوضع صندوقي على بلاط بهو المدخل، استدرتُ لمواجهة أمي.

«هل كنتِ تعرفين بعشيقة ريتشارد؟»

«بالطبع كنت أعرف، يا فليتوود. والآن ادخلي قبل أن تفقدي وعيك.»

وبالرغم من أنها لم تفعل سوى أن أكدت شيئا كنتُ

أشك فيه، إلا أنني شعرتُ وكأنها غرزت سيفا لآخره في جسدي، ثم سحبته مرة أخرى.

تأبطت آليس ذراعي وتكاد تكون حملتني عبر الممرات المبلطة إلى غرفة صغيرة كانت قليلة الأثاث. لا كتب فيها أو مزهريات أو أباريق، بل أسطح جرداء فحسب، وكأنها تنتظر أن تُكسى من جديد بعد تنفيض الغبار عنها. كانت ماري بارتون تتبع دائما منهجا تجديديا في التأثيث، أما هنا فقد احتاج السجاد لتغييره، والمدفأة لتنظيفها، والنوافذ لغسلها. اتخذت مجلسها قرب المدفأة وأشارت بيدها إلى الكرسي المقابل – حتى الكراسي كانت قديمة ومتهالكة. ألم يتغير الأثاث يا تُرى منذ أن اشتراه عم ريتشارد قبل عشرين عاما. لكن الغرفة كانت دافئة، وفي المدفأة احترق حطب مُشعلا نارا صغيرة. فاحت رائحة بها بعض الكراهة، مُغثية وتشبه رائحة اللحم، واستغرقتُ لحظات لأدرك أن الشموع هنا كانت من الشحم، وليس الشمع.

قلتُ، «ستحتاج قابلتي إلى كرسي.»

حدَّقت أمي بي، ثم تفحَّصت آليس سريعا من أعلى لأسفل، قبل أن تنهض وتخرج من الغرفة بخطوات واسعة. لم تلتفت آليس لكل هذا، بل حدَّقت في شرود إلى السجاد الرث عند قدميها. عادت أمي وخلفها خادم يحمل كرسيا متينا وضعه قبالة الحائط قبل أن ينحني ويغلق الباب خلفه بهدوء.

خيَّم صمتُ عميق انتظرت فيه كلتينا أن تبدأ الأخرى بالحديث. لم أطق صبرا حتى ثارت ثائرتي.

فقلتُ بغضب، «دعوتني للسفر مسافة خمسين ميلا لكنكِ لا تجدين ما تقولينه؟»

كان ذلك وقحا جدا، إلا أن وجهها ظل مُبهما. كانت شاحبة كالطبشور ولاحظتُ أن الخطوط حول عينيها وشفتيها قد زادت عن آخر مرة رأيتها فيها.

أطلقت أمي تنهيدة عميقة، وهي تغمض عينيها.

وقالت، «تمنَّيتُ أن هذا اليوم لا يأتي.»

«هل ظننتِ أنني لن أعرف بالأمر؟»

«نعم،» قالتها ببساطة.

«لماذا؟ إن كنتِ تعرفين بالأمر فلماذا لا تخبرينني؟ لقد خانني ريتشارد، نكث بي وبزواجنا، وكنتِ تعلمين. أمي أنا!»

«كنتُ أحاول حمايتكِ،» قالتها ببطء. وعيناها قاتمتان.

فقلتُ، «كيف لي أن أثق بكِ؟ لا يمكنني أن أثق بأحد. أي أحد.»

عدا آليس، هكذا أضاف صوت في رأسي.

ثم شرعتُ أبكي، وراقبتني أمي، بتعابير بغيضة، فيما دفنتُ وجهي في كفَّي.

ثم صرختُ بها، «إنني أكرهكِ!» فشقَّ الصوت هواء الغرفة الصغيرة، مرتدًّا عن الجدران الخشبية. «أكره كليكما. كلاكما خانني.»

تركتني أتمالك نفسي وتراجعتُ في مقعدي مُتهدِّلة، طفلة متجهمة مرة أخرى. هدأت أنفاسي وكفكفتُ دموعي عن وجهي.

وأخيرا قالت أمي، «سوف تمكثين هنا.»

فسألتُ، «إلى متى؟ إلى أن تنجب هي الطفل؟»

«أي طفل؟»

لاح الفهم على وجه أمي. ومدت يدا بيضاء إلى ذراع كرسيها وازداد وجهها شحوبا.

«هي...»

«هي ستنجب طفله.»

أغمضت عينيها. وهمست، «الغبية الحمقاء.»

لم أعرف أيَّنا كانت تقصد.

«وتعرفين أنها تقيم في بارتون؟»

أومأت أمي. وبذهن شارد ثنت إصبعها الذي يحمل خاتم زواجها الذهبي البسيط. رأيتُ عقلها يعمل. ومن طرف عيني وعيتُ لآليس، صامتة ولا تحرك ساكنا. لم تسأل أمي عن اسمها ولا اكترثت حتى لوجودها.

ثم سألتُ أخيرا، «هل تعرفين اسم المرأة؟»

«جوديث ثورب.»

«كيف عرفتِ بأمرها؟»

«ليس مهما.»

«إنه مهم لي.»

«المهم حقا هو أن تنجحي في إنجاب هذا الطفل، لا كالمرات السابقة.»

انقبضت معدتي. «لماذا؟»

لعقت أسنانها. «فليتوود، أنصتي. إذا لم تنجبي وريثا، فإنها ستفعل.»

رن صوتها واضحا في الغرفة، وحدَّقت إحدانا في الأخرى،

في أول سابقة تقريبا للتفاهم. وفجأة شعرتُ بالبرد يغمرني.

«لكنها ليست زوجته.» تكلمت آليس، وفاجأت كلتينا.

فقالت أمي بلهجة مُنذرة، «الابن غير الشرعي هو في حكم الوريث. ربما لا يمنعهم أن يرثوا مباشرة، لكن الرجل يملك أن يورِّث أي شيء إلى نغله: عقارات أراضي، أمتعة. خاصة لو أنه لا يملك غيره.» ثم أضافت بازدراء، «الطريقة الأخرى الوحيدة للإقرار بشرعية النغل هي إن تزوج والده ووالدته.»

طفت كلمات جيمس أمام عيني: السيد ويليام أندرتون لإحضار رخصة زواج من يورك.

غطيتُ فمي بيدي.

«إنه ينوي الزواج بها. إنه يعلم أنني سأموت.»

«تموتين؟»

أخبرتُ أمي عن خطاب الدكتور جنسن؛ وعن طلب رخصة الزواج الذي وجدته في دفتر الحسابات. ثم صرتُ أرتجف بعنف.

«فليتوود!»

راع أمي ما رأت من انتفاضي ورجفتي.

وفجأة وجدتُ آليس إلى جواري.

سألت أمي، «هل لديكِ روزا سوليس؟»

«وما يكون هذا؟»

«براندي بالقرفة. اطلبي من الخدم صنعه لها، سوف يفيد.»

هرعت أمي من الغرفة وأخذت آليس يدي الرمادية

بين يديها الورديتين. سرعان ما عادت أمي ومعها خادمة تحمل آنية عليها قدح فضي. أخذته آليس وناولته لي، وتجرعتُ الشراب بصعوبة، والقدح يصطك بأسناني. أشعل المزيج حنجرتي ونشر الدفء في أحشائي، ورويدا تضاءلت الرجفة العنيفة إلى رعشة خفيفة. أعادت أمي والدتي القد إلى الآنية وطلبت إحضار خبز ونبيذ.

فقالت الخادم بصوت خافت، «سيدتي. لقد نفد الخبز الفاخر، لا يوجد إلا العادي.»

فثارت أمي قائلة، «لا يهم.» ثم التفتت إلى آليس، وقد لاح الاهتمام في عينيها الداكنتين. «ما اسمك؟»

«جيل، يا سيدتي.»

أومأت أمي برأسها مرة، إشارة إلى رضاها من ناحية واستهانتها من ناحية أخرى، ثم عادت إلى مجلسها قبالتي.

كان رأسي يعجُّ بالأفكار. شعرتُ بالطفل يتحرك في أحشائي، كمن يذكرني أنه مازال هناك. لم يكن شعورا سيئا بالكامل، فبدا كمرور العربة فوق مُنخفض من الأرض، ووضعتُ يدي على بطني وفركتها وكأنما لأدفئها، وأنا أتذكر الكلمات المكتوبة بخط رفيع وطويل في خطاب الطبيب، والتي أصبحت آلفها الآن كاسمي: سيكون في ذلك نهاية حياتها.

الفصل الحادي عشر

تشاركنا آليس وأنا غرفة في أعلى طابق بالمنزل لأنه كان دافئا – لم تكن بشائر الصيف قد بلغت بعد هذا الجزء القصيَّ من الشمال. رقدت على سرير مدولب جُلب ووُضع إلى جوار سريري، وكانت في رقودها تتخذ وضعا عجيبا، حيث تكورت على الفرشة، دون الالتجاء إلى الوسادة. وتجنُّبا لإيقاظها بالصرير الذي يحدثه تقلبي فوق الفراش، نهضتُ أخيرا وجلستُ عند النافذة.

لم يسعني التفكير سوى في عشيقة ريتشارد. كلما حاولت استحضار صورتها، قلّت ملامحها وضوحا، لكنني كنتُ واثقة أنني لم أرها قبل تلك اللحظة، أنها لم تكن شخصا قابلته من قبل. هل تُراها كانت تنام على فراشي القديم في بارتون، وهل كذا فعل ريتشارد أثناء وجوده هناك. في كل مرة قبَّل جبيني قبل سفره، وشاهدته من النافذة وهو يغادر على جواده إلى هاليفاكس، مانشستر، لانكاستر، وإلى أبعد من ذلك: كوفنتري، لندن، إدنبرة، كانت الوجهة الحقيقية هي: بارتون، بارتون، بارتون.

سالت دموعي بسهولة الآن، وحاولتُ ألا أستروح بعمق

أو أحدث أصواتا كثيرة. لم أستطع تخيل عودتي إلى جوثورب لكني كذلك لا يمكنني البقاء هنا، ضيفة للأبد في منزل أمي. كنت عالقة في الوحل وأغرق. غير أنني في اللحظة الراهنة، جالسة عند النافذة أتأمل المشهد الذي مازال الظلام يغلفه بالخارج، لم أرغب في التفكير في الغد أو بعد غد. وكنتُ ما أزال حيَّة، وطفلي كذلك، إذ أنه كان يتلوَّى الآن مثل هرَّة حديثة الولادة، وشعرتُ بذلك طوال الوقت – فما عدتُ وحدي حتى إن خلوتُ بنفسي. ثم أدركتُ أنه إن وُلد، وعشتُ أنا وأصبحتُ أمًّا، فلن أكون وحدي أبدا. هلَّت الفكرة مثل شعاع شمس دافئ لامس وجهي. ربما أكون قد خسرتُ ريتشارد –أو جزءا منه–وزواجي لم يعد يحمل صورته السابقة في مخيلتي، لكني سأكسبُ صديقا دائما.

أدرتُ وجهي لأنظر إلى الجسد النائم للمرأة التي كانت سبيلي الوحيد لتحقيق ذلك. انهال شعرها الذهبي فوق الوسادة وحتى أسفل ظهرها، وعلا صدرها ونزل في سكينة. تذكرتُ الرجل الذي أثار ضيقها في الحانة، وقولها إن الأطفال هم جهد لا يستحق العناء. شعرتُ وكأنها أول شخص يمكنني وصفه بالصديق، ولكن ما الذي أعرفه عنها حقا؟

ثم وكأن جزءا منها شعر بأن ثمة من يراقبها، تحرَّكت أليس في سريرها الضيق وأخذت تئن. شاهدتها تسكن مرة أخرى، ثم تخشَّبت، ويداها تخمشان دثارها.

«اتركوها،» هكذا أنَّت بصوت خفيض. «اتركوها.»

وقبل أن يتأتَّى لي تقرير أأوقظها أم لا. عادت، فجأة كما بدأت، إلى سلامها، فاستكان جسدها ورقَّ وجهها إلى سباته من جديد.

جلستُ بيديَّ على بطني وشاهدتُ السماء بلونها الأزرق الحبري توغل في القتامة قبل أن يشرق لونها، ولم يكن حتى شرعت الطيور في اختراق الصمت، أن ثقل جفناي وعدتُ لاعتلاء أغطية فراشي، التي كانت باردة.

*

ونحن على مائدة الفطور في ذلك الصباح، خيَّم الوجوم على مجموعتنا. همَّت آليس بالذهاب لتناول طعامها مع الخدم لكنني طلبتُ منها مجالستنا أمي وأنا، وعندما رفضت ألححتُ عليها. لم تُسرَّ بذلك ولا أمي، فجلستا بوجهين متذمرين فيما وُضع البيض أمامهما. ثم أُحضر الخبز، غير أنه لم يكن الخبز الذي اعتدت عليه. تذكرتُ ما قالته خادمة أمي في الليلة السابقة، أنه لا يوجد سوى دقيق الدرجة الثانية، المصنوع من النخالة، لا القمح.

حككتُ ثيابي وقلنسوتي من حيث شعرتُ بضيقها وتثاءبتُ. كانت آليس تأكل بفتور من بيضة مسلوقة، وتناولتُ واحدة من الزبدية وحملتُ ثقلها الدافئ في راحة يدي. وجوار بياضها الكثيف، بدا جلدي أقرب للون الأصفر.

سألت والدتي، «فليتوود، هل من خطب في بيضتك؟»

أخذتُ منها قضمة وفوجئتُ بمذاقها الشهي: مملحة ومتماسكة، لا كتلم المائعة والهلاميَّة في قشرتها التي يقدمها مطبخي. بيد أني اضطررتُ إلى وضعها على

المائدة لأحكَّ ذراعي، ففركتُ قماش ثوبي بعنف من فوق الجلد الذي لم أستطع بلوغه.

قالت والدتي، «فليتوود. هل لديكِ قمل؟»

فكرتُ أني ربما كذلك، مع أني لم أر منه شيئا. شعرتُ وكأن أحدا يدغدغني برقة ولين في كل مكان، من كاحليَّ وحتى أذنيَّ. هرشتُ عنقي ووجهي ومعصمي وجوربيَّ: أي مكان تبلغه يداي.

قلتُ، «ربما أنا كذلك.»

إن القمل يأتي للفقراء، للقذرين، وليس أنا، التي تفرك جسدها بالمنشفة كل يوم وتمسح معصميها وعنقها بزيت الورد.

قالت أمي، «تناولي فطورك. ليت لديكِ شهية قابلتك.»

تضرَّجت آليس وتوقفت عن دهن خبزها بالزبدة، ثم وضعت سكينها على المائدة ببطء.

«إنني أفضِّل خبز القمح عن هذا الخبز الرخيص،» قلتها، آملة أن يتضرج وجهها بالمثل، وهو ما حدث.

لكنني كنت أكذب: حيث كان خبز النخالة دافئا ومغذِّيا ولذيذا مع الزبدة المصنوعة في المنزل. عادت الحكة وانتفضت فوق المائدة إذ وثبتُ لتخفيف الأكال عن مؤخرة ساقيَّ.

«فليتوود!»

«لا أعرف ماذا بي.»

أقحمتُ أصابعي في ظهر ثوبي، ولكن فيما أراحني ذلك، عاد الوخز في ذراعي حيث فركته منذ قليل.

«تمالكي نفسك، إنكِ تثيرين جلبة.»

«لم يحدث هذا من قبل، ما إن جئتُ أقيم معكِ حتى بدأ جسدي يحكني من رأسي حتى أسفل قدميَّ. هل تغسلين ملاءات السرير، يا أمي؟»

«إنها تُغسل بالطبع، لا تكوني سخيفة!»

«أحتاج إلى الخروج من هذا الفستان.» ابتعدتُ عن المائدة بخيلاء، ثم توقفتُ عند الباب. «جيل، هلا ساعدتني؟»

تبدى على آليس الارتياح بنبذ الفطور ولحقت بي خارج حجرة المائدة وإلى الطابق العلوي. حيث لم أطق صبرا وهي تحل كل الأشرطة والأربطة التي سبق لها أن عقدتها منذ نصف ساعة فحسب.

«أسرعي، أرجوكِ!»

انطرح الثوب من حولي وخطوت خارجه؛ ثم كان عليَّ نزع مشدِّي وسحب التنورة الداخلية المقببة من فوق أردافي. وحين أمكنني أخيرا الجلوس لحلِّ جوربيَّ، رفعتُ طرفي سروالي الداخلي لأمزق جلدي بأظافري. أدخلتُ يدي من تحت قميص نومي لأصل إلى جلد بطني، الذي صار مشدودا وناعما وكان قبل ذلك طريًّا. سحبتُ دبوسا من شعري واستخدمته لحكِّ قفاي.

فركت آليس عنقها مستغرقة في التفكير وهي تشاهدني أتلوَّى أمامها.

ثم اقترحت، «ربما يفيد الاستحمام؟»

أُحضر مغطس وأكواز ماء من المطبخ. ثم طرقت

خادمة الباب حاملة قطعة صابون، سوداء ناعمة ومنزلية الصنع، لا كالقوالب البيضاء اليابسة التي نشتريها. لم أعرف كيف أطلب من آليس أن تشيح ببصرها حتى أخلع ما تبقى من ملابسي، لكنها فعلت على أي حال. وإذ انطرحت ملابسي الداخلية على الأرض، توقع جزء مني رؤية مخلوقات سوداء صغيرة تتجول زاحفة فوق جلدي ومن ملابسي، لكني لم أجد شيئا. كانت بشرتي بيضاء بالكامل، ولا أثر فيها للالتهاب الذي شعرتُ به. طفقتُ أضحك. واستدارت آليس نصف استدارة من فراشها المدولب.

«ما الأمر؟»

«لا يوجد شيء. لا قمل. لا طفح جلدي. لا بد أنَّ الأمر اختلط عليَّ.»

أنزلتُ جسدي في الماء فنثرته في كل مكان، لأخمد الأكال الذي كان أشبه بألهبة صغيرة تلعق جلدي.

سألت آليس وهي مازالت في وجه الجدار، «هل تفضِّلين أن أنصرف؟»

فأجبتُ، «لا، ابقي.»

ظلت توليني ظهرها، وقد ثنت ساقيها تحتها لوضع أكثر راحة. استكان الماء وحدَّقتُ في بطني، التي زاد حجمها كثيرا عن آخر مرة تحمَّمتُ فيها، إلى الحد الذي عجزتُ معه عن رؤية الشعر الأسود الخشن تحتها. مرَّرتُ الصابون على جلدي كله، فصار أملسا كجلد الأنقليس، وهدأت الحكة. ملأتُ الكوز وقلبته فوق رأسي، وصبَّنتُ شعري فتحول إلى

كتلة فوضوية متشابكة. لفَّني الماء برقة وتنهدت، مُسلِّمة عقلي إلى أمر ما انفك يراودني منذ أن رافقتُ ريتشارد وروجر في رحلة الصيد الضبابية التي تعود إلى شهر نيسان.

«آليس، هل سمعتِ من قبل عن الوسطاء؟»

سمعتُ تململ جسدها فوق الفراش.

وقالت، «نعم.»

«أخبرتني جينيت ديڤيس أن والدتها تملك كلبا، وقد رأيتُ معها كلبًا عندما كنتِ...»

سكنت حركة آليس. «عندما كنتُ ماذا؟»

ازدردتُ لعابي. استدارت ونظرت إليَّ مباشرة من فوق كتفها، عيناها متوقدتان وصريحتان.

«عندما كنتُ ماذا؟»

«آليس، لا تنظري.»

شرعتُ أغطي جسدي في المغطس، لكن نظراتها لم تتزحزح عن وجهي.

«هل كنتِ تتلصصين علي؟»

«كلا.»

«متى؟»

«لقد... لقد خرجتُ على فرسي لملاقاتك. رأيتكِ معها في الغابة.»

عادت لتدير وجهها إلى المدفأة وتناولت محراك النار، فدفعته بين الحطب المتشظي.

«ماذا سمعتِ؟»

«لا شيء.»

«لماذا لم تعلني عن وجودك؟»

«كنتُ... كنتُ خائفة. منها. من المرأة. إليزابيث ديڤيس.»

«لماذا؟»

«عيناها. أخافتني.»

وعندما استدارت نحوي بدت رهيبة جدا، بنظراتها الهوجاء التي حدقت بها في كل الاتجاهات.

استطردتُ، «ابنتها جانيت. أعجز عن استيعاب السبب الذي يجعل روجر يصدق كل ما تخبره به. كيف يمكنه ذلك؟ إنها مجرد طفلة.»

وإذ قلتها، تذكرتُ عندما كنتُ في نفس عمرها، وكيف لم أخبر أحداً بما وقع لي، لأني أعرف أن أحدا لن يصدقني. لكن ذاك أمر مختلف - إن قصص جانيت تعجُّ بالسحر والأرواح، كتلك التي تُحكى لطفل حتى ينام.

«ربما يريد تصديقها. ربما يملي عليها ما تقوله.»

«لن يفعل روجر ذلك.»

«وما أدراكِ؟»

«إنه رجل صالح. لطالما أحسن معاملتنا.»

لكن كلماتي بدت جوفاء عندما رنَّت في الغرفة. هل علم روجر أيضا بعشيقة ريتشارد؟ كانت تلك لتعدَّ خيانة مضاعفة، وأسوأ حتى من خيانة أمي. كان يسمينا ريتشارد وأنا يمامتا الحب. فهو إمَّا غير عارف أو هو قاس.

وبعد صمت طويل، قلتُ، «آليس، أعتذر عن التلصص، لم أقصد ذلك.»

صارت أفكاري أكثر تشابكا مما أحتمل؛ كنتُ بحاجة

إلى فصلها وتقفي كل فكرة بدورها. راقبتُ آليس تعبث بشيء في تنورتها. كان فستانها القديم في حاجة مُلحة إلى رتقه وغسله، وقلنسوتها إلى تنشيتها وكيِّها. قررتُ أن يتم ذلك هنا. تساءلتُ متى تُراها اغتسلت آخر مرة - فلربما هي أيضا كانت تتوق لتلييف جسدها.

«آليس، هل تودين الاستحمام؟»

«كلا، شكرا لكِ.»

«بوسعي أن أرسل في طلب المزيد من الماء.»

انتفضت. «هل رائحتي كريهة؟ هل تظنين أنني أنا من أصبتكِ بالقمل؟»

«كلا، كلا بالطبع. لا قمل هناك. لقد خُيِّل إليَّ...» ثم نظرتُ إلى الكومة البيضاء التي شكلتها ملابسي الداخلية على الأرض ودققتُ مرة أخرى لأتأكد أنه لا يزحف فوقها. «آليس، هل تبدو بشرتي صفراء برأيك؟»

رمقتني بازدراء.

«لا أعرف - إنها لا تبدو نضرة، لكن هذا ليس جديدا على أية حال.»

كانت تفيض بالامتعاض، وتساءلتُ لأول مرة إن كنتُ أصبتُ في إحضارها إلى هنا معي. شيء ما تغير فيها يوم لمَّح ريتشارد أنها سرقت عُقدي. لكني اعتدتُ على الإذعان المطلق لي، في حين عاملتني هي ندًّا بند. إلا أني أدركتُ عدم أهمية ذلك بالنسبة لي.

صببتُ الماء على جسدي لمرة أخرى ثم قمتُ، فقابلتُ صورتي في مرآة المزينة. كان شعري هائجا، وتجمَّع حول

أذني كعش طائر. كانت تملأ ثدياي دوائر سوداء داكنة حول الحلمتين، والتي كان بروزاها أيضا داكنين، وتدلَّت الظلال من تحت عيني. جففتُ جسدي بمنشفة كتان نظيفة وطوَّقته ببشكير لأجلس على الفراش. لم تتحرك آليس من حيث كانت. فكرتُ أين تُراها تريد أن تكون. ليس هنا، لكن حدسي أخبرني أنها لا تحنَّ للمكان الذي تركته أيضًا - كان هذا محالا على أية حال، وقد أصبح غير آمن الآن. ربما المكان الذي ستشعر فيها بجل راحتها لم يخطر ببالي تخيلها فيه: بين ذراعي حبيب تحت دثار قديم، أو مع والدها جلسة مسترخية بالخلاء في مساء ربيعي دافئ.

«آليس، أخبريني،» قلتها وأنا أرتدي ثوبا نظيفا. «هل أمنعكِ عن أبيكِ؟»

«كلا.»

«أو أي شخص آخر؟» فهزَّت رأسها. ترددت. «الرجل الذي كان في الحانة...»

نظرت إليَّ بحدة. «رأيته؟»

إنها ثاني مرة أعترف بالتلصص. تضرَّجتُ بصورة بسيطة، وأومأت.

«في الممر فقط قبيل رحيله. هل ضايقكِ؟»

«لا أريد التحدث عن الأمر.»

ثم استدارت حتى لا أرى وجهها.

مشَّطتُ شعري وتناولتُ مشدِّي الذي يكسوه حرير بلون اللؤلؤ، ونقرتُ فوقه خفيفا بمفاصل أصابعي. قررتُ

أنني سأرتدي فستاني بدونه اليوم؛ لم أطق ربط بطني مرة أخرى. رأتني آليس أعبث به.

وقالت، «ألا تسأمين قط من ارتداء الملابس التي لا يمكنكِ وضعها بنفسك؟»

«كلا،» قلتها صادقة «أفعل ذلك مرة فقط في اليوم. بخلاف اليوم.»

تبادلنا الابتسام، وبدا لي أنها سامحتني. طُرق الباب وأخذت خادمة المغطس، فيما أحضرت أخرى بسكويت مزينا بالسكر وحليبا ساخنا، تناولته مع آليس. قالت إنها في أربع وعشرين ساعة أكلت طعاما ما أكلته في عام كامل. جلسنا نأكل البسكويت ونُطعم الفتات لپاك، ومع حبيبات السكر التي التصقت بشفتي، وشعري نظيفا وناعما، وثوبي جديدا، كان ليسهل أن أنسى سبب وجودي هنا، لكنني لم أتمكن من ذلك. كانت آليس معي لتراقب حملي الذي يتقدم، وكنتُ أنا هنا في هذا المخدع الذي تدخله الشمس والهواء والذي يبعد خمسين ميلا عن منزلي هو أن زوجي قد اتخذ له عشيقة. كان الأمر برمته يعمُّ بالفوضى، لكني لسبب ما لم أشعر بأنها النهاية. ليس بعد على أية حال.

لم يمض وقت طويل حتى دخلت أمي، دون أن تبذل جهدا في إخفاء استهجانها لرؤية آليس جالسة في فراشها، وقد ثنت ساقيها إلى جانبها، واستقر قدح من الحليب فوق تنورتها التي تناثرت عليها حبيبات السكر. احمرَّ وجه آليس قليلا واعتدلت في جلستها.

سألت أمي، «هل ستعيدين وضع ثيابكِ، يا فليتوود؟»

«ربما.» رأيت عينيها تنتقلان للحظات إلى بطني، التي كانت أكثر وضوحا في قميصي الداخلي دون طبقات الحرير أو المخمل أو الصوف التي تتراكم فوقها في العادة. «ألا تملكين حطبا للمدفأة؟ إننا مثل خادمتين منكمشتان أمام هذه الجمرات المُحتضرة.»

التمع سواد عينيها.

«إننا نتبع نظاما اقتصاديا في هذا المنزل. فإن كنتِ تفضلين نار الحطب، فبوسعي أن أحضر لكِ فأسا.»

تبادلنا نظرة غاضبة، ثم غادرت، مُغلقة الباب بحزم خلفها.

«لا خشب أو قمح أو أعمدة شمع،» هكذا فكرتُ جهرا. «يراودني الظن بأن أمي قد أصبحت بخيلة في سنها الكبير.»

حرّكت آليس الرماد في أرضية المدفأة.

وسألت، «من أين تأتي بدخلها؟»

«لم أفكر في ذلك من قبل، لكني أفترض... منّا.»

غرَّد طائر في ظُلة أشجار تحت النافذة، تغريدا عذبا وواضحا. منّا. عهدتُ بهذه الكلمة دائما أن تعني زوجي وأنا، غير أن طوال هذا الوقت كان يعيش حياتين. في أي من امرأتيه فكر أولا يا ترى؟ نزعتُ دبلة الزواج عن إصبعي ثم أعدته. ونزعته وأعدته، ونزعته وأعدته.

«أترعرعتِ هنا؟»

«هنا؟ كلا، ترعرعتُ في بارتون. لم تقضِ أمي هنا سوى بضع سنوات.»

«بارتون؟ ولكن آليس ذاك...»

«أجل.»

اتسعت عيناها دهشة. «أيحتفظ زوجكِ بعشيقته في منزلك؟»

«لا أعتبره منزلي، ولكن نعم.»

«ولماذا لا تعتبرينه كذلك؟» شعرتُ بعينيها الذهبيتين عليَّ.

«لم يكن مقاما سعيدا.»

أطلقت ضحكة، وهي تثني ساقيها إلى جوارها مرة أخرى.

«كيف لقصر ألا يكون مقاما سعيدا؟ ألم تكن لديكِ أثواب فخمة، وطعام فاخر، وخدم؟»

لم أبتسم. كانت قد منحتني في وقت سابق لمحة على حياتها - بصيصا، لكنه لمحة بعد. وها هي الآن تنتظرني لأحدد القدر الذي سأفصح لها عنه، وعيناها الذكيتان لا تفارقان وجهي. تنهدتُ وعقدتُ ساقيَّ لأماري جلستها.

«مات أبي بُعيد سنوات من ولادتي. لا أتذكره. فصرنا والدتي وأنا فقط. لم أكن أملك أصدقاء أو أبناء عمومة أو أي أحد أشاركه اللعب، بخلاف عصفوري، ساموبل. وذات يوم تركت قفصه قريبا للنار أكثر من اللازم فمات. كان الصديق الوحيد لديَّ. كنتُ طفلة تعيسة. في كل مرة أتشاقى، كانت والدتي تهددني بإرسالي إلى زوجي. كان جديرا بي الحصول على أليف آخر، شيء يؤنسني، لكني لم أفعل.»

«زوجك؟» هكذا سألت فجأة. «أتعنين ريتشارد؟»

«كان لي زوج قبل ريتشارد.»

وقبل أن يتأتَّى لي صدُّها، وثبت الذكرى التي كافحتُ مريرا

لنسيانها إلى المركز: غرفة الضيوف، وتنورة أمي تتوارى عند المنعطف، وصوت زوجي الأجش والعميق، «تعالي إليَّ، يا فليتوود.» ويده الكبيرة تمتد لتجلسني فوق حجره.

«سبق لكِ الزواج؟ إذن كنتِ... أنتِ مُطلقة؟»

«ربَّاه، كلا. لقد أُبطل الزواج حتى يمكنني الاقتران بريتشارد. ارتأت والدتي أن زواجا بين عائلتي بارتون وشاتلوورث سيكون أكثر فائدة. لو لم يوافق ريتشارد لظللتُ متزوجة من السيد مولينو.» لم أكن قد لفظتُ اسمه منذ زمن طويل. «ولا أظنه كان رجلا طيِّبا.»

استغرقت آليس في الصمت والتفكير.

ثم سألت، «كم كان عمرك عندما تزوجتِ في المرة الأولى؟»

«أربعة.»

أسكتت الصدمة آليس. ثم قالت، «وكم كان عمره؟»

«ثلاثون تقريبا.»

همست، «يا للفظاعة.»

«لم أقابله سوى مرتين. مرة في بارتون، والثانية في زفافنا. بعده عادت بي والدتي إلى المنزل لأعيش معها حتى أصبح جاهزة لأكون زوجته. حمدا للرب أن هذا اليوم لم يأت قط.»

خطت الشفقة كل ملمح في وجه آليس، ومعها شيء آخر: فهم من نوع عميق، وكأنها أيضا كانت تعرف ما يجري في العالم، ورأت بعضا منه.

«ما هذا الوجه؟» كدتُ أضحك. «هل ظننتِ أن بوسعي

اختيار زوجي؟ أن ألفت انتباه رجل في الحانة؟»

«ربما.»

«ولكن حتى وإن كان بوسعي اختيار زوجي، كنتُ لأختار ريتشارد أيضا.»

«لا بدَّ أنكِ تحبينه كثيرا.»

«بالفعل،» قلتها ببساطة. «لقد أنقذني من مستقبل مختلف، ومنحني آخر جديدا. لم يكن لي رأي في المسألة. أما أنتِ - أنتِ محظوظة. بوسعكِ اختيار أي رجل تريدين.»

أفتر ثغرها عن ابتسامة صغيرة. «لم يسبق لأحد أن وصفني بأني محظوظة.»

«هل تقابلين رجالا كثيرين في الخان؟»

«سكارى، وفرة منهم.»

«هو عالم من الاختيارات إذن.»

ضحكت كلتانا، وخيمت لحظة صمت مريحة. قلتُ لنفسي ربما هكذا تبدو الصداقة.

وبعد وهلة قلتُ، بصوت عاد إلى جديته، «أعجز عن تخيل العودة إلى المنزل.»

سألت آليس، «ماذا ستفعلين؟»

«لا أعرف البتَّة.» حركتُ دبلة زواجي في دوائر متواصلة. «هل لكِ في سماع قصة؟»

«نعم.»

«لا أعرف مصدرها لكن الناس في القرية التي عند بارتون، حيث منزلي، يحكون أن خنزيرا بريًّا كان يعيش

خرابا في الغابة. فعرض والدي يدي للزواج لمن يقدر على ذبح الخنزير. أعقب ذلك مطاردة، وفي ذكرى القديس لورانس، تمكن أكبر أبناء شاتلوورث من ذبحه. يوجد خان في مكان الواقعة يسمى رأس الخنزير، إلا أني لا أعرف أيهما جاء أولا، الخان أم القصة.»

أصيبت آليس بالحيرة. «لكن والدكِ مات قبل أن...»

«إنها مجرد قصة. وهل تدرين العجيب في الأمر؟ الخنازير ترعبني.»

«لماذا؟»

نفضتُ كتفي. «تأتيني كوابيس أراهم فيها يطاردونني. لا بد أنني سمعتُ تلك القصة وأنا طفلة لأنني أخافهم منذ الأزل. إن شعار عائلة بارتون هو ثلاثة خنازير.»

لم يسبق لي أن أخبرتُ أحدا بخلاف ريتشارد هذا القدر عن نفسي، وشعرتُ بقليل من التجرُّد. ظلت آليس صامتة.

قلتُ، «أراهن أنكِ لا تخافين شيئا.»

«بالطبع أخاف،» قالتها، وجذبت خيطا سائبا في مئزرها. «أخاف من الأكاذيب.»

*

في تلك الليلة، وبالساعات الأولى، أفقتُ فجأة. كانت الغرفة حالكة، قد فاحت برائحة تركها فتيل الشمعة المُحترق. شيء ما أيقظني - صوت أو حركة. ربما كان پاك - وكان قد اتخذ عادة أن ينام أحيانا في الغرفة معنا. عدتُ لإغماض عيني وحاولتُ الاسترخاء تحت اللحاف، لكني لم أستطع صرف شعوري بأن ثمة من يراقبني.

أزحتُ الأغطية وحبوتُ حتى طرف السرير لألقي نظرة على فراش آليس، فيما سمحتُ لعيني بالتكيف مع الظلام. وهناك لمعت الملاءة البيضاء بوهن تحت ضوء القمر. كان السرير الضيق خاليا.

تناهى صوت ضئيل خلفي، وعرفتُ فورا أن في الغرفة شخصا آخر. استدرتُ ببطء، وأنا أفتش هنا وهناك في الظلام، وكدتُ أموت فرقا إذ رأيتُ هيئة طويلة في ثوب نوم أبيض تقف مباشرة بجوار سريري، عند موضع رأسي. واختنقت في حلقي صرخة.

«آليس؟» هكذا همستُ، بصوت لم أكد أسمعه بسبب الطنين في أذني.

لم تتحرك، باستثناء تمايل خفيف. لم أستطع رؤية وجهها.

قلتُ بصوت أعلى، «آليس. إنكِ تخيفينني.»

وفي هدوء، عادت إلى فراشها واعتلته. استغرق قلبي زمنا حتى هدأت دقاته، وحين تمكنتُ من العودة إلى النوم كان الضوء قد تسلل من حواف النافذة.

*

«هل تتذكرين ما حدث ليلة البارحة؟» هكذا سألتها صباحا وهي تنظف جلدها بمنشفة. فحدَّقت بي. «كنتِ تقفين على رأس فراشي.»

«حقا؟»

«أجل، لقد أخفتني. خُيِّل إليَّ أن قلبي سيتوقف.» بدت متفاجئة، وأخبرتني أنها لا تتذكر. «أتسيرين أثناء نومك؟»

«نعم، ولكن فقط عندما...»

ثم خيم عليها الصمت، وعادت لتنظيف جلدها.

«عندما ماذا؟»

«لا شيء.»

وبعد بضع ليال، أفقتُ بنفس الشعور مرة أخرى، وهناك كانت، شبيهة بالأشباح يضيئها نور القمر، ثم مرة أخرى بعدها ببضع ليال. كان الأمر يثير قلقي في كل مرة، لأنه بدا وكأنها تحرسني من شيء، لم أكن واثقة أنها هي نفسها كانت تعرف كنهه.

*

كانت الطاهية في منزل أمي امرأة تدعى السيدة نيڤ، وبفضلها عادت شهيتي للطعام بعد شتاء طويل من عوِّفه. فأكَّلتني فطائر تفاح وخبزا مع زبدة وبسكويت وكعك زنجبيل وحلوى مَرْزَبَانِيَّة. وفي الغداء، تناولنا سلمون هش مع صلصة بقدونس كريمية، وفطائر محار، ولحم بقر كان طريًّا وورديًّا من الداخل. وكانت هناك بطاطا هشَّة وجزر كالزبدة وفطائر جبن لسعت لساني. احتسيتُ كل ليلة روزا سوليس –البراندي مع القرفة– ورويدا عاد اللون إلى خدَّيَّ الغائرين. لم أتقيأ ولا مرة واحدة. بعد حديثي مع آليس حول الطريقة التي تدبر بها أمي منزلها، أمرتُ باستبدال الفحم بالحطب في المدافئ وأعمدة الشحم بأعمدة الشمع، مع إرسال الفواتير إلى ريتشارد مباشرة.

ذات صباح أيقظتني الحركة في بطني قبل أن يكتمل الشروق. رقدتُ بيدي على بطني المكورة، والمشدودة كجلد طبلة، أفكر في غرابة الإحساس وأنصت إلى

أنفـاس آليـس المنتظمـة. عـادت إلـى ذاكرتـي كلمـات الدكتـور جنسـن، كمـا حـدث غالبـا فـي السـاعات المبكـرة التـي أكـون فيهـا وحيـدة، لـذا نزلـتُ عـن السـرير وذهبـت إلـى النافـذة. تلونـت السـماء بـأزرق عميـق جميـل لكـن غابـة الأشـجار التـي أحاطـت بالمنـزل كانـت مـا تـزال فـي الظـل. وبعدهـا كانـت القريـة.

كانـت الغرفـة دافئـة والهـواء راكـدا، لـذا التمسـتُ عباءتـي وأرتديها فوق قميص نومي. كان الممر خارج الغرفة صامتا، وبـاب غرفـة أمـي مغلقـا فـي نهايتـه. نزلـتُ بهدوء إلـى المطبخ، تعطَّـش فمـي إلـى ثمـرة كمثـرى ناضجـة أو ثمـرة مشـمش ريَّانـة. وجـدتُ كمثـرى فـي سـلة علـى الأرض ثـم قصـدتُ البـاب الخلفـي، فـأدرتُ المفتـاح لأخطـو خارجـه وآكل فيمـا بـزغ الفجـر وغـرَّدت العصافيـر فوقـي. غطـى العصيـر يـدي وذقنـي وأنـا أقـف تحـت السـماء الواسـعة، أفكـر فـي كل شـيء ولكنـي أتمنـى أن يظـل عقلـي هادئـا. مـارت بطنـي وأوسـعتني اليـدان والقدمـان الصغيرتيـن ضربـا وركلا.

همستُ، «عمت صباحا. هلا شاهدنا شروق الشمس؟»

عـاد جلـدي يحكُّنـي فهرشـته بذهـن شـارد، ولفـت انتباهـي شـيء عنـد طـرف الغابـة. كان حيوانـا، يتخلـل جـذوع الأشـجار. كان لونـه فـي ضـوء الصبـاح يشـبه لـون پـاك، لكـن پـاك كان يغـط فـي النـوم علـى البسـاط التركـي. وقفـتُ مكانـي مُسـتندة إلـى الحائـط وشـاهدته يقتـرب كل المسـافة، فيتخلـل الأشـجار وكأنـه يقصـد المنـزل دون رغبـة فـي أن يـراه أحـد. كان ثعلبـا. التقـت عينـاه بعينـي وكل منـا ينتظـر

أن يتحـرك الآخـر أولا، ثـم بـرز فجـأة طائـر كبيـر، غـداف أو غـراب، مـن قمـم الأشـجار فرفـرف وأرسـل نعيقـا فـي هـواء الصبـاح. وحيـن عـدتُ بأنظـاري، كان الثعلـب قـد اختفـى، لكـن شـيئا فيـه جـذب خيطـا فـي رأسـي بمـكان مـا. شـيئا لـم أدرك كنهـه حتـى عـدتُ أدراجـي إلـى الطابـق العلـوي ووجـدتُ آليـس فـي غرفتنـا ترتـب فراشـها. رأيتـه عندمـا رفعتْ أنظارهـا إذ دخلـت: كان لعينيهـا لـون عينـي ثعلـب، لـون قطـع نقديـة فـي ضـوء الشـمس.

الفصل الثاني عشر

وصل خطابان في وقت واحد: أحدهما لي، والآخر لأمي، وكلاهما من ريتشارد. لم يعدُ الخطابان قصاصة من الورق، إلا أني شعرتُ وكأنه بصورة ما قد حضر إلى المنزل، مُقتحما المكان في غير ترحيب. كان خطه المائل بادي الاستعجال دائما حتى وإن استغرق النهار في كتابة خطابه، وها هو هنا يكتب حروف اسمي. وفيما فضَّت أمي خطابها مباشرة، دسستُ أنا خطابي في جيبي.

كانت آليس في الخارج. حيث اعتادت قضاء وقتها في الغابة، بحثا عن نباتات يمكنها أن تزرعها في حديقة المطبخ، وكنتُ كثيرا ما أنظر من النافذة فأراها راكعة على التراب، وتنورتها مكومة أسفلها، وقلنسوتها البيضاء تتحرك وسط الخضرة. بعد بضعة أيام من بداية الحكة، شاهدتها تعود من الحديقة عبر باب المطبخ بحفنة من أوراق خضراء عريضة، ثم تحضرها إليَّ في مخدعي. أمرتني بفركها على جلدي من حيث يحكني، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى توقفت الحكة تماما وعادت بشرتي ناعمة.

«في طريقنا إلى هنا، قلتِ إن الأطفال جهد لا يستحق العناء.»

كنت أقف خارج المنزل، أراقبها أثناء عملها في الأرض. خط الطين وجهها. اعتدلت في جلستها ومسحت خدها بظهر يدها، قد تورد وجهها من المجهود بالرغم من برودة اليوم الربيعي.

«وها أنتِ تزرعين نباتات تساعد في نمو طفل لم يولد بعد،» هكذا تأملت. «هل تُراكِ تخافين من إنجابهم، بعد أن عرفتِ ما يحدث في الولادة. القابلات في العادة كبيرات قد وصلن إلى سن اليأس، أو هكذا كنَّ من قابلتهن.»

«ربما.»

بدا عليها التفكير والشرود في نفس الوقت. شاهدتها تقتلع عشبا وتلقيه في سلتها، وقررتُ الدخول، لأن النسيم لم يعد لطيفا، لكنها في تلك اللحظة تكلمت.

«كم طفلا تريدين إنجابه؟»

طوَّقتُ جسدي بذراعي.

وأجبتُ، «طفلين. حتى لا يشبَّا وحيدين كما حدث معي.»

سألت، «ولد وبنت؟»

«بل ولدان. لا أتمنى لأي أحد أن يعيش حياة امرأة.»

*

ظل خطاب ريتشارد في جيب ثوبي، ورغم أني نسيت أمره بعد يومين، إلا أن أمي قررت أن اليوم الثالث من وصول خطابه كان هو الوقت المناسب لمناقشته. عرفتُ ما ينتظرني من الطريقة التي وضعت بها الملعقة؛ حيث أمكنني رؤيتها تلوك اسمه في فمها.

قالت، «فليتوود. هل فكرتِ متى ستعودين إلى جوثورب؟»

«كلا.»

«لم تفكري في الأمر؟»

اختلستُ نظرة إلى آليس، التي كانت تجلس قبالتي مباشرة، وتحرك بذهن شارد الطعام والعسل في طبقها.

«لم أفعل.»

«أخبريني إذن،» تناولت أمي ملعقتها من جديد. «فيم كنتِ تفكرين؟»

لَم أكن حتى تلك اللحظة قد لاحظتُ وجود نسخة الملك من الكتاب المقدس جوار يدها. رأتني أنظر إليه فرفعته، وفتحته على الصفحة التي وُضع عندها الشريط.

«بينما نأكل، دعونا نتأمل في إنجيل لوقا. «وَلاَ تَدِينُوا فَلاَ تُدَانُوا. لاَ تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلاَ يُقْضَى عَلَيْكُمْ. اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ.»» ثم وضعت الكتاب إلى جوار صحنها وتناولت ملعقتها مرة أخرى. «ما رأيكِ في ذلك المقطع، يا فليتوود؟»

تظاهرتُ بالتفكير ولعقتُ أسناني.

«أعتقد أن المرء ليعجب كيف أن الملك بكتابه المقدس، قد أوجد له حضورا في كل بيت وعلى كل رف كتب. يدعونا ألا ندين أحدا، ولكنه لا يفعل شيئا آخر فيما يبدو. كاثولكيون، ساحرات...»

«ليس الملك هو من كتب الكتاب المقدس، يا فليتوود. إن الكتاب المقدس هو كلمة الرب. الملك يكتب عن السحرة في منشوراته الخاصة.»

«حقا؟»

فقامت وغادرت الغرفة، ثم عادت بعد بضع دقائق بمجلد نحيف ذي غلاف أسود مصنوع من جلد العجل، ناولتني إياه. فأزحتُ زبديتي وفتحتُ الغلاف الناعم. طُبعت كلمة شيطانيات أسفل رسم بالحبر لإبليس. والألهبة تلامس جسده وجناحان عظيمان ينبسطان من خلفه. رفعتُ عيني إلى والدتي، التي أشارت لي أن أقرأ.

قلت، «"كُتب بقلم ذي الرفعة والعظمة الأمير جيمس."»

كانت آليس تنظر إلى الكتاب الذي بين يدي وتذكرتُ أنها لا تعرف القراءة. قلبتُ الصفحة وتتبَّعتُ كلمات الملك.

سألتْ آليس، «ماذا يقول؟»

«"إن الخوف الذي يعم هذا البلد بهذا الزمان من عبدة الشيطان البغيضين، الساحرات أو العرَّافين، قد دفعني، أيها القارئ الحبيب، إلى إصدار الأطروحة التالية..."»

دوَّن كتابا عن السحر؟» هكذا سألت أمي، وأنا أقلب بين صفحات ما بدا أطروحة مُستفيضة للغاية.

«منذ عشرين عاما أو أكثر، سُحرت سفينة كان يبحر على متنها إلى اسكتلندا. فساق قرابة مائة ساحرة للمحاكمة بتهمة الخيانة. تُعقد محاكمات السحرة هناك عشرين مرة سنويا. أُعدمت ابن عمومة بعيدة لعامل الاسطبل منذ وقت قريب؛ فنحن هنا في ويستمورلاند لا نبعد عن الحدود. إن صديقك روجر نويل يواكب بالعصر فقط، يا فليتوود. ليس إعدام الزنادقة بالأمر المُستحدث.»

عاد إلى ذاكرتي الخط العنكبوتي لنِك بانستر: آليس جراي، من نفس المكان.

كان نسيان الأمر يسيرا منذ وصلنا إلى هنا، أو كان كذلك على الأقل بالنسبة لي. هل تُرى مازالت الطفلة جينيت في ريد هول.

«لكن توصيف الساحرة جديد.» وجَّهت آليس حديثها إلى والدتي. «إنهم أناس مسالمون، يفعلون ما يفعلونه منذ قرون. ولم يحدث حتى اعتلى الملك العرش أن أصبح الناس خائفين. ألم يحدث قط أن احتجتِ إلى عون حكيمة؟»

فاضت أمي بالعداء.

«كيف تجرئين على مخاطبتي بهذا الأسلوب الوقح في منزلي؟ هل أنتِ قابلة أم خبيرة في السياسة؟»

أرسلتُ نظرة تحذير إلى آليس. وكانت حمرة تزحف على عنقها.

سارعتُ بالقول، «كل ما تعنيه جيل أنه ربما ليس كل المتهمات بالسحر مذنبات.»

انتشرت على عنق والدتي رقط أرجوانية من أثر الغضب.

«أتدافعان عن عابدات الشيطان اللاتي تستخدمن الدم والعظام والشعر للقيام بأعمال شعوذتهن؟ ما هو البريء في ذلك؟ إنهن كافرات.»

كانت عينا آليس على المائدة الآن – كانت تعرف أنها تجاوزت حدودها في الكلام.

«يكفي،» هكذا استأنفت والدتي، وهي تسوِّي فوطة مائدتها على حجرها وتوجه خطابها لي. «فلنعد إلى موضوعنا: متى تعودين إلى لانكشر، وإلى زوجك. لقد افترقتما لفترة من الزمان، وصار من الصواب الآن أن تعودي. أنتِ زوجة،

والزوجات يعشن في منزل الزوجية لا مع أمهاتهن.»

«ماذا لو أن ريتشارد أحضر تلك المرأة إلى المنزل؟»

«مُحال أن يفعل شيئا من هذا القبيل.»

«أفترض إذن أنها ستواصل العيش في منزلنا؟»

«وأين تريدينها أن تذهب؟ إنها ليست في دائرتك، وليست في طريقك. إنها بعيدة عن العين وبعيدة عن التفكير.»

رميتُ بكتاب الملك على المائدة.

«إنها ليست بعيدة عن تفكيري. ربما هي بعيدة عن تفكيرك ولكنه ليس زوجك الذي اتخذ عشيقة. كيف تدافعين عنها؟ وعنه؟ لو أنه ذلك الملاك، فلماذا يتركك تؤثثين منزلكِ كزوجة مزارع؟»

فكان جوابها الجاف، «إنني قانعة بنصيبي، كما يجدر بكِ أن تكوني. لا شك أن طبعكِ السيء هو ما نفَّره.»

«ما نفَّره هو حاجته إلى وريث، وعجز زوجته عن منحه واحدا.»

أحرقت الدموع عيناي وضاق حلقي.

«فليتوود. هل تظنين أن ريتشارد هو أول رجل يتخذ عشيقة ينجب منها نغلا؟»

ذهبت أصابعي إلى رأسي وعنقي إثر خيال حكة.

«والآن ستقولين لي إن أبي كان له عشرون.»

«كلا بالطبع. لكن أبي كان له.»

حدَّقتُ بها.

«كان لأبي ثلاث زوجات، وجميعهن أنجبن له أطفالا حالما عُقد الزواج. عندما ماتت زوجتاه الأولى والثانية،

كانت المجموعة التالية جاهزة للانتقال إلى المنزل. لم أكن من ضمنهم،» قالتها بسرعة. «ولكن كان لي أشقاء كثيرون وشقيقات. بلغت وصية أبي عشر صفحات – لم يترك ابنا إلا وأوصى له.»

قلتُ ببطء، «أتقولين إذن، إنني إن متُّ، فسوف تحتل هذه المرأة مكاني بسهولة وتأتي بأطفالها إلى منزلي، ولا أحد سيتذكرني على الإطلاق؟»

فصرخت والدتي، «حاذري مما تقولين! ليس هذا ما عنيته. إن مكانكِ في الأسرة مضمون، طالما يمكنكِ إنجاب الأطفال. أنجبي وريثا لزوجكِ ولن يفكر أحد في هذه المرأة الأخرى، كما لا يفكر أحد في مئات النساء الأخريات ونغولهن في كل البيوت على مستوى البلاد.»

أصدر مقعدها صريرا فوق الأرضية حين دفعته للخلف وخرجت بخطى واسعة من الغرفة. انتظرتُ حتى أصبحت خطاها على البلاط في الخارج، ثم تناولتُ كتاب الملك وحذفته في وجه الحائط.

*

لكن شيطانيات ظهر مرة أخرى في وقت لاحق من ذلك اليوم على فراش آليس. سألتها عنه عندما عادت من الحديقة بكفين متسختين.

«ظننتكِ لا تعرفين القراءة.»

«لا أعرفها بالفعل،» قالتها وهي تسكب الماء من الإبريق في وعاء الخزانة، «أردتُ الاطلاع عليه. هلا قرأته لي؟ أريد أن أعرف ماذا يقول. أعني الملك.»

«ولم؟»

حفَّت مياه بنية أطراف الوعاء إذ فركت كفيها ومعصميها.

«من فضلك» قلتها، ثم، «لقد تجاوزتُ حدودي مع والدتك. لم يكن جديرا بي التحدث بهذه الجرأة.»

«لا تفكري في الأمر. أنا لا أفعل.» جلستُ على طرف فراش آليس المدولب، فتناولتُ شيطانيات وتصفحته. «لا أعرف لم هو مكتوب في صورة حوار.» نظرت آليس إليَّ دون استيعاب. «حوار، كالذي يُقال في المسرحيات.»

«لم أشاهد مسرحية من قبل.»

فتحته على الفصل الثالث. «يقول العارف: وأنا بدوري أصلي ألا تنسى إخباري ما هي قواعد إبليس.»

«قواعد؟»

«أعني إما عن طريق نوع التعاويذ الذي تستخدمه الزوجات القرويات الحمقاوات، لشفاء المعزات المسحورة، وحفظها من العين... بالشفاء من الدود، أو مداواة العرج في الأحصنة، أو إدارة منخل التنجيم، أو فعل أشياء لا حصر لها بتلاوة الكلمات، دون استخدام شيء، فتعالج الجزء المجروح، كما يفعل المطببون.»

«ما الذي يعنيه هذا؟»

فقلتُ، «فعل أشياء باستخدام الكلمات فقط دون شيء آخر. اللعنات. شفاء شيء أو تشويهه من بعيد. أجد صعوبة في تصديق أن الملك وجد وقتا لكتابة هذا أثناء حكمه اسكتلندا.»

قالت آليس، «لا أفهم لماذا قد يكتب كتابا عن ذلك.

ولكني من ناحية أخرى، لو أستطيع تأليف كتاب، لربما فعلت.»

فضحكت. «أنتِ؟ تكتبين كتابا؟ النساء لا تؤلفن الكتب. كما أن عليكِ تعلم القراءة أولا.»

«لو أن بوسعكِ كتابة خطاب، فلم لا تكتبين كتابا؟»

«آليس،» قلتها بلطف، «إن هذا يخالف التقاليد.» ثم خطرت لي فكرة. «هل رأيتِ اسمكِ من قبل؟» فهزت رأسها. «هل تحبين رؤيته؟»

أومأت موافقة، فأخرجتُ خطاب ريتشارد، والذي مازال مطوقا في شريطه، وجلبتُ ريشة وحبرا من المكتب في ركن غرفة أمي. جلستُ إلى جوارها على السرير المدولب. وفي زاوية من الورقة، مؤطرة بالشريط، كتبتُ اسم آليس ونفخت فوق الحبر قبل أن أناولها إياه. ابتسمت وأخذته مني، وهي ترفعه عاليا وكأنه لمع في الضوء.

«ما المكتوب هنا؟» هكذا سألت، وهي تشير إلى الحروف المزخرفة حول الشريط الأحمر.

«إنه اسمي.»

«لماذا هو أطول من اسمي بينما كلاهما يستغرقان نفس الزمن في نطقهما؟ فليت-وود. أ-ليس.»

«ليس هكذا يسير الأمر. كل شكل من هذه الأشكال هو حرف. أ-ل-ي-س. وكل منهم يُصدر صوتا مختلفا، ولكن عندما تنطقينهم معا، فإن النطق يتغير.» وفي المربع العلوي الأيمن كتبتُ اسمها بأحرف بينها مسافات واسعة ثم ناولتها القلم. «جرِّبي.»

أمسكت الريشة بطريقة جعلتني أبتسم.

«كلا، بل هكذا.»

أريتها. وبيد مُرتجفة، نسخت حرف الألف في مربع جديد أتبعته ببقية الحروف. وعندما أرتني انفجرتُ ضاحكة.

فاحتجَّت، «ماذا؟»

«الطريقة التي كتبتِ بها حرف الألف بعيدا جدا، جعلت اسمكِ يُقرؤ قمل بالإنجليزية.»

«قمل؟»

«عندما تفصلين حرف الألف عن بقية الحروف، يصبح معنى اسمكِ قمل.»

«ماذا؟»

تلوَّى وجهها بطريقة لم أستطع معها منع نفسي من الضحك. ثم بدأت تبتسم، ولم تلبث كلتانا أن تكوَّرت مثل حلابتين بلهاتين، وكل منا تمسك ببطنها والدموع تنهال على وجهينا.

قلتُ لها، «أتقني كتابة الألف أولا. ومن بعده بقية الحروف.»

في تلك الليلة وأنا أبدل ثيابي للنوم، رأيتُ الورقة على المكتب وإلى جوارها استقرت الريشة. ظلت كلمات ريتشارد مطوية لم تُقرأ، وفي الركن الوحيد المتبقي، انتشر جيش صغير من حروف الألف عبر الصفحة، كغزو قملات. غزو آليسات. وجعلني ذلك أبتسم.

الفصل الثالث عشر

كانت نافذة الغرفة التي أنام فيها وآليس تطل على مقدمة المنزل، وكذلك الدرب الصاعد الذي يؤدي إليه، والغابات على جانبيه والتي تعجُّ بطيور الحجل والتدرج. وذات صباح سمعتُ صوت حوافر بالخارج، وظننتُ أن ريتشارد قد جاء أخيرا. بيد أني عندما وقفتُ عند إطار النافذة، ونظرتُ عبر الزجاج، رأيتُ امرأة شابة ترتدي ثوبا أخضر جميلا، بخصر لا أملك إلا أن أحلم به - تترجل عن فرسها، بينما انتظرت امرأة أخرى، أقل بهرجة في ثوب قرمزي إلى جوار فرسها. وشهقتُ عندما تعرَّفتهما.

«لقد جاءت شقيقتا ريتشارد،» هكذا أخبرتُ آليس، بصوت قد خنقه الذعر.

كنتُ قد تأخرتُ في الاستيقاظ ذلك الصباح، شاعرة بالحر والخمول، ولتوي أنهيتُ تناول فطوري وأنا في قميص نومي. انتفضتُ بعيدا عن النافذة وشرعتُ ألف شعري في البكرات. كانت والدتي قد ذهبت إلى القرية، لكني لم أعرف متى تعود، لذا كان لزاما عليَّ استقبالهم بنفسي.

جاءت السيدة أنبريك، مدبرة المنزل، إلى باب الغرفة وطرقته بأناقة.

«سيدتي، لقد حضرت شقيقتا زوجكِ لزيارتك.»

كانت مدبرة المنزل امرأة دافئة ولطيفة لها بشرة ناعمة وعينان فيهما بريق - عجبتُ كيف تتدبر أمرها مع أمي. قالت جملتها بنبرة حماسيَّة، ومبهورة أيضا؛ حيث لم يعهد هذا المنزل مجيء الزوار. شكرتها وعندما ابتعدت خطواتها، التفتُّ إلى آليس، وأنا أقول بصوت منخفض.

«لا تظهري أمامهما. سيكون من الحكمة أن تظلي هنا.»

«هما لا تعرفان من أكون، أليس كذلك؟»

«كلا، لكنهما كثيرتا الكلام بصورة مريعة وتتسقَّطان الشائعات مثل كلاب الصيد، لذا تجنبيهما.»

ثم أغلقت الباب خلفي.

أُجلست إلينور وآن في صالون أمي، والذي كان باردا في كل وقت. إلا أنه يطل على منظر مُبهج لحديقة مصممة بطراز قديم في مؤخرة المنزل، لغرض كان عمليا أكثر منه جماليا حيث لم تتمكن سوى أشد الأزهار احتمالا من النجاة فوق هذه التلال العالية والمعرضة للرياح.

كلتا الشقيقتين قاسمتا ريتشارد شعره الأشقر وعينيه الرماديتين الصافيتين، لكن إلينور كانت جميلة وآن عادية.

«فليتوود!» قالتاها بتودد وحب إذ دخلتُ.

لاحظت كلتاهما بطني على الفور، إذ انكشف ثوبي الخارجي عن رداء فضي امتد أمامي على شكل كرة.

تبادلنا القبلات وجلستُ عند النافذة حيث سقط شعاع الشمس الضعيف على وجهي.

ثم قالت آن بصفاقة. «سمعنا شائعة تقول أنكِ هنا، واتضح أنها حقيقة! وبدون ريتشارد؟»

«نعم، بدون ريتشارد.» حاولتُ اصطناع ابتسامة. «ممَّن سمعتِ هذا؟»

«كنا نقيم مع بعض الأصدقاء في كندال – هل تعرفين آل بيلنجهام من ليفينز هول؟» نفيتُ بحركة من رأسي. «إحدى خادماتهم هي قريبة لواحدة من خادمات المطبخ هنا. لم نجرؤ على تصديق ما قالته عن مكوثك هنا لفصل الصيف، ولكن كم عدد امرأة تملك اسم فليتوود شاتلوورث؟ وها أنتِ ذا! وحدكِ تماما؟»

«وحدي تماما.»

ولما زال عني الهمُّ تراجعتُ باسترخاء أكبر في مقعدي. لم أكن قد فرَّشتُ أسناني وكان مذاق الصباح المر ما يزال في فمي.

«ليس لوقت طويل.» أشارت إلينور إلى بطني. «يا لكِ من صبية غريبة، حتى تمكثي بعيدا عن زوجك وأنتِ على وشك الإنجاب. أفترض أن زوجات الطبقة الأرستقراطية بوسعهن فعل ما يحلو لهن في هذه الأرجاء.»

ثم أطلقت ضحكة رنانة قصيرة. قد يخيل للمرء وهو يستمع إليها، أنها عاشت كل حياتها في واحد من قصور لندن.

وقبل أن يتأتَّى لي سؤالهما عما قالته الخادمة أيضا، استطردت.

«كم هو مثير: وريث جديد لشاتلوورث. هل أنتِ مستعدة؟ هل تملكين قابلة؟» أومأت بالإيجاب. «حسناً، سيكون عليكِ إحالتها عليَّ عندما تفرغين منها. لقد ألمحتُ بالأمر إلى ريتشارد بالفعل في خطابي الأخير، لكن شيئا لم يكن أكيدا في ذلك الحين. سوف أتزوج قبل نهاية العام!»

أبديتُ وجها سعيدا.

«تلك أخبار رائعة - من زوجك؟»

«السير رالف آشتون.»

كلتا آن وإلينور كانتا تكبرانني في العمر. وعندما تزوجنا ريتشارد وأنا، كنتُ في غاية التشوق لقضاء ستة أشهر معهما في لندن، غير أني بعد وحدة طالت ثلاثة عشر عاما لم آلف أن يخاطبني أحد ويداعبني باللمس ويمازحني في كل ساعات اليوم. رغبتُ طوال حياتي في أخوات، وما إن حصلتُ عليهن حتى لم أطق صبرا على التخلص منهن ومن ثرثرتهن وأياديهن الصغيرة المتطاولة وأسئلتهن التي لا تنتهي.

«فليتوود؟» قالتها إلينور مُوبِّخة. «قلتُ إن الزفاف سيُقام على الأرجح في عيد القديس ميخائيل. هل سيولد الطفل بنهاية أيلول؟»

«ربما.»

هل تُراهما تعرفان شيئا عن امرأة ريتشارد الأخرى،

جوديث، ولكن قبل أن يتأتى لي الجهر بالسؤال، أحضرت السيدة أنبريك إبريقا من الساك وثلاثة كؤوس فينيسية. نظرت باستحسان إلى حزبنا النسوي الصغير، وقد سرَّها أن المنزل قد فتح أبوابه للمجتمع. سكبتُ قدرا سخيا في كل كأس واقترحتُ أن نشرب في صحة زواج إلينور المُنتظر. كانت آن تبتسم لكني شعرتُ بها كسيرة الخاطر، دون زوج في الأفق. لم يسعني إلا أن أعتبرها، مثل آليس، محظوظة. شربتُ ملء شدقيَّ؛ حيث كان الساك حلوا وحارقا في الوقت ذاته.

«فليتوود، لماذا أنتِ هنا بدون ريتشارد؟» هكذا سألت آن وهي ترسم ابتسامة رقيقة وتتململ في ثوبها.

بوجهيهما الشاحبين يرنوان إليَّ، وطوقي ثوبيهما البيضاوين يشعان في الشمس، تبدَّتا مثل أقحوانتين.

مددتُ يدي إلى مؤخرة طوقي لأحك هناك.

«أنا...»

وفجأة ركل الطفل، وطارت يدي إلى بطني تلقائيا.

«هل تحرَّك الجنين؟»

«نعم.»

«هل يمكننا تحسسه؟»

عقدت المفاجأة لساني عن الرفض، وفي غضون لحظة كانت أربعة أياد بيضاء صغيرة تلتصق بثوبي. تحركتُ في ضيق، وأنا أرغب في إزاحة أيديهما.

«يا له من شيء عجيب بصورة رائعة،» قالتا ذلك بأعين متسعة ومُحدِّقة.

أردتُ أن يسكن الطفل، وقد فعل.

«كيف حال والدتكما؟ سوف تفتقدكِ، يا إلينور، عندما تغادرين فورسيت.»

فقالت إلينور، «أجل، إنها على خير ما يرام، لكن زياراتها قلَّت الآن.» ثم أضافت بعجرفة، «أتوقع أن تحنَّ لي، لكنَّ آن ستظل هناك بالطبع.»

سألتُ، «ما أخبار يوركشاير؟»

«لا شيء يثير الاهتمام. ليس مثل لانكستر.»

«ماذا تعنين؟»

«لا بد أنكِ تعرفين كل شيء عنهم بالطبع - ساحرات پندل؟ يقولون إنه ستُعقد محاكمة وإن أكثر من دزينة سيُشنقون. يقول الخدم في ليفينز إن هذا أكبر عدد شهدته إنجلترا قط. لا بد أنكِ سمعتِ عن الأمر.»

ازدردتُ لعابي. «سمعت، أجل.»

فكرتُ في آليس بالأعلى، منكفئة على الصوان مع ريشتها. لم يكن لدينا ورق، لذا شرعت في التمرُّن داخل نسخة ديمونولوجي الخاصة بأمي، وحيث أنها أتقنت كتابة اسمها الأول، صارت الآن تسطر اسمها الأخير.

«حسنا، ما استنتاجك؟»

قلتُ بفتور، «لا أملك واحدا لأنني أقيم هنا. كما أنني لا أولي اهتماما بثرثرة الخدم.»

فاحمرَّ وجه إلينور أمام هذا، وارتجف جسد آن.

«أتساءل كيف يبدون. حمدا للرب أن يوركشاير تخلو من الساحرات، وإلا جافاني النوم في سريري.»

أطلقت إلينور ضحكة مجلجلة عالية.

«لا أظنكِ في خطر، يا آن. من الواضح أنهن لا يلقين باللعنات سوى على إحداهن الأخرى وعلى جيرانهن الصغار الغرباء. والظاهر أنهن يدفنَّ القطط في جدران منازلهن ويثقبن أجساد الأطفال لشرب دمائهم. ويبدو مما سمعتُ أن لانكشر تعج بهن بصورة كبيرة. هل أنتِ متأكدة أنكِ تريدين العودة، يا فليتوود، وتربية ابنكِ هناك؟» قالتها إلينور ممازحة.

«إنهم يقتلون الأطفال،» قالتها آن بطرب. «ويُقال إنهم يملكون حيوانات هي الشيطان في صورة متنكرة.»

«كالعلاجم والجرذان والقطط!» هكذا صاحت إلينور، وتلوَّت كلتاهما ضحكا.

فقاطعتهما، «هل تعرفان امرأة تُدعى جوديث؟»

«جوديث؟ كلا، هل هي ساحرة؟»

لم أجب وأعدتُ ملء كؤوسنا. كان الساك ينساب إلى معدتي بسهولة ويجعلني أشعر بطلاقة في لساني.

«ما رأيكن بالتجول في الحديقة؟ الجو شديد الدفء في الخارج.»

والحق أنني لم أطق صبرا على الجلوس لدقيقة أخرى معهما في تلك الغرفة الضيقة. وقف ثلاثتنا، ووجدتُ أنني أشعر بالدوار. قدتهما إلى الخارج، حيث كانت السماء زرقاء والهواء دافئ وكثير الرياح. تجولنا في محيط المنزل، وقطفت إلينور حفنة من الزهور فحملتها إلى صدرها.

ثم سألت، «هل أبدو عروسا؟»

فقالت آن، «أجمل عروس رأيتها في حياتي!»

تقافزتا في تنورتيهما، ودارتا حول أنفسيهما مرات ومرات، غير أنَّ آن توقفت عندما رأتني، لأنني لم أكن أضحك أو أجاريهما في اللهو.

وقالت آن، «فليتوود، إنكِ مُتغيِّرة، أتدرين. لا يسعني التفكير في السبب بالضبط؛ لكن شيئا ما فيكِ صار أكثر... شيء.»

«فصيحة كعهدكِ، يا آن.» شخرت إلينور كخنزير.

سألتُ، «من أي جهة؟»

«كنتِ دائما كئيبة جدا، حقا. لكن يبدو لي الآن أنكِ... تتحكمين أكثر في الأمر.»

«كئيبة؟»

«أجل، واجمة قليلا وحزينة. لكنكِ الآن تبدين مختلفة، أنضج بصورة ما... عارفة أكثر.»

تمتمت، «ليتني لم أكن عارفة. كنتُ أفضِّل ألا أعرف.»

نظرت إليَّ إلينور بدون فهم.

«تعرفين ماذا؟»

ساد السكون من حولنا؛ إذ خمدت الرياح لوهلة. شعرتُ بدوار من أثر الساك وضوء الشمس الساطع والتلال الخضراء تتعرج من حولنا.

«عن شقيقك،» قلتها، بوجه بريء. وكانت آن قد توقفت بدورها وكلتاهما تنظران إليّ بغباء. «وعن عشيقته. عن الطفل الذي في بطنها. لم تعلما؟»

هوت الباقة الجميلة من يدي إلينور، متناثرة على الطريق. وصار وجهاهما قناعان موحدان من الصدمة.

«لا بد أنكِ تمزحين.»

«رأيتها بعيني. إنها في بارتون، في منزل والدي. هناك يحتفظ بها.»

انطلق سرب من الطيور من مجموعة أشجار قريبة، تشق أجنحتهم الهواء من فوقنا. لقد نثرتُ البذور، وسوف تنمو الآن شئتُ أم أبيت.

سألت آن وصوتها يرتجف قليلا، «أنتِ واثقة من هذا؟»

«واثقة جدا.» ازدردتُ لعابي.

«ولكن لم يمضِ على زواجكما سوى...»

«أربعة أعوام.»

كنتُ بذلك الوقت في السابعة عشرة من عمري، لكني بكل ما مررت به، شعرتُ بأن عمري ضعف أو ثلاثة أضعاف ذلك. كان زوجي قد اتخذ عشيقة بالفعل، مع أني لم أكن شيخة عجوزا، بشعر أشيب وتجاعيد حول عيني. اشتهبتُ في أنني أصغر حتى منها، لكنني كلما فكرتُ فيها لم تزد إلا جمالا. أصبح الطفل الذي رغبتُ في إهدائه لريتشارد سلعة أغلى بكثير الآن: لأنه يؤمِّن مكاني في البيت، وفي الأسرة. بدونه، لن أكون أكثر من حلية، زوجة بالاسم فقط. عرفتُ هذا الآن. إذا مات هذا الطفل في داخلي كسابقيه، فلا أستبعد أن أبقى في منزل أمي أبدا، لأنني سأصبح أقل من عقيمة. تلك الفكرة زرعت بذرة خوف صلبة في معدتي. كان عليَّ

إنجاب ابن ريتشارد لتأمين مستقبلي، لأنه إن مات، فربما أموت معه أيضا.

مشينا دورتين أخرتين حول الحديقة في صمت متلبد، وآن وإليانور تلقيان بتعليقات قصيرة مُرتبكة حول الطقس العاصف، وكيف أن ويستمورلاند متخلفة جدا عن يوركشاير في أزيائها، وهل أمرت إحدى نساء بيلينجهام بصنع أي فستان جديد في السنوات الخمس الماضية؟

لم تطيلا البقاء، وقالتا إنهما لن تنتظرا عودة والدتي، بل ستذهبا لاصطحاب وكيلهما من خان القرية ويبدؤوا رحلة العودة إلى يوركشاير. ولكن في طريقنا إلى الاسطبلات، مررنا بباب المطبخ في مؤخرة المنزل، وإذ فجأة هو يُفتح وخلفه وقفت آليس.

فغر فاها من المفاجأة، وكانت على ذراعها سلة، وعلى ملابسها مئزر قديم. تبادلنا التحديق مدة طويلة، ولاحظت آن وإلينور أن شيئا غريبا بيننا، حيث في العادة يمر الخدم مر الكرام.

سألت آن، «من هي؟»

لعقتُ شفتي.

«لا أحد. آليس، ادخلي. «

منحتها ابتسامة مقتضبة، وتحركتُ لمتابعة طريقنا. إلا أنها عندما لم تتحرك، أدركتُ ما تفوهتُ به. شعرتُ وكأني فوتُّ درجة سلم، ومادت الأرض من تحتي، ثم عادت إلى استوائها. بعد برهة، تراجعت آليس، وأغلقت باب المطبخ.

نما الخوف في بطني، متلويا وزاحفا مثل ثعبان بحر، ولم أجرؤ على النظر إلى آن أو إلينور، لأنني لم أعرف كم من كثير أو قليل يعلمان. ولكن ما كنتُ متأكدة منه هو ضرورة التصرف وكأن شيئا لم يحدث، وآليس لم تكن شخصا مهما.

قلتُ بضعف، «أتعلمان، شعرتُ فجأة بالتعب. هلا جلبنا جواديكما؟ أظنني بحاجة إلى الاضطجاع.»

وحالما ألقيتا تحية وداعهما المتعجلة وسلكتا طريق المنحدر كثير الرياح، عدتُ إلى غرفة الضيوف، وهناك أفرغتُ في جوفي ما تبقى من الساك. لقد اتخذت الأمور منحى غاية في السوء، ولا أعرف تحديدا إلى أي مدى. كنتُ حمقاء في إخبارهم عن ريتشارد؛ فلن يفيد ذلك موقفي، بل سيثير كل غضبه. والإفصاح عن اسم آليس هكذا... لا يُعقل بدون شك أنهما تعرفان أنها نفس آليس جراي، المُدرج اسمها في قائمة بالمقاطعة المجاورة، والتي ربما تكون مطلوبة للتحقيق. أليس كذلك؟

وحين جاء الوقت الذي صعدتُ فيه إلى مخدعي، كنتُ ثملة ولم يأتِ الظهر بعد. لم يكن لآليس أثر في أي مكان، لذا جلستُ على طرف الفراش وطرحتُ نعلي. لا بد أن شقيقتا ريتشارد ووالدته -ما لم تكن تعرف بالفعل- ستحادثنه بخصوص جوديث، ولربما يصبح حتى أكثر غضبا عليَّ. سوف أصبح على الأرجح حديث يوركشاير ولانكشر أيضا، ويتردد اسمي في الردهات الرئيسية وغرف المائدة. حسنا، كنتُ أكثر غضبا عليه من نفسي.

كان كل هذا ذنبه، وذنب أمي أيضا، وقد عرفتُ ما فعلته بشأن جوديث وإخفاء الأمر عني، وضغطها عليَّ لإنجاب طفل، وكأنني لم أرغب في ذلك، وكأنني لم أعرف كم هو مهم. لطالما اعتقدتُ أنني أخذل الجميع بفشلي، لكنني إذ اضجعتُ على الفراش والضوء الدافئ يتدفق إلى داخل الغرفة، أدركتُ أنهم أيضا خذلوني.

ليس جميعهم.

لا بد أنني غفوتُ لأنني شعرتُ بشيء مبلل يُوضع على وجهي. وعندما فتحتُ عيني، كانت آليس تطل فوقي بوعاء وخرقة.

قالت، «خلتُكِ أصبتِ بالحمى.»

كان لساني جافا وشعور الدوار السابق مازال يلازمني. وتجمَّع عرق عند إبطي.

قلت، «شربت الكثير من الساك.»

كان الطفل بداخلي ساكنا، قد هدَّأه النبيذ الحلو. ترددت كلمات شقيقتي ريتشارد في أذني: الكثير يحدث في لانكستر.

«أشعر بالقلق،» قلتها وأنا أجلس في فراشي.

التقى حاجباها في عبوس بسيط، ولاح اضطراب في عينيها.

«بسبب ما حدث سابقا، في الحديقة؟»

«أجل. لقد قلتُ اسمكِ. أنا آسفة. لا أعرف هل يعرفون أم لا... لا أعرف حتى ما يعرفونه. أو ما يقلقني أكثر، من سيخبرون.»

«ولكن لا شيء يخبرون به. لن يظنوا شيئا في حديثكِ إلى خادم.»

«هذا لو أنهم لا يعرفون من أنتِ. آه، لماذا لم أتذكر جيل؟ ليت بوسعي خياطة فمي.»

حرَّكت الخرقة في الوعاء، وكان تعبيرها مُقلقا.

قلتُ، «آليس. سوف تعود أمي في أية لحظة، لذا يجب أن أسألكِ هذا الآن. أريدكِ أن تخبريني بما كنتِ تفعلينه مع إليزابيث ديفيس في ذلك اليوم بالغابة.»

توقفت يدها فوق الماء، وأصابعها تتهادى بخفة على سطحه. إلى جانب رائحة الخزامى المعتادة، كانت تفوح منها أيضا رائحة أرضية، رائحة الطين والنباتات التي تتغذى وتنمو.

«لم أكن لأسأل لولا أني أظن الأمر مهما.»

بعد صمت قصير، مضت إلى الصوان ووضعت الوعاء فوقه. ثم تنهدت وهي توليني ظهرها.

«هل تذكرين عندما جلسنا في صالونك وسألتني أين أعمل، وأخبرتكِ أني أعمل في حانة هاند آند شتل؟ وسألتني متى بدأتُ العملَ هناك فأجبتُ ليس من وقت طويل؟»

«نعم.»

«كنتُ قد بدأت منذ أسبوع تقريبا.»

انتظرتُ، مُنقطعة الأنفاس.

«وهل تذكرين عندما ضبطتني مع الأرانب في أول لقاء لنا؟»

«نعم.»

«كنتُ تائهة في الحقيقة. كنت قد بدأت العمل في الحانة لتوي وأبحث عن الطريق.»

لم تنظر نحوي، وراقبتُ عنقها الطويل وظهرها النحيل، إذ تحدثت، ووجهها مازال إلى الحائط.

«كنتُ قبلها أعمل في حانة بكولن. وذات صباح كنتُ في طريقي إلى العمل فصادفتُ رجلا مُلقى على الأرض. كان ذلك الطريق هادئا ولا أحد في الأرجاء. كان الرجل بائعا متجولا. وتقاطرت بضاعته بأكملها خلفه، دبابيس وإبر وأقمشة، وكأنه كان يترنح وسقطوا عنه. ظننته فارق الحياة، لكنه كان حيًّا، يتمتم ويغمغم. تداعى جانب من وجهه، وعجز عن فتح عينه. سبق لي أن رأيت ذلك مع أمي.»

ضاقت أنفاسي. كان الهواء في الغرفة خانقا وحاولت ازدراد لعابي ولكن كتلة كانت في حلقومي.

«أخذته إلى الخان وساعدني صاحبه في الصعود به إلى إحدى الغرف واستدعى حكيما. ظل الرجل يتمتم حول كلب أسود وفتاة قابلهما في الطريق، لكن كلامه كان مُبهما ولم نفهم ما أراده. ثم لاحقا من تلك الليلة وصلت فتاة.»

وضعت آليس كلتي يديها على الصوان، وكأنما لتثبت نفسها.

«كانت في حال مريعة، تبكي وتتوسل المغفرة. لم أفهم ما عنته حتى تكلمت عن لعن بائع متجول في نفس ذلك اليوم. كانت قذرة، وكأنها قضت اليوم كله تتسكّع في المطر. طلبتُ منها أن تدخل وتجفف ملابسها، لكن المالك رفض بالقطع، قائلا إنها متسولة وأنه لا يسمح

لأمثالها بالدخول. وأمرها بالابتعاد عن المكان. قبل أن ترحل، أخبرتني أن اسمها أليزون وأنها ستعود في الغد لتفقُّد الرجل.»

«أليزون ديفيس،» هكذا همستُ. «وهل فعلت؟»

أومأت آليس، وهي توليني ظهرها بعد.

«واليوم الذي بعده، وبعد بعده. لكن صاحب الخان بيتر رفض السماح لها بالدخول؛ قائلا إنها مصدر إزعاج. وكان الرجل قد أفاق بذلك الوقت، واستطعت تمييز أن اسمه جون. جلستُ معه، فناولته جعة وطعاما ومسحتُ فمه عندما تهدَّل. كان وجهه ما يزال مرتخيا، وكأنما جانب واحد فقط منه يعمل. لا أعرف هل سيعود إلى طبيعته مرة أخرى أم لا. استعاد بعضا من قدرته على الكلام فأخبرنا باسم ابنه وطلب أن نكاتبه، لذا أرسل بيتر رجلا.

«وفي يوم كنتُ أجلس معه بمفردنا وعادت الفتاة في ذلك الصباح كالمعتاد، فوقفت في الباحة تشدُّ على يديها وتبكي وتطلب مقابلته. كانت مُنفعلة، وظلت تقول إن كل هذا ذنبها. قررتُ إخباره بأنها جاءت تطلب الغفران، وسألته إن كان يريد مني السماح لها بالدخول، فأومأ بالموافقة.

«كان بيتر غائبا لذا كان عليَّ الاهتمام بالزبائن. فنزلتُ وأخبرتها أن تعجِّل. بقيتُ في الطابق الأرضي. لم يمض وقتٌ طويل على صعودها حتى عادت راكضة، فصعدتُ لأرى جون. كان في حالة مريعة، مُنتحبا ومرتجفا ومُشيرا إلى الباب. وظل يكرر: «إنها ساحرة».»

وعند ذلك، سارت آليس إلى النافذة ونظرت خارجها. انساب صوت المستنقعات عبر الزجاج: رياح وحيدة تئن عند الإطار.

سألتُ، «ثم ماذا حدث؟»

«أخبرني أنه كان برفقتها كلب أسود، نفس الكلب الذي كان معها على الطريق. لكنني لم أر معها كلبا، لم أفهم عمَّ يتحدث أو هل كان يحلم. ثم ظهر شخص آخر: جدة الفتاة. لقد نشرت البرد في المكان كله، لقد فعلت. الجميع شعر بها تدخل المكان. الجميع عرف من تكون.»

«ومن كانت؟»

«يدعونها دِمدايك. إنها في عزلة معظم الوقت لكن أهل المنطقة يعرفونها. رأيتها من قبل في الجوار، وسمعت ما قاله الناس عنها.»

«وماذا قالوا؟»

«إنها غريبة الأطوار، ساحرة، إنها كذا وكذا. تجنبيها، هكذا كانوا يقولون. ولكنها لم تأتِ لمقابلة جون لو. بل لمقابلتي.»

«ولكن لماذا؟»

«لابد أن أليزون أخبرتها أنني وجدتُ جون وأعتني به. حينها بدأت تهددني. أخبرتني أنها سوف تلعنني إن لم أكذب لصالح أليزون. أرادت مني أن أقول إنني لم أرها من قبل، وإن الرجل العجوز قد اختلق كل شيء، وإنه كان مخبولا ولا يفهم ما يجري.

«لكن بيتر كان قد أرسل بالفعل إلى ابن جون، الذي

ما لبث أن وصل، من هاليفاكس أو شيء من هذا القبيل. فأخبره جون أنه قد غفر لأليزون، وأنه رجل تقي يؤمن بالرحمة وأن هذا ما يريد منه الرب أن يفعله. إنه رجل طيب، جون لو. لكن ابنه إبراهام لم ينصت إليه. فأرسل إلى أليزون واستجوبها. جاءت دِمدايك بصحبتها وأظن كلتاهما أرسلت الرجفة في أوصاله. أنكرت دِمدايك كل شيء، وهي تصرخ وتطلق اللعنات في كل اتجاه، وكانت أليزون تبكي. وقفتُ أنا هناك، لا أعرف ماذا أفعل. والتفت الابن نحوي وقال: «هل رأيتِ هاتين المرأتين هنا من قبل؟ هل لعنت هذه الفتاة أبي؟»

«انعقد لساني، وكان جون يطلق صراخا حادا في الركن. واحتقن وجه ابنه إبراهام وبدا وكأنه على وشك أن يقتل أحدا، وكنتُ مرعوبة. فقلت نعم، رأيتهم.

«حاول دفعهم إلى إبطال اللعنة لكن أليزون لم تقدر، وقالت دِمدايك إن وحده الشخص الذي ألقاها هو من يستطيع إبطالها. فقُضي الأمر، وأرسل إبراهام في طلب العمدة، وأمرني بيتر بالرحيل جرَّاء كل المشاكل التي سببتها.» كان صوتها متحشرجا. «عملتُ هناك قرابة عشرة أعوام. كان يعلم أنني عاملة مُجتهدة، فأوجد لي عملا في حانة هاند آند شتل. صاحبها يكون صهره.»

كان ذهني خاويا. وأفكاري مُتجمدة. حدقتُ في قدمي بالجوربين، صغيرتين ورهيفتين في الحرير الأبيض. كفَّت آليس عن الكلام، وساد الصمت بيننا لمدة طويلة، حتى راودني خاطر.

«ولكن ما علاقة ذلك بإليزابيث ديفيس؟ ماذا كنتِ تفعلين معها في ذلك اليوم؟»

«لقد جاءت إلى حانة هاند آند شتل ذات ليلة. اكتشفت بصورة ما أنني أعمل هناك، لا أعرف كيف. كانت أليزون وجدتها قد وُضعتا في الحبس. عندما جاءت للقائي، رمقها الزبائن بنظرات مُستهزئة. حسنا، تُدركين السبب. خشيتُ أن أفقد عملي هناك أيضا، لذا أخبرتها أن عليها الرحيل. طلبت مني المجيء إلى منزلها في تلك الجمعة، وقالت إنها سوف تستضيف بعض الجيران لمناقشة ما يمكن فعله لمساعدة من وقعوا في الحبس. قالت إن عليَّ المساعدة، أنني كنت...» ارتجف صوتها. «قالت إنني كنتُ السبب في الزجِّ بابنتها وأمها في الزنزانة.»

حرَّكتُ رأسي في صدمة. «ولكنكِ كنتِ تحاولين المساعدة فحسب.»

«كانت يائسة... غاضبة. رأيتُ بوضوح أن كل ما أرادته هو أن تفعل شيئا. وأردتُ المساعدة. وكالغبية ذهبتُ. كنتُ مضطرة لفعل أي شيء يوقفهم عن المجيء إلى مكان عملي وتوريطي في المشاكل. وحتى بعدها، بعد أن ذهبت إلى برج مالكن، وجدتها تنتظرني قرب منزلكِ في الغابة. لا أستطيع الفكاك منهم.»

كان في صوتها خوف حقيقي، تذكرتُ نشيجها في النوم.

«ولكن ماذا حدث في برج مالكن؟ فيم تحدثوا؟»

هزَّت آليس كتفيها. «تناولنا وجبة طعام وتناقشوا وسيلة لمساعدة أليزون ودِمدايك. كان مجرد اجتماع

لأفراد يعرفون العائلة، جيران ومن شابه. فيما عداي وشخص آخر.»

«من كان؟»

وعند هذا، أحنت آليس رأسها.

«كاثرين صديقة أمي. مولدهيلز.»

«لماذا ذهبت؟»

«كانت معي عندما...»

انتفضت كلتانا عندما انفتح الباب فجأة واندفعت منه والدتي، وجهها صارم بعدم رضا.

قالت مُحتجة، «ألم تفكري في إرسال أحد إلى القرية لإحضاري؟»

اعتدلتُ أكثر في جلستي وحدَّقتُ فيها بغضب، مُستاءة من المقاطعة.

«لم تمكث شقيقتا ريتشارد طويلا. كانتا في طريق عودتهما من كيندال إلى فورسيت.»

«كيف عرفتا أنكِ هنا؟»

«إحدى الخادمات هنا هي قريبة لخادمة في المنزل الذي كانتا تقيمان فيه.»

كانت في عينيها السوداوين نظرة ثاقبة.

«ماذا أخبرتهما؟»

«لا شيء،» قلتُ كذبا.

ألمح الصمت الذي أعقب ذلك أنها لم تصدق حرفا.

«سيوضع العشاء عما قليل،» كان كل ما قالته، ثم انصرفت تاركة الباب مفتوحا خلفها.

قمتُ لإغلاقه بهدوء، ثم عدتُ بخطى متسللة في اتجاه آليس. كانت كل الأسئلة التي لاح لي سؤالها قد نضجت، وتدلت وارفة في الغرفة. كان بوسعي مد يدي في أي مكان وقطف أحدها بسهولة، لكنني اخترت أول سؤال خطر لي، من آخر شيء قالته.

«آليس، قلتِ إن مولدهيلز كانت معكِ عندما... عندما ماذا؟»

لزمت آليس صمتها الآن، وخارج النافذة هبَّت الرياح من المستنقعات، فكان وقعها كصوت طفل يبكي. غطت وجهها بيديها.

«آليس! ما الخطب؟»

همست، «لا أستطيع التحدث عن الأمر. لا أحتمل.»

«أيا كان الأمر، فلا يمكن أن يكون بهذا السوء.»

لكنها امتنعت عن إخباري، وأمكنني الشعور بموجات من ضيق أمي تتكسر على الباب. كان آخر ما ينقصني هو يوم آخر من العراك. شعرتُ بالهمِّ يثقلني وأنا أهبط إلى الطابق السفلي لتناول العشاء، وكأن شيئا آخر دون الرياح كان يطبق على النوافذ، راغبا في الدخول.

الفصل الرابع عشر

في تلك الليلة أتاني الكابوس. استيقظتُ، وقد شل الخوف جسدي، على شمعة إلى جانبي، ووجه مألوف ولكن مذعور خلفها. كانت ساقاي ملتحمتان بأغطية الفراش وجسدي غارقا في العرق. كنتُ في غاية الخوف حتى ظننتُ قلبي سيثب من صدري، وظلت آليس إلى جانبي إلى أن هدأت أنفاسي وصارت الظلال في ركن الغرفة أقل رهبة. أملتُ أني لم أصرخ في نومي، لكن الذعر في عيني آليس وانقباض في فكها رجَّحا أني فعلت.

«أنتِ بخير الآن،» هكذا همست آليس. «هل كانت الخنازير؟»

أومأت بنعم وشهقتُ، وعادني من جديد ذلك الشعور بالفزع، فتفقدتُ ما بين ساقي بحثا عن خيط دم، إلا أنهما كانا جافَّيْن. في نهاية الأمر عادت آليس إلى فراشها، وانتظمت أنفاسها أيضا. مضى علينا شهر في منزل أمي، وطيلة ذلك الوقت كنتُ حرَّة من الكابوس.

منذ الفطور إيَّاه، لم تعد أمي إلى ذكر أمر عودتي إلى جوثورب، ولا أنا أيضا فعلتُ، ولكن كان من الواجب أن أعرفها أكثر من ذلك. ربما لو كان تمثال الحكمة معي في مخدعي،

لتذكرتُ ممارستها بين الحين والآخر، لكن صديقتي القديمة ظلت على بعد أميال في غرفتي بجوثورب.

كنتُ أجلس في المطبخ مع السيدة نيف، وآكل البسكويت سُخنا من الفرن عندما أقبلت السيدة أنبريك لتخبرني أن شخصا جاء لزيارتي. كنتُ أعرف منذ اللحظة التي استيقظتُ فيها: تغيُّر في الجو، إحساس متقلقل من عدم الارتياح في بطني. كان فترة استراحتي تقترب من نهايتها.

«من يكون؟»

لم يكن للسؤال حاجة. حيث برزت تنورة أمي السوداء تسبقها إلى المطبخ، ملساء كجلد سمكة تنساب في بركة. وكان وجهها مُصمِّما.

قالت، «فليتوود، تعالي من المطبخ الآن.»

ثار الخوف في بطني، فسمَّرني إلى الكرسي.

أحنت السيدة نيف رأسها، ويداها المكتنزتان تمسِّدان مئزرها بإحراج. رمقتُ أمي بنظرة وضعتُ فيها كل م أمكنني استحضاره من الغض ونهضتُ، فتجاوزتها وأنا أتذكر كيف فضَّت خطاب ريتشارد ثم احتفظت بفحواه لنفسها. لم يخطر لي سؤالها عما قاله، وظل خطابه على حاله فوق المكتب في مخدعي.

«لا يمكنكِ تجنبه إلى الأبد، يا فليتوود.»

رنَّ صوتها خلفي في الردهة فيما ذهبتُ للانتظار في غرفة الاستقبال. كنتُ قد قررت ألا أوجه لها خطابا مرة أخرى.

جلستُ وأنا أرتجف، مع أن الغرفة، بنافذتها العالية والضيقة، كانت مغلقة وخانقة. تطاير الغبار من حولي في حزم الضوء الضعيفة، واستقرَّت رقعة شطرنج على منضدة قرب مقعدي. كانت والدتي تلعب الشطرنج مع مدبرة المنزل أحيانا ومع نفسها أحيانا. كان ذلك أمرا اعتادت أن تفعله، غير أني أدركت لأول مرة كم هو مثير للشفقة، أن تجلس وحدها في هذه الغرفة فيما أنا بالأعلى. حسنا، كان بوسعها أن تسألني إن كنتُ أريد اللعب؛ لأنني لا آسف على امرأة اختارت في أغلب الوقت أن تكون في عزلة. شددتُ ردائي الذي بلا كمَّيْن حول بطني، ووضعتُ يدي في حجري وانتظرت.

دخل پاك أولا، فأخرج لسانه مُرحبا برؤيتي وأقبل يجلس إلى جواري. ثم دخلت أمي، يُطقطق خفاها الخشبيان على البلاطات، ومن ورائها خطى أعمق وأثقل لبوطين مصنوعين من جلد العجل الناعم وتلك الصلصلة المألوفة لقطع النقود.

«فليتوود.»

جاءني صوته تزامنا مع ظهوره. اجتذب قرطاه الضوء ولمعت عيناه الرماديتان الصافيتان. نظر إلى وجهي أولا، ثم إلى بطني.

مازلتِ حُبلى، هكذا سمعته يفكر.

كنتُ قد نسيت كيف يمكن للمرء أن يتبادل حديثا صامتا عندما يكون متزوجا، عندما يعرف ملمس شخص ويستطيع تمييزه في غرفة مظلمة. لماذا لا يسري الأمر

على ما يدور في تفكيره أيضا؟ نقلت أمي عينان لا تطرفان من أحدنا إلى الآخر.

قال ريتشارد، «تبدين على ما يرام.»

لم أقل شيئا.

فتكلمت والدتي، «فليتوود؟»

«يمكنكِ الانصراف،» قلتها ببرود.

نظرت باستجداء إلى ريتشارد، لكن عينيه الرماديتين ظلتا مثبَّتتين على عيني السوداوين وكأنني قد أختفي في أية لحظة.

أغلقتِ الباب. لم أسمع خفَّيها الخشبيين في الردهة، لذا بعد بضع لحظات قلتُ، «أمي» فتناهت الطقطقة تعلن انصرافها.

اتخذ ريتشارد مجلسه في المقعد المواجه، وأمام اندهاشنا، أطلق پاك زمجرة خفيضة ثم نبح.

«أقلَّبتِ الكلب أيضا عليَّ؟» قالها ريتشارد بنبرة مازحة، إلا أنَّ عينَيه أظهرتا حزنا.

«إنه يملك عقلا يخصه.»

ازدرد ريتشارد لعابه وخلع قبعته القطيفة السوداء، ومدَّها إلى پاك ليشمها كإشارة إلى السلام.

«أتذكرني، يا فتى؟» شعرتُ بخيانة مضاعفة عندما ذهب إليه پاك، فأقحم أنفه في يده وكشرت أنيابه عن ابتسامة عريضة. «مرحى لك،» قالها ريتشارد بنعومة، وهو يمسِّده في كل مكان ويربت عليه بطريقته الخشنة التي اعتادها.

«نسيت كم تستغرق الرحلة طويلا إلى هذه النواحي»، قالها أخيرا وهو يضع قبعته في حجره.

«لا يزعجك هذا عندما تخرج في رحلة صيد.»

«لم أقل إنه أزعجني.»

«لم تستغرق رحلتك شهرا إذن.»

تفاجئ كلانا بجرأتي. فتح ريتشارد فمه ثم أغلقه مرة أخرى، وهو يغيِّر وضعية جلوسه.

«كلا. كان عليَّ الاعتناء ببعض الأعمال.»

«أكان لذلك الأولوية على زوجتك؟ كيف استطعت أن تفعل ذلك، يا ريتشارد؟»

«أنا آسف. عودي إلى المنزل رجاءً.»

ضغطتُ بيديَّ على عيني وتذكرتُ الأعوام الأربعة الماضية: ركوبنا معا الخيل، وتسوقنا، واضطجاعنا، وضحكنا. بدت تلك الأعوام عمرا كاملا من السعادة.

«لم يعد جوثورب نفسه في غيابك. إنه بيتنا؛ يجب أن نكون فيه معا.»

«أنت لا تكون فيه أبدا!»

«بل أكون فيه. أريد أن أكون فيه، معك.»

«كل هذه الأسرار، يا ريتشارد. والأكاذيب.»

تذكرتُ كلمات آليس: أخاف من الأكاذيب. الآن عرفتُ ما كانت تعنيه: إن الأكاذيب لقادرة على تدمير حيوات ولكنها أيضا قادرة على خلقها، كبطن جوديث التي كانت كبيرة جرَّاء الكذبة التي نسجها ريتشارد.

«أنا سعيدة هنا.»

«سعيدة؟ مع والدتك؟ إنكِ لا تطيقين والدتك.» لم يخفض صوته. «ماذا لديكِ هنا سوى خدم كسالى وغرف رثّة؟»

همستُ، «لو أنها رثة، فذلك لأنك لا تعطي والدتي ما يكفي من المال. الشيء الذي لم يخطر لي قط رؤيته بم أني أجود بقدر كبير منه لهذه العائلة.»

مد يده في جيبه ليخرج حافظته.

«كم من المال تحتاج أكثر؟»

«كم من المال تنفق على عشيقتك؟»

فتح صرة النقود ووضع قطعا نقدية على رف المدفأة، كمن يسدد أجرة إقامتي في خان.

واصلتُ، «إنك تنفق على أربع نساء الآن، أليس كذلك؟ حماتان وزوجتان؟ لا أظنها صدفة أن المستوى هنا قد انحدر بعد أن أضفت أسرة أخرى إلى حظيرتك. هل كنتَ على علم بحياة الفقر التي أبقيتها فيها؟»

«كلا بالطبع. لو أنها بحاجة إلى أي شيء، فليس عليها سوى السؤال. سأعالج الأمر. ربما أدخل جيمس بعض التغييرات لتعويض النقص في الدفاتر التي لم أكن على علم بها.»

«إذن فسوف أسأل جيمس لماذا كان يرسل الصابون المعطر إلى بارتون بينما يصنع خدم والدتي صابونها بأنفسهم.»

تراقصت ابتسامة على ركني فم ريتشارد، وعرفتُ أنه يتلهّى بكوني أدافع عنها. كان صدري يمور بالغضب وانتظرتُ ويداي تقبضان على ذراعي مقعدي. لم يكن

بوسعه استفزازي إلى نسيان أنه استغرق شهرا حتى أتاني.

لابد أنه كان يشعر بالدفء في حلته وصديرته المصنوعتان من القطيفة السوداء الفاخرة، ولاحظتُ التورُّد في خدَّيه، من الحرارة أو الخجل أو الإحباط.

وأخيرا قال، «جئتُ لأعود بكِ إلى المنزل.»

«منذ متى اتخذتها؟»

أرسل زفيرا، كما لو كنتُ أحقق معه.

كان غريبا عليه أن أخالفه. وكان غريبا عليَّ أن أخالفه.

«ليس منذ وقت طويل.»

«منذ متى؟»

«بضعة أشهر؟»

«هي خصبة إذن. مُنِّيت بالنجاح أخيرا: ولود ممتازة. وأنت والد عجل فاخر، والذي يفوق ما تستطيع زوجتك أن تمنحك إياه.»

«لا تكوني مُضحكة. إن البشر ليسوا بقرا.»

«النساء والبقر متشابهان جدا في الواقع.»

«إنكِ سخيفة.»

استوقفت انتباهي رقعة الشطرنج فتناولتُ بيدقا عاجيًا، فرفعته ليقع عليه الضوء. ميَّزت فورا أنه من مجموعة أبي التي كانت في بارتون. أعدته إلى موضعه لأجده أمام الوزير. صدمته بالبيدق، فأرسلتُ القطعة لترتطم بالأرض، حيث تدحرجت على البساط البالي أسفل الطاولة. تخيلتُ أمي على يديها وركبتيها وهي تبحث عنها لاحقا.

قلت، «هل سترسلني إلى حبل المشنقة، مثل الملك؟»

«فليتوود، إنني أهتم لأمرك. هل تظنين أنني أردتُ رؤيتكِ عليلة؟ في كل مرة حملتِ بطفل، كدتِ تلقين حتفكِ، وبسببي تصبحين كذلك. لم يكن في نيتي أن يحدث ذلك- تحوَّلتُ إلى جوديث كوسيلة لمنع حدوثه، لحمايتك.»

«حمايتي؟ احتفاظك بعشيقتك في منزلي كان لحمايتي؟»

«إنكِ تكرهين ذلك المنزل؛ فعرفتُ أنكِ لن تذهبي قط إلى هناك.»

«وكنتَ على حق. إنك تعرفني أكثر من أي شخص آخر، يا ريتشارد. إلا أنك نسيت شيئا واحدا: أنني أعرف القراءة. ظننتَ أنني لن أدخل قط مكتب جيمس وأكتشف كل الخيانات التي ارتُكبت بالحبر. كانت هناك طوال الوقت لأجل أن أراها.»

«ما الذي جعلكِ تنظرين في دفتر الحسابات؟»

بدأ قلبي يدق أسرع.

«أردتُ التحقق من شيء ما.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ماذا؟»

«طلب مفارش. ليس مهما.»

حاولتُ التظاهر بعدم الاكتراث إلا أنه كان صيادا، وقد شمَّ أنفه الرائحة. ضيَّق عينيه.

«من رافقكِ إلى هنا؟»

«لا أحد.»

حدقتُ في عينيه، ولم يعجبه ما رأى، لأنه قال، «لقد تغيرتِ، يا فليتوود.» انتظرتُ، لكنه لم يزد بعدها سوى بنفاد صبر، «ألن يقدموا لنا أية مشروبات؟»

لم أقل شيئا، وأدرتُ وجهي نحو النافذة الرمادية. تململ ريتشارد بضيق في مقعده.

«حضر روجر منذ وقت ليس ببعيد حاملا أمانة من أجلك.» نظرتُ إليه من زاوية عيني. «عُقد الياقوت.»

«العقد المفقود؟»

«وجدته الخادمة أسفل سرير جينيت ديڤيس. إنها مُتحيِّنة للفرص كما اتضح.»

«إنها سارقة. لم تكن ثمة فرصة تتحينها – لم أتركها ثانية.» ثم تذكرتُ نزولي إلى المطبخ لإحضار الفطيرة الباردة التي طلبها روجر، وغاص قلبي. «هل حدث أن غادرت الردهة في أية لحظة؟»

«أفترض أنها لا بد فعلت.»

«وهل اعتذرت للخدم؟»

عبر بصيص من الخجل وجهه، وبينما جلسنا في صمت مُحتقن، انهالت على ذاكرتي بقية أحداث ذلك اليوم – كم من أحداث حصلت.

«وسارة خادمة الغرف، كيف حالها؟»

"لم تتعافى بعد، لكنها تحسَّنت. وصل الطبيب في الوقت المناسب. ما تزال والدتها تعتني بها.»

«هل تنام في مخدعنا؟»

تململ مرة أخرى. «نعم. لقد جئتُ بعربتنا إلى هنا، حتى تعودي بها إلى جوثورب. أمامي عمل مع وكيلي على الحدود، لذا سأذهب إلى كارلايل قبل العودة إلى المنزل. يمكنكِ الانطلاق غدا.»

فكرتُ في آليس، راقدة على فراشها المدولب بالأعلى. فكرتُ فيما قد ينتظرها إن عدنا.

«لا يمكنني العودة.»

بدا أن شيئا ثار داخل ريتشارد، فمطَّ أصابعه، حيث تلألأت خواتمه، ثم ضمَّ قبضتيه.

«بقدر أسفي على الطريقة التي اكتشفتِ فيها ما اكتشفتِ، إلا أن صبري بدأ ينفد. لا رجل سيرغب في زوجة حرون. هناك خط رفيع بين أن يكون المرء متسامحا وبين أن يجعل منه أحد أضحوكة.»

انبثقت الدموع في عينيَّ، حارَّة وغاضبة.

«وأفترض أنك لم تجعلني أضحوكة؟ إنني لا أختلف عن واحد من صقورك الثمينة. تضعني في رسن، ثم بحركة من معصمك أعود إلى ذراعك.»

تحلَّى أخيرا باللباقة ليبدو محزونا. كنتُ أعرف حتى أثناء كلامي، أنني تجاوزتُ حدود اللائق بالمرأة، اللائق بالزوجة. لم أكن أملك وجها جميلا ولا الآداب التي توافقه. لا عجب أنه ترك فراشنا ومعه زواجنا، هكذا فكرتُ ببؤس.

«لقد حان الوقت لتقرِّي في دوركِ الجديد،» كان كل ما قاله.

«كزوجة منبوذة؟»

«كأم.»

«أرغب في البقاء هنا لمزيد من الوقت.»

وعندها، كأنما كانت تنتظر، سمعنا طرقة حادة على الباب ودخلت أمي.

سألها ريتشارد، «هل حزمتِ أغراضها؟»

أومأت إيجابا، ورمقتني بنظرة سريعة.

قلت، «لن أذهب.»

وبرشاقة وحدة سكين في قالب زبدة، شقَّتني كلمات أمي. «لن تبقي هنا وزوجكِ في حاجة إليكِ. حان وقت رحيلك.»

نهضتُ من مقعدي، وأنا أمد قامتي إلى كامل طولها المتوسط، وقلتُ ببرود، «إن كانت هذه رغبتك، فليكن.»

*

رحل ريتشارد قاصدا أقصى الشمال على حصانه، وصعدتُ أنا إلى مخدعي. عندما وصلتُ إلى نهاية السلم، كانت خطة قد تشكَّلت في عقلي، ما لبثتُ أن نقلتها إلى آليس.

«يمكنكِ العودة معي إلى جوثورب، بصفتكِ قابلتي ومرافقتي، وتلك هي الشروط التي سأسامح بها ريتشارد.»

لكن آليس بدت مترددة، وبرمت قلنسوتها بين يديها. كان شعرها كومة من الذهب النافر، ملتويا ومتشابكا مثل لبدة الأسد.

«هل يطلب السماح؟» كان كل ما قالته.

«لقد خانني، يا آليس، عودي معي وسوف أهتم بالأمر. سأحرص على أن يُبرَّأ اسمك – سيكون هذا هو الثمن. وسوف يلبيه ريتشارد. سنعود إلى جوثورب ونطلب تحضير فراش لكِ، وخلال يوم أو يومين سيصل ريتشارد وسأعرض شروطي: أنني لكي أبقى، يجب أن تبقي أيضا. لا يمكنني أن ألد هذا الطفل من دونك.»

كان الشك مرسوما على كل وجهها، ولكني بالرغم من كل شيء، كنتُ أعرف زوجي.

حزمنا أمتعتنا - أو أنني حزمتُ أمتعتي، لأن كل ما ملكته آليس لم يزد عن الثوب الذي ارتدته. لم تملك صندوق أمتعة، ولا خاتم زواج، ولا زوجا يستدعيها إلى المنزل، ولا كنّات يتحفنها بالزيارة. لا طفل في بطنها، لا وريث تنتجه. بوسعها أن تذهب إلى أي مكان وفي أي ساعة، ولو كانت أرادت ذلك، لتركتها تذهب، حتى وأنا أعلم بحاجتي إليها. لكنها صعدت إلى العربة بجواري، تماما كما فعلت عندما جئنا إلى هنا. قررتُ منحها فرسا مرة أخرى عندما نصل إلى المنزل -لا يهم ما حدث مع الفرس الأخرى، فقد علمتُ الآن أنني أثق بها- وبوسعها امتطاؤه لزيارة والدها إن وافق ريتشارد على شروطي، وإخباره أنها وجدت عملا مستقرا. ولكن ما الذي سنجده في العودة يا ترى؟ كانت هذه أول مرة منذ أخبرتني آليس بقصتها، أن فكرتُ في ساحرات پندل وما سيصير في أمرهن. ربما لم يتمكن روجر من بناء دعوى ضد كل من حضر في برج مالكن؛ ربما اكتفى بآل ديڤيس وجيرانهم، وألقى بقائمة نك بانستر في النار.

أمسكتُ ببطني، وإذ تأرجحت العربة على الطريق الوعر ومعها وثب طفلي وتشقلب، عجبتُ كيف لأي أحد أن يعتبر العربات آمن من ركوب الخيل. تهانف پاك عند قدمي، وقد سئم من الحركة المستمرة. أخبرته أننا قريبا نصل إلى المنزل، وسأطلب له حليبا وخبزا، فلعق يدي بلسان مُطمئن.

توقفتُ عن الاهتمام بالطبيعة من حولي بعد بضع

ساعات؛ حيث تكثف اللون الرمادي في السماء، وتساقط المطر خفيفا جدا، فعاد كل شيء مكفهرا. كانت عينا آليس مغلقتين، ورأسها مائلا للوراء على المقعد. تساءلتُ هل هي نائمة حقا، أم يشغلها مثلي ما سوف يحدث عند عودتنا. حتى طفلي، الذي غالبا ما جعل نومي مضطربا، كان ساكنا.

تحوَّل الجزء الأخير من الرحلة إلى سباق مع الظلام الزاحف، ولم يكن حتى حلَّ الظلام أن شعرتُ بالعربة تتباطأ وتنعطف في الممر المؤدي إلى جوثورب. كان للظلام هنا طابع أكثر حلكة، بالغابات كثيفة على كلا الجانبين. طقطقت حوافر الخيول فوق حجر الطريق؛ ما أنبأ بوصولنا إلى الحظيرة ومباني الخدمة. تباطأت العربة بنا حتى توقفت وسمعتُ الحوذي يخبر شخصا في الباحة أنه كُلِّف بإنزالي أمام الباب مباشرة. عند هذه النقطة، وغشاوة النوم على عقلي، كنتُ قد نسيت وجود آليس. مرَّ وقتٌ طويل قضيناه معا حتى نسيت كيف يكون المرء بمفرده. كانت العربة مظلمة جدا فعجزتُ عن تحديد هل استيقظت أم لا، وتلهفتُ إلى سريري. كنتُ سأُحلُّ آليس في الغرفة المجاورة التي كان ريتشارد ينام فيها، حتى تظل قريبة مني. ربما أيضا يصبح هو وآليس صديقين، بعد أن حُلَّ لغز العُقد.

توقفت العربة. أرسلت الخيول زفيرا ونفضت أجسادها. تحرك الحوذي فوقنا، ثم سمعتُ قدميه تضربان الأرض. هممتُ بالنزول أولا، لكن باب العربة انفتح أمامي وكدتُ أسقط خارجه.

كان ريتشارد يقف هناك، قد توارى وجهه في الظل، وقبل أن أتكلم أو حتى أصرخ من المفاجأة، تناول معصمي وساعدني على الترجل من العربة. هبطت قدمي على أرض صلبة، وسمعتُ پاك يقفز إلى الخارج خلفي، ثم حدث أمران في وقت واحد: ترجَّلت آليس من العربة خلفي، ورأيتُ روجر نويل واقفا في نهاية الدَّرج.

لم يتكلم هو أو ريتشارد، ولم أستطع رؤية وجهيهما بوضوح في الظلام. اضطرم القنديلان على جانبي المدخل، فتمايلت يمينا وشمالا. شعرتُ وكأن أحدهم صبَّ ماء باردا على ظهري.

قلتُ، «ريتشارد، ماذا تفعل هنا؟»

كان ما يزال ممسكا بذراعي.

جاء صوت روجر من السلَّم.

«آليس جراي، أنتِ موقوفة بتهمة قتل آن فولدز، ابنة جون فولدز من كولن، بواسطة السحر، وسوف تكونين سجينة لجلالته حتى يحين حسابك.»

وفي ثوانٍ انقضَّ عليها، في حركة سريعة كالظل.

صرختُ، «روجر! ما هذا؟»

لكن ريتشارد أخذ يسحبني فوق الدَّرج إلى داخل المنزل. تملَّصتُ بعنف، محاولة التخلص منه.

«آليس! ما هذا؟ روجر، ريتشارد، أخبراني في الحال. آليس! ابتعد عني!»

دفعته بكل قوتي وتمكنتُ من حلِّ قبضته، ولكن قبل أن

يتأتَّى لي نزول السلَّم ركضا، أمسك بي مرة أخرى، مُثبتا ذراعي خلف ظهري.

«فليتوود!» صرخت بها آليس، التي لم يظهر منها سوى قلنسوتها ووجهها في وهج القنديلين.

كانت كتلة روجر المعتمة تجبرها على العودة إلى العربة. كانت مُرتعبة تنتحب وتختفي أمام عيني، إلا أني ظللتُ أسمعها تدمدم، «لا، لا، لا.»

صهل واحد من الخيول في ذعر، وشدَّ لجامه. ثم وجدتني في المنزل، وريتشارد يغلق الباب، فصرت في الداخل، وهي في الخارج.

الجزء الثالث

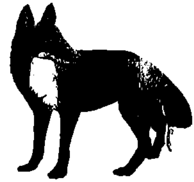

وَإِذَا كَانَ فِي رَجُل أَو امْرَأَة جَانٌّ أَوْ تَابعَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ.
بِالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ.
سفر اللاويين 20:27

الفصل الخامس عشر

ألقاني ريتشارد وكأنني قطعة فحم ملتهبة واختفى في نهاية الممر الذي يفضي إلى البهو الرئيسي. رميتُ بنفسي على الباب وبحثتُ بيديَّ عن المقبض، فجذبته بقوة لأفتح الباب وأرى الجسم المعتم للعربة يتحرك بعيدا، خارج دائرة ضوء القناديل. نزلتُ السلَّم ركضا، فكدتُ أتعثر في صندوقي الذي كان موضوعا في آخره، وأسرعتُ لحاقا بها، وأنا أصرخ باسمها من النافذة، لكن الستارة ظلت مُسدلة.

ناديتُ، «قف! قف!»

ظل الحوذي ينظر أمامه، مُنحنيا فوق اللجام الذي يمسك به. تزايدت المسافة بيننا إذ زادت العربة من سرعتها ورأيتُ الليل وهو يبتلعها بالكامل، وصوت العجلات وحوافر الخيول يخفت شيئا فشيئا. والأشجار تهتز حول الحقول.

وقفتُ طويلا في الظلمة حتى تغلغل البرد في أعمق جزء مني. شعرتُ وكأنَّ جسدي غُطِّس في الماء، وثبِّت في الأرض، وثوبي ثقيل بما يفوق التصور. سمعتُ ولدين يقتربان من المنزل ليحملا صندوقي ويُدخلاه.

لقد سُقتها إلى مركز بيت العنكبوت تماما، حيث كان هو بالانتظار.

وجدتُ ريتشارد في البهو الرئيسي، بانتظاري عند المدفأة الخاوية. كل ما وسعني فعله هو أن حدقتُ به، وقابل هو نظرتي بنفس التعبير.

«لقد خدعتني. كذبتَ عليَّ!»

«وأنتِ خدعتني وكذبتِ عليَّ.»

«وكيف هذا؟»

«أخبرتني أن الفتاة لم تكن معكِ.»

«لقد نصبتَ لنا فخًا – واستدرجتنا لنركبه. كيف أمكنك...»

«إنَّ آليس جراي مطلوبة للعدالة لارتكابها جريمة. لا يهم إن اعتُقلت هنا أو في منزل والدتك.»

«بل يهم. من أخبرك أنها كانت هناك – شقيقتاك؟»

«كلا، بل والدتك. بدون قصد، بالطبع؛ فلا أظنها حتى تخون ابنتها. أرسلت لي تتكلم عن قابلة شابة نشيطة اسمها جيل، أحضرتها معك. أرادت أن تعرف هل السيدة ستاركي هي من رشَّحتها. ربما يحسن بكِ إخفاء آثاركِ في المرة القادمة. ظننتكِ صيادة ماهرة.»

أخذتُ نفسا عميقا، ثم أخرجته، مُحاولة ضبط غضبي.

«لماذا اعتُقلت آليس؟»

«لا أعرف كل التفاصيل.»

«قال روجر إنها قتلت طفلة؟ هذا هراء.»

«تثقين في ذلك، صحيح؟»

«أثق بالطبع. إنها لن تؤذي ذبابة.»

«لن يكون لديها ما تخشاه إذن.»

فقلت، «إن روجر يسعى إلى السلطة. إنه لا يفعل هذا

إلا لاسترضاء الملك وعرض نفسه أمام البلاط وكأنه طاووس ملون. إنه لا يكترث للعواقب، وأن حياة الناس في خطر. كم ساحرة أخرى وجدها في غيابي؟»

«لا أعرف.»

«كم؟»

«عشر تقريبا. لم يجد مشقَّة في الأمر: فهم من يمنحونه الأسماء، لظنِّهم أنهم بهذا يشترون حريتهم. هم من يلقون بالاتهامات، وليس هو.»

«يجب أن نفعل شيئا.»

«لا يجب أن نفعل أي شيء!» زمجر بها ريتشارد. «كفاكِ ما فعلتِ!»

كان مزاجه قد طفح بالغليان. كان أثناء حديثه يذرع المكان أمام المدفأة، فتوقف الآن ورمقني بنظرة ملؤها الغضب. تذكرتُ ذلك اليوم الممطر في نيسان عندما وقفتُ وروجر في شرفة العرض الطويلة. قُبحًا لمن يُضمر شرًّا.

التمستُ كرسيا فأمسكت بظهره، عازفة عن فعل شيء غاية في الألفة كالجلوس.

قلت أخيرا، «لقد تركتني بدون قابلة.»

«هناك الكثيرات غيرها، يا فليتوود. لا أفهم لماذا تمسَّكتِ باستخدام بغيٍّ وضيعة، ربما تكون قتلت طفلا أو لا. هل تلك هي من تريدين أن تولِّد وريثنا؟»

«نعم.»

«سوف نطلب إرسال قابلة أخرى.»

«لا أريد قابلة أخرى.»

«قد تموتين حينها. هل هذا ما تريدينه؟»

«ربما. إن هذا ما تريده أنت.»

«لا تكوني سخيفة.»

أحكمتُ قبضتي على ظهر الكرسي.

«إنَّ آليس لا تُعوَّض. قل لي، يا ريتشارد، لماذا يمكنك الاحتفاظ بامرأة فيما لا يمكنني ذلك؟»

خفق الدم في أذني. واعتصرتُ قبضتي، في رغبة أن يتكسَّر البلوط بين أصابعي. عندما لم يقل شيئا، بوجه مزموم وغاضب، تابعت.

«لقد أنقذت آليس جراي حياتي، لا مرة واحدة بل عدة مرات. عندما أصابتني حكة، جلبت لي أعشابا لأفرك بها جلدي. وعندما داهمني القيء، صنعت لي الأدوية. وظلت إلى جواري في أصعب أوقاتي. لقد زرعت حديقة من أجل صحتي.»

«تبدو لي كساحرة،» قالها ريتشارد بقسوة. «وإلا من أين لها أن تعرف هذه الأشياء؟»

«إنها قابلة، كأمها من قبلها. هل صرت الآن كالملك، ترى كل الحكيمات والفقيرات والقابلات يُجرين عمل الشيطان؟ عجبا، لا بد أنه أكبر مُستخدِم في لانكشر.»

وفجأة شعرتُ أني متعبة جدا، وأُجبرتُ علَى الجلوس. كان ثوبي مغبرا من السفر، وجزء من عقلي ما يزال في العربة مع آليس وروجر، المُرتحلين في الظلام. تألَّم رأسي بكل هذا.

«إلى أين سيأخذها؟»

«ربما ريد هول. أو رأسا إلى لانكستر.»

«لكن المحاكمة لن تُعقد حتى آب.»

سمعتُ حذاءه على بلاط الأرضية، ثم لم أجده إلا وهو يركع إلى جواري، وقرطه الذهبي يسطع في ضوء الشموع.

قال، «انسي آليس. لقد فعلتِ ما يكفي من أجلها.»

«أنساها؟ إنني لم أفعل شيئًا من أجلها! فعمَّ تتحدث؟ كل ما فعلته هو أنني أخذتها مباشرة إلى حبل المشنقة.»

«كانت همِّي الوحيد سلامتك. حالما سمعتُ من كانت آليس، تصرفتُ على الفور، فعلت بالطبع. ما الذي جرى لكِ، يا فليتوود؟ أصبحتِ شخصا مختلفا منذ ظهرت.»

امتلأ صوته بالحقد. مسحت أنفي بكمي. رغبتُ بشدة في الاضطجاع.

قلتُ، «أريد أن أذهب إلى ريد هول.»

«مُحال. لقد تأخر الوقت.»

لمرة أخرى، يُحال بيني وبين ما أريد، مكبَّلة بقيد خفي. كان غريبا: أنني كنتُ أجلس في منزلي مع زوجي وكلبي، لكنني لم أشعر قط بمثل هذه التعاسة. لزمن طويل كنتُ مُكتفية بهم، لكنني شعرتُ الآن وكأني ضيفة في حياتي. نظرتُ حولي إلى النوافذ المظلمة والأطر اللامعة والشرفة حيث كان العازفون والمطربون يؤدون عروضهم في الأيام السعيدة. فوق المدفأة كانت دروع النبالة، بينها درع عائلتي؛ وهناك الباب الزوجي الذي يسمح لشخصين من نفس المكانة أن يدخلا معا. هل كان هذا حقا منزلي؟

ساعدني ريتشارد على النهوض واستندتُ بيد على

رأس پاك لأصعد إلى الطابق العلوي. كان الدَّرج مظلما، وكنتُ بين النوم واليقظة بالفعل.

أمور كثيرة حدثت منذ آخر مرة كنتُ في مخدعي حتى شعرتُ وكأنها غرفة جديدة. حدَّقتُ في السرير الذي وضعتُ تصميمه وأنا عروس شابة واسعة الخيال، بلوحه الأمامي مزخرفا بأقنعة فرسان وتيجان وأفاعي. وفي المنتصف، نُقش شعاران في شعار واحد: الوشائع الثلاث والنجمة رمز شاتلوورث، وستة شحارير رمز فليتوود. رفضتُ استخدام شعار بارتون هنا.

نام ريتشارد بجواري في تلك الليلة، ولم أكترث أكان ذلك من باب التضامن أم الشعور بالذنب. ونام پاك على الأرض عند نهاية السرير، مُصدرًا شخيرا عاليا، ولأول مرة لا يتذمر ريتشارد. حدقتُ في سديل الفراش لوقت طويل، وتسابقت أفكاري من ناحية إلى أخرى داخل رأسي.

كانت آليس متهمة بقتل ابنة رجل اسمه جون. هل ماتت الطفلة بين يديها وهي تولِّدها؟ أم هي حكاية من رحم الانتقام على لسان إليزابيث ديڤيس؟ ربما جون فولدز هو صديق لروجر له ابنة ميتة منذ زمن طويل في مدفن الكنيسة، أثري بعد أن وافق على نشر أكاذيبه.

انتظرتُ أن يأتي النوم، إلا أنه حتى مع اطمئناني من عدم وجود شبح في نهاية السرير، لم يأتِ بسهولة.

*

صباح اليوم التالي، أخذتُ وقتي في التأهب، فاغتسلتُ جيدا بعد سفري الطويل. صبَّنتُ شعري ومشطته، ثم

تركته ينشف على ظهري قبل أن أرتدي ملابسي. شاهدتني برودينثيا ويوستيتا بجمود وأنا أضع عليَّ ثيابي؛ حيث تضاءلت حاجتي إلى خادمة الآن إذ توقفتُ عن ارتداء المشد. تناولتُ من خزانة ملابسي ياقة نظيفة وطوق رأس مزينا باللؤلؤ وثبتُّ كلا منهما في مكانه. وحبكتُ جوربيَّ الحريرين من فوق ركبتي ومن تحتهما، بالرغم من أن بقاءهما في مكانيهما كان يسيرا مع ساقي المتورمتين، وانتعلتُ خفيَّ. وضعتُ مسحة من زيت الورد خلف أذنيَّ وعلى معصميَّ، وفركتُ أسناني بخرقة وبصقتُ في ماء استحمامي الذي فاض بالعرق والدهن والتراب. ثم فتحتُ الباب لپاك حتى يرافقني إلى مائدة الفطور. كنتُ ما أزال متعبة وأشعر بالغثيان جرَّاء الرحلة المرهقة من منزل أمي وكل أحداث ليلة البارحة، وكان كل ما وسعني التفكير فيه هو آليس.

كالعادة، كان طعام باربرا بلا مذاق فأكلتُ دون شهية، وأنا أتذكر الكرز وكعك الزنجبيل وفطائر الزبدة التي كنا نأكلها في منزل أمي. كان كل شيء مملا هنا. وعلى الطرف المقابل من المائدة، تناول ريتشارد طعامه وعلى كتفه شيهانته التركية، وكأنه فارس أسطوري من فرسان المملكة. لو أنه كان يحاول استفزازي بعد أن شبَّهتُ نفسي بطائره، فقد حقق مراده. راقبته، دون أن ألمس طبقي. بدا مُنشرحا ومشغولا، غافلا عن وجودي. ربما اعتاد غيابي، كما اعتدتُ أنا غيابه.

قلَّبتُ ملعقتي في الشوفان وتظاهرت باحتساء جعَّتي.

قلتُ أخيرا، «كنتُ أتمنى ألا تُدخل هذا المخلوق إلى المنزل.»

ومع أني حاولتُ إضفاء القلق على صوتي، إلا أنه خرج حاقدا. رمقني الطائر بعين واحدة كعين أفعى.

«أريدها أن تألفني. إنها تحب أن ترى أين يعيش سيدها - ألا تفعلين؟»

«ماذا لو أفلتت من مقودها وطارت حتى السقف؟»

«علِّمها جيدا تعقب الدم، أو تخرج عن طوعك وتصبح أنت تابعها.» حدقتُ فيه، فابتسم ابتسامة عريضة. «أول قاعدة في تعليم الصقور والشياهين. كل ما تتطلبه استمالتها هو قطعة صغيرة من اللحم.»

«ماذا لو كانت قطعة اللحم تلك هي إصبع خادمة؟»

منحني ريتشارد غمزة؛ وكان في مزاج رائق. حقيقة أنه تمكن من ذلك، رغم كل ما حدث، جعلتني أمقته. لم يكن شخصه ليحتك القانون؛ لم يكن ليقبل أن يزج به عمدة مُحب للسلطة في عربة. راقبته بنظرة ثابتة تحمل كراهية واضحة.

وبعد بضعة دقائق أعلنتُ، «سوف أذهب إلى ريد هول هذا الصباح.»

«لزيارة كاثرين؟»

لعقتُ شفتي الجافتين.

«نعم.»

«لن أرافقكِ. عليَّ إتمام بعض العقود مع جيمس.»

«عقود ماذا؟»

«أعزم شراء أرض تركها أحد المزارعين. أتدرين أن

ابنه قال إنه دفن قطة في جدار منزله وهو يبنيه؟»

«ولم قد يفعل ذلك؟»

نفض منكبيه. «لدرء العين؟ أحيانا ما تكون لأولئك الفلاحين أفعال عجيبة. كانت نافذة زجاجية لتكفي وزيادة.»

أدركتُ أنه كان يمزح وأجبرتُ وجهي على الابتسام. كان قد أوحى لي بفكرة.

مضيتُ بجوادي على مهل إلى ريد، مُستمتعة بالهواء النقي الذي منحني مساحة للتفكير والتخطيط. وفيما أمرُّ بالمساكن القديمة والبيوت الريفية ذاتها على الدروب القديمة ذاتها، رأيتُ وجها تلو وجه، جميعهم يرتدي حياته الشاقة في كل تجعيدة وتغضن. مضى الناس في تثاقل، رؤوسهم مُعممة، وأكتافهم محدودبة في وجه الألم والمرض والحزن. كانت بيوتهم من طين؛ وظهورهم محنيَّة من العمل الشاق. تمنيتُ أنهم يحظون بلحظات من البهجة في حياتهم؛ تمنيتُ أنهم يأكلون الكرز ويشعرون بصلابة الحجر. ليتهم يشيدون مسرحا هنا، وحينها ستنتفي الحاجة لملاحقة الساحرات. ربما أشيِّد أنا واحدا.

كانت السماء غائمة والأرض خضراء، وإن سئم المرء من النظر إلى أحدهما أو الآخر، لا يتبقى له الكثير ليراه على الطريق إلى ريد. بلغتُ المنزل، ولم يكن أحد في الجوار بخلاف صبي يحمل التبن إلى الإسطبل. سلَّمته جوادي وتوجهتُ إلى الباب، فطرقته وانتظرتُ وقتا بدا طويلا قبل أن أطرق مرة أخرى. عندما فُتح الباب، توقعتُ رؤية كاثرين إلا أنني لم أجد أحدا – ثم أدركت

أن الشخص الذي فتحه لم يتجاوز طوله مستوى صدري، وخفضتُ عينيَّ لتلتقي بعينين فاترتين واسعتين.

«جانيت،» قلتها محاولةً إخفاء دهشتي. «جئتُ لمقابلة السيد.»

نظرت لي الفتاة الصغيرة بثبات.

ثم همست، «ليس بالمنزل. لقد رحل.»

كانت بشرتها من الشحوب حتى لكأنها فضيَّة.

انقبضت معدتي.

«رحل إلى أين؟»

«جينيت؟» انبعث النداء من داخل المنزل.

ثم ظهرت كاثرين خلفها. كان وجهها أكثر انقباضا ونحافة من آخر مرة رأيتها فيها.

ازدردتُ لعابي. «مرحبا، يا كاثرين.»

«فليتوود.» ضمَّت على يديها بشدة وتوقفت على بعد أقدام من الباب. «جينيت، ابتعدي عن هناك، حذرتكِ ألا تجيبي الباب. اصعدي إلى الطابق العلوي في الحال.»

ورغم أن كلماتها كانت مُوبِّخة، إلا أن صوتها بدا متوترا. جفلت الطفل مُبتعدة واختفت داخل المنزل.

«كاثرين، هل روجر بالمنزل؟»

«كلا، لقد ذهب إلى لانكستر.»

«مع آليس؟»

«آليس؟»

«آليس، قابلتي، آليس.»

طرفت عينا كاثرين، ويداها البيضاوين متشابكتان بقوة.

«لا أفهم. هلا تفضَّلتِ؟ سأحضر لنا شيئا من النبيذ ...»

«كلا، شكرا لكِ. أريد أن أعرف إن كان روجر قد أخذ آليس إلى لانكستر.»

«لقد خرج ليلة البارحة ولم يعد بعد - أخبرني أن ذاك هو المكان الذي سيقصده.»

إنه لا يضع كل مُعتقليه في منزله مثل صاحب الخان إذن. بل من يبتغي من ورائهم غرضا فقط. تراجعتُ خطوة وتنهدت، وأنا أفكر فيما يجب فعله.

«هل تعرفين رجلا يُدعى جون فولدز؟»

تغضَّن وجهها في حيرة.

«أخشى أنني لا أعرفه. هل يجدر بي؟» نفيتُ بحركة من رأسي. فواصلت كاثرين بدماثة، «قال روجر إنكِ تقيمين في منزل والدتك في كيربي لونسديل لفترة من الوقت. هل كانت ... ممتعة؟»

«للغاية. يجب أن أذهب. المعذرة، يا كاثرين.»

ترنَّحت على باب منزلها كامرأة توشك على السقوط، وكأنها تريد أن تقفز وتأتي معي.

«فليتوود،» نادت، فالتفتُّ. بدت متألمة وكأن ما ستقوله يسبب لها عذابا شديدا. «قال إنه ذاهب مع سجين إلى القلعة. ولم أعرف أنها امرأة حتى رأيتها في العربة. كانت قابلتك؟»

«ومازالت قابلتي. شكرا لكِ، يا كاثرين. لقد ساعدتني.»

«ألا تبقين لتناول العشاء؟ كأس نبيذ، على الأقل.»

رفضتُ بإشارة من رأسي وودعتها، قاصدة الاسطبل

مباشرة، حيث كانت فرسي تشرب من المذود. تريثتُ حتى ارتوت قبل أن أعود أدراجي على نفس الطريق الذي جئتُ منه. ثقل رأسي بمحاولة فهم كل تداعيات هذا الموقف المريع، فكانت رحلة العودة إلى جوثورب أكثر بطئا من سابقتها.

وعندما وصلتُ ترجَّلتُ ووقفت في الباحة بعبوس على وجهي، ويداي تمسكان باللجام بعد. كان في المنزل شيء أحتاجه قبل أن أستأنف طريقي.

كان ريتشارد في البهو الرئيسي مع جيمس، مُحاطان بالأوراق.

فقال، «عدتِ مبكرا. هل كانت كاثرين على ما يرام؟»

«إنها بخير،» قلتها بذهن شارد. «هل رأيت الكلب؟»

فأخبرني ريتشارد أن آخر مرة شاهد فيها پاك كانت في غرفة الضيوف.

أنبأته، «سأخرج لأتمشى على فرسي.»

«ألا بأس في ذلك؟»

«قالت آليس إنه لا بأس، وهي لم تخطئ في أمر وجهتي إليه حتى الآن.» فنظر في عيني. «سأعود خلال بضع ساعات.»

كان وجه ريتشارد ما بين اللهو والانزعاج.

ثم قال لوصيفه، «أتعرف يا جيمس، ربما لم يجانب الملك الصواب في رغبته تضييق الخناق على نساء لانكشر. إنهن متمردات، ألسن كذلك؟»

أحاطت بزوجي هالة من الشر وهو يرمقني بإمعان. وكنتُ

قد رأيت شرارة من ذلك في منزل أمي، لحظة أن اعتزم لأول مرة في زواجنا، ممارسة قوامته على تصرفاتي. وها هو يمرِّن سلطته كعضلة، ويختبر حدودي وحدوده.

أجاب جيمس بجديَّة، «لا أعلم، يا سيدي.»

فسألني، «إنهن جامحات، ألسن كذلك؟»

أجبته بحذر، «وهن أيضا لا يؤذين.»

«ومن الحَكَم؟»

لم يبعد ريتشارد عينيه، فابتسمتُ بارتباك وغادرتُ الغرفة، إلا أنه قبل أن أختفي ناداني مرة أخرى.

«لديَّ عمل في ريبون اليوم وسأبيت ليلتي هناك.»

تسمَّرتُ ويدي على مقبض الباب.

«متى تعود؟»

«غدا ليلا، أو في الصباح الذي يليه. ولكن لا تقلقي - سيكون جيمس هنا ليحرسكِ.»

مضيتُ أبحثُ عن الكلب. وفيما أعبر قاع الدَّرج، شعرتُ بالوجود المادي للوحة أمي أعلى البرج، وكأنها تقف في الشرفة وتطل عليَّ من فوق. ارتجفتُ وخرجتُ إلى الصباح البارد.

الفصل السادس عشر

كان اليوم يوم السوق في باديهام، وعجَّت القرية بالناس والحيوانات وضجَّت بصيحات التجار وأنَّات المواشي. ولجتُ بفرسي ساحة الإسطبل في حانة هاند آند شتل، وأنا لا أكاد أستوعب النظرات الفضولية التي صُوِّبت نحونا پاك وأنا. دخلتُ به وطلبتُ من صبيٍّ صغير في يده خرقة رؤية صاحب الحانة. فاختفي داخل الممر الذي سرتُ فيه من وقت ليس ببعيد، قبل أن تخبرني آليس أن أفتح عيني. الآن أتمنى لو بوسعي إغلاقهما.

ظهر ذات الرجل ذي الوجه الأحمر المتسائل والأسنان المُسوَّسة.

قلتُ بصوت خفيض، «لم أعرِّف نفسي في آخر مرة كنت هنا. أُدعى فليتوود شاتلوورث. وأعيش في قصر جوثورب.»

«أعرف من تكونين،» قالها ولكن دون فظاظة. «أنا وليام توفنيل، صاحب الحانة.»

وحينها لاحظ پاك بجانبي وكاد يقفز رعبا.

«غير مسموح بالكلاب هنا، يا سيدتي. أنا آسف. حتى كلبك.»

أومأتُ، وأنا أختلس النظرات من حولي فألاحظ المدفأة التي اعتادت آليس تنظيفها والطاولات التي اعتادت مسحها.

قلتُ، «لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقة. سؤال واحد فقط. هل سمعتَ من قبل عمَّن يُدعى جون فولدز أو ابنته آن؟»

عاد ينظر إليَّ ببلادة.

«لا أحد بهذا الاسم في باديهام. ولو أنه يملك يدا يرفع بها قدح جعة، لأصبح زبونا هنا.»

«في كولن خان، اسمه كوينز آرمز؟»

«نعم،» قالها بارتياب.

«أفترض أن أجيرتك آليس جراي قد جاءت من هناك طلبا للعمل.»

«أرسلها صهري، أجل. لكنها لم تعد تعمل هنا.»

«ما اسم صهرك؟ هل هو صاحب الخان؟»

«بيتر وارد، يا سيدتي. ونعم هو صاحب الخان. ستجدينه هناك إن كنتِ تنشدينه.»

*

كان خان كوينز آرمز يقع على حدود القرية على بعد بضعة أميال من منبع النهر، وتخيلتُ آليس وهي تسنِّد جون لو الواهن والمذعور على طريق الماشية هنا. كان خانا صغيرا، لا تزيد مساحته عن حانة، بنفس رائحة الجعة العطنة التي فاحت ما إن عبرتُ الباب. كان المكان خاويا، والمقاعد والطاولات قديمة إنما مُتقنة النظافة، وعلى الأرض نشارة خشب حديثة.

تركتُ پاك في الخارج، حيث أوثقتُ لجامه بعمود. وقفت امرأة تحمل مكنسة على باب خلف المَشرب، وتحكي قصة بصوت عالٍ. انتظرتُ أن تنتهي، ويداي مشبوكتان أمامي. أدركت المرأة أن ثمة من يراقبها، وإذ التفتت لتراني، فغر فاها بصورة وقحة.

«هل أساعدك؟»

رمقتني من أعلى لأسفل، وهي تضم عصا المكنسة بين يديها الحمراوين.

«أُدعى فليتوود شاتلوورث. وأنا أبحث عن السيد وارد، صاحب الخان.»

كان بوسعها أن تناديه ببساطة، ولكن المرأة دخلت عبر الباب وسمعتها تهمس. وبعد برهة، ظهر رجل ضخم كالبرميل على رأسه كتلة شعثاء من شعر أبيض. كان من الضخامة حتى شعرتُ بحذاءيه يضربان الأرضية المدكوكة.

«هل أستطيع مساعدتك؟»

«هل أنت السيد وارد، الذي وظَّف آليس جراي؟»

«لو أني أملك في قبعتي ريشة عن كل شخص جاء يسأل عن آليس جراي، لبدوتُ مثل دجاجة. ما الذي فعلته الآن؟»

فاجأني اختياره للكلمات.

«لم تفعل شيئا. تساءلتُ أين يمكنني أن أجد والدها.»

«چو جراي؟ ما غرضكِ منه؟»

«أريد التحدث معه.»

«أكثر ما يقوله لا يستحق الاستماع إليه.» انتظرت.

«إنه يعيش على مسافة نصف ميل من هذا الاتجاه حذو الطريق الذي تمر منه عربات الصوف ثم يمينا، بعد نهاية الأشجار بمسافة قصيرة. ما غرضكِ منه؟»

«ذاك شأني. من أيضا سأل عن آليس؟»

«آه...» ولوَّح بيد كبيرة. «عمدة ما، في الأسبوع الماضي. قلت له، «هل أنت متأكد من أنها الشخص الذي تريد؟» وقبله، لن ترغبي حتى في معرفة ذلك – وحش على هيئة فلاحة بعين تنظر للجنة وعين تنظر للجحيم. وأمها، التي كانت تصرخ كخنزير في مذبح. الرب وحده يعلم ما غرضهما منها.»

«تقصد دمدايك؟ وإليزابيث ديڤيس؟»

«دمدايك، أجل. إنه يعني المرأة الشيطانة، هل كنتِ تعلمين ذلك؟ سُجنت عائلتان من هذه المنطقة بتهمة السحر، هل تصدقين – ديڤيس والعجوز شاتوكس وابنتها. أخبرني أحد الأهالي أنهم جيران ألدَّاء، وكلاهما على تواصل مع الشيطان. وتلك الفتاة التي جاءت منذ بضعة أشهر، لتسأل عن صحة الرجل المسكين الذي لعنته. إلى الجحيم، كلهم. لن أسمح بدخول أمثالهم إلى هنا – سيمتنع الزبائن عن المجيء لو علموا أن الساحرات كنَّ هنا. لهذا كان عليَّ تسريح آليس: لأنهن ما فتئن يسألن عنها. لقد عملت هنا لأعوام. لكنها كانت تخيف الزبائن، البغي القبيحة.»

«فقمت بطردها،» قلتها بجفاء.

«لقد تورطت في الأمر، برضاها أو غصبا عنها.»

«كل ما فعلته هو إحضار ذلك الرجل المسكين إلى هنا.»

«ليتها لم تزعج نفسها. لم يجلب لي سوى الحزن. بعويله ونواحه عن كلاب في غرفته وإبر ولعنات. كان هو من توجب حبسه لكنها ترجَّتني أن أسمح له بالبقاء.»

نظرتُ حولي إلى الطاولات والكراسي الفارغة، والبراميل الممتلئة التي تنتظر حتى تُفرغ في بطون الرجال. كان يملك عمل يديره، وقد يكون فيما قاله بعض الحقيقة، لكنه أخطأ في التخلص من آليس، لأنه بفعلته ورطها في الإثم.

في نهاية الأمر سألت، «هل تعرف جون فولدز؟»

«أنتِ أيضا تريدينه إذن، ها؟ إن حظها سيء مع الرجال، آليس، من بعد والدها العجوز وجون فولدز.»

انتصب الشعر خلف عنقي.

«معذرة؟»

«إنه يأتي إلى هنا، بين الحين والآخر. حسنا، أعني أنه كان كذلك إلى أن... لم يكن منذ فترة. لا أعرف أين هو.»

«إلى أن ماذا؟»

مد بيتر يده ليحك جنب كرشه الكبير.

«ماتت ابنته منذ عهد قريب. كم مرَّ على ذلك الآن، يا ماجي؟ أظنها ستة أشهر أو نحوه.»

«وهو وآليس...»

«حسنا، كانا يتبادلان المغازلة. سبق له أن تزوج - لكن زوجته ماتت. كانت آليس متحفظة، فلم تفصح عن نواياها. لكنهما لم يتزوجا قط. لن تجدي آليس هنا على أي حال، أعتذر عن إحباطك. وإن كنتِ تعتزمين سؤال

والدها، فربما لا يملك ما يقدمه لكِ أيضا. يمكنكِ أن تحاولي في هاند آند شتل، حيث تعمل الآن، في باديهام.»

«كيف يبدو؟» كان فمي جافا.

«جون؟ شعر داكن، طويل. شاب وسيم، إلى أن يتمكن منه الشراب، إيه، يا مارجريت؟ رأيتكِ تنظرين إليه.»

أدارت مارجريت عينيها في محجريهما ولطمت ذراعه.

إذن فالرجل الذي ضايقها في الممر بهاند آند شتل كان جون فولدز. تصور أنَّ آليس قتلت ابنته كان مستحيلا. وهي حبيبته؟ كان له وجه جميل، لكن الكسل والتبديد انبعثا منه كما ينبعث الضوء من الشمس.

شكرتُ بيتر وزوجته بفتور، وقبل أن أذهب لإحضار فرسي، نظرتُ لأعلى إلى النوافذ الصغيرة بالطابق الثاني من الخان. تساءلتُ أيها يا تُرى كان جون لو ينظر منها إلى الخارج وهو على فراش المرض.

كان الطريق خارج الخان يؤدي إلى كولن من جهة ويتخلل الحقول الممتدة وأجمَّات أشجار من الجهة الأخرى. غرَّدت طيور من حولي، فرنَّت الألحان الجماعية البهيجة التي أصدروها جوفاء في أذنيَّ وأنا أبتعد على فرسي رويدا من القرية. كان الطريق موحلا تحت الأقدام، وأقدام فرسي متقلقلة. خفَّ پاك بخطى ثقيلة إلى جواري، وفي الجو الهادئ والصافي تخيلتُ آليس على نفس الطريق، مألوفا لها كما كان جوثورب بالنسبة لي.

لم أعرف إلا القليل جدا عن آليس، في نفس الوقت الذي عرفت فيه الكثير جدا عني. أخبرتني مرة أنها كادت

تتزوج، ولا بد أن ذلك كان من جون. اشتاقت لأمها كثيرا، وقد وجدت توأم روحها في صديقتها القديمة مولدهيلز. لم تتحدث كثيرا عن والدها، ولم يكن حديثها القليل عنه وديًا. عرفتُ كل هذه الأمور الصغيرة، لكنها كانت مثل ضربات فرشاة في أركان لوحة: لكني لم أستطع رؤية اللوحة كاملة.

اخترق الطريق منطقة غابيَّة، بأشجار تتفوق على جوثورب. اقشعرَّ جسدي إذ تخيلتُ جون لو يلتقي أليزون تحت أوراقها الهامسة. حرصتُ على النظر أمامي إلى أن أفسحت الجذوع والأغصان عن الحقول الممتدة من جديد، مُحاولة أثناء ذلك التخلص من الشعور بأن ثمة من يراقبني. وصدق بيتر، حيث طفقت الأرض ترتفع إلى اليمين، وجثم منزل خفيض مظلم على جانب التل. قاد إليه درب موحل، فأدرتُ فرسي جهة الصعود، وناورتُ به أسوأ جزء من المستنقعات. انسلَّ لوهلة خيط دخان رفيع من مدخنة إلى الهواء، فلم تلبث الريح أن فرقته في جميع الاتجاهات. لم يتجاوز ارتفاع المنزل طولي كثيرا، بل حتى أقصر من حجرة المؤونة في منزلي. مبينا من خليط الأغصان والطين وسقفه من القش. لم تكن النوافذ مزججة بل لها مصاريع كانت مفتوحة لتدخل الضوء. أحاط سور قصير بالكوخ، ورقدت أزهار إما ميتة أو في طريقها إلى ذلك في أحواضها. تبدَّت بضعة رؤوس ملونة كالقناديل من بين الحشائش. تذكرتُ حديث آليس عن حديقة الأعشاب الخاصة بوالدتها وفكرتُ أنها لا بد في

الخلف. كان المنزل مكشوفا على جانب التل؛ لذا كان من الصعب حماية المزروعات النامية من الرياح والأمطار الشديدة هنا.

قرعتُ بأناقة على الباب وبعد بضع لحظات فُتح. كان جوزيف جراي أكبر مما توقعت: أكبر من روجر. أو ربما أنه بدا الأمر كذلك لفقره. بظهره المحنيِّ، منح انطباعا بالحركة المستمرة حتى مع سكونه؛ فكان جسده يرتعش وفمه يتحرك بكلام غير مسموع. ومثل آليس، تموَّج شعره بلونه الكريمي حتى كتفيه. كانت عيناه بلون أزرق صاف، وكان نحيفا: تدلت ملابسه فوق جسده وكانت كأنما تحتاج لتركها في القلْي أسبوعا.

قلتُ، «سيد جراي؟ أنا فليت...»

«أعرف من تكونين،» هكذا تمتم. «كانت تعمل لديكِ، أليس كذلك؟ تفضلي. أفترض أن لديكِ ما تخبرينني به.»

كان الجو غاية في الدفء داخل المنزل: حيث اشتعلت النيران بجنون في منتصف الغرفة وكأننا في كانون الأول وليس في تموز. خرج الدخان المتصاعد من فتحة في مركز السقف، وتخيلتُ كم لا بد أن الجو بارد وكثير الرياح مع وجود فتحة على الخارج. انتصب سريران خفيضان على جانبي النار -أحدهما غير مُرتب- وتدلت قطع قماش على الحوائط الترابية التي لم يكن شك في أنها أكثر رطوبة وبرودة من أن يُطاق لمسها. كان الأثاث الوحيد في المكان هو طاولة ومقعدان وصوان. إلى جوار النار على الأرضية المغطاة بالأسل، استقرت بعض أواني

القصدير والمقالي التي بدت وكأنها استُعملت ولم تُغسل. كانت آليس ووالدها إذن يطبخان وينامان ويعيشان في هذا المنزل المليء بالحفر والتي صفرت من خلالها الرياح طوال الوقت.

تكلم جوزيف، «أفترض أنكِ هنا بخصوص الفرس العجوز؟»

فسألت، «الفرس العجوز؟»

«الفرس التي أعطيتها لابنتي آليس. ولكنكِ استعدتها الآن، لذا لا أريد أية مشاكل.»

حدقتُ فيه بلا فهم.

«الفرس التي ضاعت؟»

«أجل.» كان فمه يتحرك حتى وهو لا يتكلم وتساءلتُ هل تُراه يمضغ تبغا. «لقد أعدتُ المال إلى الرجل. وهل كانت ممتنة؟ ولا بمقدار ذرة.»

سار الهوينا إلى سريره وجلس عليه. بقيتُ في مكاني، وأنا أجاهد للتنفس في حرارة النار الخانقة. لعق جوزيف شفتيه والتقط كوزا من الأرض، فعاين محتواه وألقى به في فمه.

ذاك إذن هو ما حدث للحصان الرمادي: لقد باعه والد آليس. وتمكنت هي بطريقة ما من استعادته. شعرتُ فجأة بصدري ثقيلا، ولوهلة شعرتُ بالعاطفة تغمرني. لكنني سوَّيتُ تنورتي واعتدلتُ في وقفتي.

«سيد. جراي، لستُ هنا بخصوص الحصان. لقد استعدته الآن، لذا لا يهم. لقد جئتُ لأن آليس اعتقلها العمدة روجر نويل، الذي يبدو أنه يحمل انطباعا بأنها قتلت طفلة.»

كانت عيناه جامدتين وخاويتين من أي تعبير، مستقرتين على النار، وبعد بضعة ثوانٍ سحبهما نحوي.

قال، «هيه؟»

«سيد. جراي، إن ابنتك في مشكلة هائلة. سوف أبذل كل ما في وسعي لمساعدتها لكني رأيتُ ضرورة أن تعرف بشأن هذه التهم الخطيرة. لقد أُخذت إلى سجن لانكستر حتى موعد المحاكمات في الشهر المقبل، لكن الأمر لن يصل إلى هذا الحد. لن أسمح بذلك. سيد جراي، هل تنصتُ إليَّ؟»

«أراهن أنكِ حتى لا تحتاجين إلى ذاك الحصان، أليس كذلك؟ ما أهمية حصان عجوز لكِ؟ أراهن أنكِ تملكين إسطبلا كاملا منهم مصطفِّين كالجنود، في انتظار استدعائهم.»

ثم أدى تحية فاترة وأمال قدحه القذر مرة أخرى على فمه، والذي بدا فارغا بالرغم من ذلك.

«سيد جراي! هل تنصتُ إليَّ؟ إن ابنتك متهمة بالسحر وهي في السجن. هل تعرف أي شيء عن هذا؟»

تجشأ. «أرى أنها ستلقى نفس نهاية والدتها إذن.»

ثم رسم بأحد أصابعه خطا عبر رقبته.

فغر فاهي.

«هي قد تُشنق، وأنت لا تبالي؟ ألا يهمك مساعدتها؟»

«ما يهمني... هو...» ضاعت منه الكلمات وعاد لخوائه.

«من أين تأتي الجعة التي أشربها؟ إنها ليست منها! أو ذلك الوغد الشحيح بيتر وارد. إنه قريب من هنا، إلا

أن عليَّ الآن الذهاب إلى مكان أبعد لأنه يرفض تقديم الجعة لي. إنني رجل عجوز، يا سيدة ما اسمك.»

كانت الحرارة شديدة، والنار تعمي الأعين، وجوزيف جراي مغيظ وغريب، وشعرتُ أنني لا أستطيع البقاء لثانية واحدة أخرى في زريبته. لكني جئتُ لسبب، وأدين لآليس بكل شيء. نهضتُ ببطء قاصدة السرير غير المرتب في أكثر أركان الغرفة رطوبة. حتى الحظيرة الرئيسية في جوثورب كانت أكثر دفئا وجفافا - لا عجب أنها اقتنعت سريعا بفكرة مرافقتي إلى منزل أمي.

كان يستقر على فراشها شيء ما - ربطة من الخرق، أو ربما كانت شيئا جلبته قطة من الخارج. رفعتُ كتلتها الرطبة الجامدة - والتي لم تكن كائنا حيا، بل صوفا قديما، خيطَ بغرز بدائية. ولأنه صُنع شبيها بالدمى القماشية، بدا في هيئة البشر، محشوا بالشعر، وله رأس وذراعان وساقان. وكانت تلتحم به كتلة غريبة، ورغم الدخان والحرارة الكاسحين، إلا أن البرودة سرت في جلدي عندما أدركتُ أنها جسد طفل مربوط بشعر إلى امرأة. شعر أسود. تذكرتُ الخصلات التي كانت تغطي مخدتي، وكيف اختفت. فاحت رائحة خزامى خفيفة، ثم تلاشت. ودون تفسير، اغرورقت عيناي بالدموع، وأعدتُ الدمية إلى الفراش.

«سيد. جراي، «قلتها وأنا أعود إلى حيث جلس، مُرتجفا ومتمتما. «أخبرتني آليس عن أمها. جيل. « انتظرت جوابا، وثار شيء في عينيه الزرقاوين الخاويتين. «إنها تشتاق

إليها كثيرا، كما لا بد أنك تفعل. لقد سُلب منك بالفعل واحد من عائلتك. ألن تفعل كل ما في وسعك حتى لا يحدث ذلك مع آليس؟ إنها كل ما تبقى من عائلتك.»

انتفض رأسه وكأنما كان يحلم. كان يحدق بوحشية في شيء لم أستطع رؤيته. بمشقة، قرفصتُ على الأرض، وانطوت تنورتي من حولي.

«كانت ابنتك مخلصة جدا لي، وساعدتني كثيرا خلال الأشهر الماضية. أنا آسفة لأنني أخذتها منك،» كذبت. «سوف أساعدها؛ لأنها ساعدتني وحان دوري الآن لرد جميلها.»

كان الدخان يحرق عيني بشدة؛ حتى لربما ظن جوزيف أنني تأثرتُ حدَّ البكاء.

«سيد جراي، «قلت مرة أخرى.

صفت عيناه وعاد إليه تركيزه. تباعدت شفتاه وظننته سيتحدث، لكنه كشف عن كل أسنانه البنية، ولم تمضِ لحظات حتى أدركتُ أنه يضحك.

«إنهم يحرقون الساحرات، أليس كذلك؟» قالها بصوت أجش، مشيرا إلى النار.

«ماذا؟»

نهضتُ، بقلق متزايد.

أشار إلى تنورتي.

«إنهم يحرقون الساحرات!»

كانت ألسنة اللهب تلعق حاشية ثوبي. انطلق پاك ينبح، وأصابني فزع من قوته حتى كاد يعميني. ركضتُ إلى

البـاب ونفضـتُ تنورتـي باسـتماتة فـي الهـواء الطلـق. بـدا أن النـار تتداعـى لكنهـا لـم تخمـد. نظـرتُ حولـي فـي يائـس بحثـا عـن جـرن، أو أي شـيء، فوجـدتُ دلـوا قديمـا أمـام السـور وبـه مـاء مطـر. ومـع پـاك ينبـح ويحـوم حولـي فـي اندفـاع، سـكبتُ كل مـا الدلـو فـوق حافـة ثوبـي، وإذ كوَّنـت الميـاه البنيـة بركـة حـول قدمـي، رأيـتُ أن ألسـنة اللهـب السـاطعة قـد اختفـت.

وفـي الداخـل، كان جوزيـف جـراي يضحـك بعـد. وقفـتُ حيـث أنـا ألهـث، وپـاك يحلق وظهـره لـي كمـن يصـد جيشـا خفيًـا. تجاذبتنـي الريـاح مـن كل ناحيـة وسـحبت مـن ثوبـي المحتـرق خيـوط دخـان داكنـة ورفيعـة. تحـول اللـون الأحمـر القانـي فـي تنورتـي إلـى سـواد وظهـرت فيـه فجـوة مريعـة. لا أعـرف كـم مضـى علـيَّ وأنـا هكـذا، لكـن جوزيـف جـراي لـم يخـرج، واسـتغرقتُ زمنـا لأكـفَّ عـن الارتجـاف بالقـدر الـذي يسـمح لـي باعتـلاء فرسـي. انطلقـتُ فـي خبـب، وپـاك يركـض خلفـي. لـم يكـن بوسـعي أن أمضـي أسـرع لـو كنـتُ أهـرب مـن الشـيطان نفسـه.

*

فـي تلـك الليلـة، شـيء مـا زارنـي فـي مخدعـي حيث كنـتُ أنـام وحـدي. أفقـتُ مـن نومـي لأننـي شـعرتُ بفـراء دافـئ يلمـس يـدي. كان الظـلام حالـكا، ولـم يتنـاه إلـى سـمعي إلا صـوت أنفاسـي. شـعرتُ بثقـل يتحـرك فـوق الفـراش فـي مـكان مـا قـرب قدمـي. خمـدت أنفاسـي فـي حلقـي إذ تحـرك مـرة أخـرى، وكأنـه يبتغـي وضعـا مريحـا. تخيلـتُ جوزيـف

جراي واقفا في مخدعي المظلم وأرنب ميت يتدلى من يده القذرة.

أغمضتُ عينيَّ وأردتُ من قلبي أن يتوقف عن دقِّه العنيف. إنه مجرد حلم. لكني علمتُ أنه لم يكن كذلك.

في الصمت الذي تخلل دقات قلبي، شعرتُ بالثقل يختفي من جانب ساقي، ثم تناهى صوت هو الأنعم والأكثر خفوتا لشيء يهبط على الأرض. كان أكثر خفة من پاك، أكثر صمتا. أبقيتُ يديَّ حيث هما فوق أغطية الفراش؛ كنتُ أكثر خوفا من أن أحركهما. ثم ركل طفلي، وكأنه يقول، أنا أيضا أشعر بذلك.

انتظرت: فإما لا شيء سيحدث وإما سأموت رعبا. كان كل شيء أسودا، إلا أنني رأيتُ شيئا يتحرك باتجاه الباب، ثم اختفى.

في ذلك اليوم، كنتُ قد تسللت إلى المنزل وهرعتُ إلى الطابق العلوي مُلتحفة بعباءتي مثل تاجر في السوق السوداء. وبعد أن أقحمتها في خزانة ملابسي، ذهبتُ إلى مخدعي وصنعتُ ضجَّة تظاهرتُ فيها أن شمعة سقطت وحرقت ثوبي.

«أوه!» بها صرختُ، وإذ سمعتُها كدتُ أصدق نفسي. «أوه، أوه!»

أطفئتُ لهب الشمعة حتى تظل ساخنة ووضعتها على الأرض قرب قدمي.

«ثوبي!» بها صحتُ عندما دخلت واحدة من خادمات الغرف.

أصابها الذعر؛ ربما ظنت أني أسقط حملي. ساعدتني لأجلس، ونفختُ أنا ولهثتُ وتظاهرتُ بالخوف، الذي لم يكن عسيرا: فكل ما كان عليَّ فعله هو تذكر عيني جوزيف جراي الكبيرتين والجامدتين وألسنة النار وهي تنشب مخالبها في ثوبي.

رقدتُ مستيقظة فيما جفَّ وجهي وهدأ قلبي وعاد الطفل الذي بداخلي إلى النوم. فكرتُ في آليس. لم يأتني كابوسي إلا ساعة أن تغمض عيني، أما آليس فكانت تعيش كابوسها. عادت إليَّ كلمات والدها في الظلام: إنهم يحرقون الساحرات، أليس كذلك؟

حاولتُ تخيل آليس وهي طفلة، تكبر في ذلك المنزل المتهالك مع أبيها غريب الأطوار وأمها الطيبة. كنتُ قد قابلتُ الآن شخصين من حياتها، إلا أني لم أكون عنها صورة أوضح، الفتاة التي لم تكن تعرف يوم ميلادها ولا تهجئة اسمها، ولكنها تمتعت بذكاء ذكوري، وعلمت خواص كل شيء ينبت من الأرض، وكان بمقدورها أن تهدئ جوادا ثائرا براحة يدها.

أغمضتُ عينيَّ ودعوتُ الرب أن تكون بأمان.

الفصل السابع عشر

صباح اليوم التالي استيقظتُ في الدقائق التي سبقت شروق الشمس وارتديتُ ملابسي بسرعة في الظلام المُحتضر، آملةً ألا أصادف أي خدم في طريقي. فتحتُ الباب الأمامي وتسللتُ إلى الخارج، وأنا أغلقه برفق خلفي وأضع المفتاح في جيبي. استقبلني صباح الصيف، وكنتُ سأجده بهيًّا في عام آخر، في حياة أخرى. تثاءبتُ وشاهدتُ الأشجار مُستيقظة تصدر حفيفا، ثم ذهبتُ إلى الاسطبلات. كانت الأبقار تخور في الحظيرة الرئيسية، توَّاقة إلى إطعامها، وتتهد النهر خلف المنزل. كان عليَّ السير ببطء أكثر الآن، لذا لاحظتُ هذه الأشياء. كان واحد من عمال الاسطبل يرتدي ملابس العمل، ويحمل في كل يد دلوا، فأرسلته لتسريج جوادي. وعندما عاد، أخبرته أني أملك له رسالة لينقلها.

«أرجو منك أن تذهب وتبحث عن جيمس لاحقا، وأخبره أنني سأغيب عن المنزل طوال اليوم، وعليه ألا يخبر السيد عن ذلك عندما يعود. أخبره أن السيد إن عرف، فسوف ألقي بدفاتره الثمينة في النار وسوف يكون عليه إعادة كتابتها من الذاكرة. هل يمكنك تذكر ذلك؟»

أومأ الصبي، الذي كان اسمه سيمون، والذي يصغرني

على الأرجح بثلاثة أو أربعة أعوام فقط، أومأ بفرح، مُتحمسا لفكرة نقل تهديد لرئيسه.

حزمتُ صرة طعام كنتُ قد أخذتها من المطبخ وعصبتها في محرمة -خبز مدهون بالعسل، وجبن وعنب، مع بسكويت لتناوله لاحقا- وقبل أن يغمر الضوء كل شيء كنت على طريق الشمال. لو أن ريتشارد سيعود الليلة، فعليَّ أن أعود أيضا.

*

بعد عدة ساعات، رحبتُ بمشهد وأصوات مدينة مزدحمة. كان يوما صيفيًّا مشرقا، ودافئا، وكانت الرحلة على الطريق الصاعد إلى القلعة بطيئة، حيث كانت الشوارع مكتظة بالعربات والخيول. وقبل أن أبلغ بوابة الحراسة، نظرتُ خلفي، إلى حيث كانت لانكستر تمتد بعيدا في الأسفل، في نهاية شارع منحدر ومتعرج. كانت المباني متراصَّة في كل مكان، تطوقها من بعيد التلال العالية. كان بوسع المرء من القلعة أن يرى كل شيء. اقتربتُ على حصاني من حارسين مخوَّذين يقفان كل بسيف على خاصرته مثل فرسان الحرب.

قلتُ، «جئتُ لأزور سجينة.»

تأملاني بخمول.

ثم قال واحد، «الاسم.»

«اسمي، أم اسم السجينة؟»

فقال بنفاد صبر، «اسمك.»

«فليتوود شاتلوورث، سيدة قصر جوثورب قرب باديهام.»

رمقني من أعلى لأسفل، مُستوعبا بطني الضخمة. ثم استدار وتوارى تحت البوابة العظيمة المنفرجة. كان ظهري يؤلمني وساقاي تشتعلان من الرحلة الطويلة، لكني خُيِّل إليَّ أني لو ترجلتُ فربما لا أعود لامتطاء الجواد مرة أخرى.

وفي نفس اللحظة التي بدأتُ أتساءل إن كان الحارس سيعود، أقبل هو بخطوات واسعة مع رجل أصغر سنا بقليل، ممتلئ الجسم، وله شعر أسود. كان أنيق الملبس فارتدى بوطا أسود ناعما، وسروالا قصيرا وسترة داخلية بأزرار فضية مغلقة على بطنه العامرة. وكمين واسعين انتفخا عند معصميه.

سأل بتهذيب، «سيدة شاتلوورث؟ هل عليَّ توقع زيارتك؟ اسمي توماس كوفيل. وأنا محقق الوفيات والقيِّم على هذه القلعة.»

قررتُ البقاء على ظهر حصاني لأظل أعلى قامة.

«جئتُ لزيارة آليس جراي، يا سيد كوفيل، لو أن هذا أمر ممكن؟» وعندما لم يضئ وجهه بالاستيعاب، قلتُ، «لقد اعتُقلت حديثا على يد روجر نويل، والذي هو صديق عزيز لي. كنتُ في المنطقة وأردتُ... السؤال عن صحتها.»

لم يكن زوار السجن أمرا معتادا في بوابة الحراسة بالقلعة كما هو واضح، حيث بدا السيد كوفيل مُرتابا وشكاكا. شبك أنامل يديه أمامه.

«آه... أخشى القول إننا لا نسمح بالزوار في القلعة.» ثم انسلَّت عيناه إلى بطني. «خاصة في ظل ظروف

معينـة – ظـروف قـد تثيـر انفعـال السـجناء، وهـو مـا لا يفيـد طباعهـم.»

فقلـت، «سـيد كوفيـل، لقـد سـافرتُ مسـافة طويـلا – مـا يزيـد عـن أربعيـن ميـلا.» كان وجهـه جامـدا، وكـذا الحارسـان علـى جانبيـه، بأعينهمـا تحـدق فـي الفـراغ. «إن زوجـي، ريتشـارد شـاتلوورث، سـيخيب أملـه كثيـرا عندمـا يعـرف عـن صرفـي مـن أمـام البوابـة، ولا سيمـا مـع الهبـة السـخية التـي قدمهـا عمـه الراحـل السـير ريتشـارد إلـى العائلـة المالكـة منـذ أقـل مـن خمسـة عشـر عامـا – إضافـة إلـى أنـه كان قاضـي القضـاة فـي تشيسـتر، ومُنـح لقـب فـارس فـي البـلاط. ومـن ثمـة فـأنـا لا أظـن عـم زوجـي الراحـل كان لينظـر بعيـن الرضـا إلـى زوجـة ابـن أخيـه وهـي تُمنـع مـن الدخـول. لا أحـب أن أضطـر إلـى تصعيـد الأمـر.»

فتح السيد كوفيل فمه ثم عاد وأغلقه.

ثم سأل، «ما اسم السجينة التي تبتغين زيارتها؟»

«آليس جراي. لقد أُحضرت إلى هنا منذ أقل من يومين.»

عـاد تومـاس كوفيـل يمعـن نظـره فـيَّ ببـرود، فاسـتوعبني بالكامـل بـدءا مـن قبعتـي وحتـى خواتمـي. اهتـزَّت ذقنـه السـمينة وتنهـد.

«أمامكَ دقيقتان. سأكلف سجَّانا بمرافقتك.»

وهكـذا عبـرتُ مـن أسـفل بوابة الحراسـة، تمامـا كمـا فعلت آليـس قبـل يوميـن، وكمـا سـيفعل الآلاف مـن بعـد. لـم يكـن لدخـول القلعـة سـوى طريقـة واحـدة، وطريقـة واحدة للخـروج.

تركـتُ جـوادي مربوطـا خلـف حـراس البوابـة، واصطحبنـي

رجل نحيف أجش الأنفاس له وجه مدبب كوجه جرذ عبر فناء القلعة - ولكن ليس من الطريق الذي توقعته، نحو الجزء الرئيسي من القلعة. تتبعنا السور الداخلي الذي يدور إلى اليمين، نحو تجمع من الأكواخ والمراحيض الحجرية. كانت خطوته واسعة جدا، وساقاه تنبتان من وركيه، لذا كان يمشي بصعوبة، ولكنه يمشي أيضا كرجل عزم ألا يُظهر ذلك.

«ما بغيتكِ مع أولئك العاهرات، هيه؟» قالها متوددا.

تجاهلته وحدقتُ عاليا في ارتفاع البناء، شاعرة ببرودة المكان رغم أنه كان يوما صيفيا دافئا. لم أتوقع أن نتوقف فجأة، ونتوقف بالداخل: كنا بجوار قوس منخفض عند نهاية أحد الأبراج، تغطي القوس بوابة حديدية. غير أن الباب لم يؤد إلى الجانب الآخر من أسوار القلعة - بل كان الظلام في الداخل يعني أنه لا يؤدي إلا إلى اتجاه واحد: إلى أسفل.

قطَّبتُ. وسألتُ، «لماذا توقفنا؟»

«هذا هو برج البئر،» قالها مرافقي عبر ابتسامة لزجة.

«لا أفهم. إن آليس جراي في زنزانة انتظارا للمحاكمة. هلا أخذتني إليها من فضلك؟»

«إنها هنا.»

أشار إلى القوس. كان من ظلمته حتى فهمتُ لماذا سُمِّي برج البئر - كان النظر فيه يشبه النظر في قاع بئر. لم أستطع رؤية شيء أبعد من درجة أو اثنتين؛ وكأن ستارة سوداء غطت الباقي. استخرج السجَّان حلقة مفاتيح ضخمة

من خصره وقضى وقتا طويلا في تأمل كل واحد فيما اتضح لي، ببطء، الرعب التام فيما كنتُ أراه. خلف هذه البوابة، في هذا الجحر، كانت صديقتي. لم يسبق لي أن زرتُ سجنا ولا أعرف كيف قد تبدو الزنزانة، لكن هذه لم تكن زنزانة. بل جُبًّا. شعرتُ وكأن الشمس غابت؛ ذهب عني كل دفئها وضوئها، ووقفتُ أرتجف، وأحدق في مدخل الجحيم بذاته.

انبعث صوت غريب من مكان ما خلف البوابة، وأدركتُ أنه عصفور يزقزق. كان حسُّون يتواثب من موضع لآخر فوق أعلى درجة من السلم، عالقا خلف البوابة. ربما كان صغيرا بما يكفي ليمر من بين القضبان، إلا أنه كان يسألنا تحريره.

«مخلوقات غبية،» بها تمتم الحارس، وهو يفك قفل البوابة ويفتحها. «اخرج من هنا.»

تحرك نحو العصفور وأخيرا حلَّق، وتجاوزنا مُرفرفا نحو الحرية. مددتُ يدي إلى الجدار الحجري البارد لأمنع نفسي من السقوط.

«لا شيء يستدعي الخوف. أنتِ من رغب في المجيء، ألم تفعلي؟»

كلا. لم أرغب في النزول إلى هناك إكراما لأي شيء، ولا حتى لآليس. غير أنَّ عليَّ أن أفعل، لأني بعكسها، كان بوسعي الخروج مرة أخرى.

أغلق السجَّان البوابة أعلى الدَّرج، وعندما سمعتُ جلجلتها والمفتاح يدور في القفل، ثار كل عصب في جسدي، ودار رأسي من الهلع. كان نزول الدَّرجات أشبه

بالنزول في ماء أسود، ظلام بغاية الكثافة. انحدرت الدرجات أكثر وأكثر في جوف الأرض، وفي نهايتها كان باب آخر من خشب مصمت، أو حديد - كان تمييز ذلك عسيرا مع الظلام الشديد.

«تراجعي قليلا،» قالها بين صفير أنفاسه، وهو يستخدم مفتاحا آخر في الباب الموجود في الأسفل. «وإلا أفقدتكِ الرائحة وعيك.»

صعدتُ بضع درجات، ونعلي الخشبي يتردد صداه على الحجر. سمعت صياح السجَّان بشيء على الجانب الآخر من الباب، وانتظرت، ثم ظهر وجه شاحب في الضوء الخافت بقاع السلم، وانسلَّ جسد نحيف عبر الفرجة الضيقة.

«آليس.»

أخجل من القول إنني شرعتُ أبكي: أنا في ثوبي الفاخر، بمعدتي شبعانة بالجبن والخبز، وجوادي ينتظرني خارج الجدران. هي لم تبكي. لم أكن قد رأيتها منذ يومين، لكني شعرتُ بهما أعواما: بدت مختلفة تماما. كان وجهها الطويل أكثر شحوبا من القمر، وتحت عينيها ظلال لم تكن موجودة من قبل. رمشت بعنف وكأن عتمة الدرج كانت مبهرة. كان فستانها قذرا وبدا مبللا، واتسخت قلنسوتها بالتراب. لطَّخ دم قاتم صدر فستانها، وظهره أيضا بلا ريب من حيث كانت تجلس.

لم تقل شيئا، بل اتكأت فقط بوهن إلى الحائط، وكأنها لا تملك القوة. ظهر السجَّان إلى جانبها، مُغلقا

الباب، وسمعتُ من خلفه صيحات وهتافات احتجاج فيما بدا أنه لاختفاء الضوء الوحيد بالمكان. لقد صدق: فقد كانت الرائحة لا تُصدق. اعتادت آليس أن تفوح برائحة الخزامى وتنظف يديها في آنية من الخزف، والآن هي تعيش في مجرور تحت الأرض.

همستُ، «من هناك أيضا؟»

«كلهن،»، قالها السجَّان بصوته المتحشرج. «كل الساحرات اللاتي تنتظرن المحاكمة.»

سألتُ آليس، «كم عددهن؟»

فهمست، «لا أعرف. لا يمكنني رؤية شيء من الظلام.»

كان فمها جافا، حتى أن لسانها كان ينفصل بصعوبة عن سقف فمها وهي تتكلم. وحدقتاها كبيرتان مثل بلورتين.

كنتُ قد أمضيتُ ساعات في السفر إلى هنا وها أنا الآن لا أستطع التفكير في شيء واحد أقوله. أظنني في تلك اللحظة، كنت لأقدم الطفل في بطني مقابل حريتها.

نقل السجَّان نظراته بيننا مُحبطا.

«حسنا، يا له، أليس كذلك؟ ألا تملكان ما تقولانه؟»

سألت، «هل لديكِ طعام؟»

فقالت، «بعض منه.»

وعندما أبعد السجَّان عينيه لفرز مفاتيحه، هزت رأسها نفيا.

«سوف أساعدك.»

تردد صدى صوتي على الجدران. فتبدَّت كلماتي بائسة مثل كلمات طفل.

«لقد قبضوا على كاثرين أيضا،» قالتها، صوتها أجش.

«من؟»

«كاثرين هيويت. صديقة أمي.»

وفي تلك اللحظة بدأت تبكي.

مولدهيلز: زميلة أمها في توليد النساء. تذكرتُ عندما أخبرتني عنها في الغرفة العالية الدافئة بمنزل أمي، منذ عهد بعيد في حياة مختلفة.

قالت، «إنه ذنبي.»

«ماذا تعنين؟ ما هو ذنبك؟»

«هيَّا، هيَّا،» قالها صاحبنا في ضيق.

التفتُّ إليه.

طلبتُ منه، «هلا غادرتنا لحظة؟»

«أغادر؟ لا يمكنني ذلك.»

بحثتُ في تنورتي وأخرجتُ كيس نقودي.

«هاك.» ناولته بنسا فانقضَّ عليه مثل كلب جائع. «يمكنك أن تغلق علينا بالمفتاح، ولكن عد حينما أناديك. لا تبتعد.»

صعد الدرجات مُترنحا، وهو يتنفس بخشونة، فأغلق البوابة خلفه وأوصدها من جديد. حجب جسده الضوء للحظات، ولم يكن حتى ابتعد، أن تمكنتُ من رؤية آليس مرة أخرى.

«اصعدي،» قلتها، وأنا أتراجع درجات على السلم. «أنتِ بحاجة إلى الهواء والضوء.»

تبعتني وجلسنا على آخر درجة وظهرانا إلى البوابة. حاولت ألا أستنشق الرائحة الكريهة التي تنبعث منها:

عرق آسن، وقيء ودم متجمد، وشيء آخر ميَّزتُ حالا أنه الخوف. لم يسبق لي أن وجدتُ رائحته على إنسان، غير أني بطريقة ما عرفته على الفور. كانت قد توقفت عن البكاء، لكن الدموع حفرت خطوطا ناصعة على وجهها القذر.

«أخبريني عن كاثرين،» قلتُ برفق، وأنا أمسك بيدها.

«هي أيضا متهمة، بنفس التهمة. إنها غلطتي - هي لم تفعل شيئا.»

«آليس، يجب أن تخبريني بكل شيء. لماذا يتهمونكِ بقتل ابنة جون فولدز؟ كان هو الرجل الذي رأيتكِ معه في هاند آند شتل، أليس كذلك؟»

أومأت ولعقت شفتيها، رغم جفاف لسانها.

«لقد أحببته،» قالتها بصوت خافت جدا. «وأحببتُ آن. أحببتُ كليهما. أنا وجون كنا... معا. اعتاد أن يأتي إلى كوينز آرمز، وهكذا قابلته، قبل بضعة أعوام. كانت له ابنة؛ وكانت زوجته قد ماتت. كان ظريف، وطيِّبا. ظننتُ في البداية أننا سنتزوج. لم تكن آن قد بلغت العامين عندما التقينا. وكنتُ أعتني بها أثناء غيابه في العمل. كانت مثل ملاك صغير، بخدين سمينين وشعر أشقر نافر دائما مهما مشَّطته.»

كانت الآن توشك على الابتسام، ووجهها تائه في الذكريات. ثم اكفهرَّ وأخذت نفسا مسموعا.

«أخبرني جون أنه لن يتزوج مرة أخرى، ليس بعد أن فقد زوجته. قال إن الأمر كان مؤلما بشدة. فبقيتُ،

وعشنا كما الزوجين. ساكنته، وكاد أبي يتبرأ مني. نعتني بالعاهرة. قال إنني لن أكون زوجة أبدا، وأنني لا أصلح لشيء سوى الاضطجاع لجون بعد بضعة كؤوس من النبيذ. لكنني كنتُ سعيدة، مع جون ومع آن. كنا عائلة صغيرة.» ازدردت لعابها. «ثم بدأ يغيب أطول عن المنزل، ولوقت متأخر. كنتُ وآن وحدنا أكثر الوقت. أغلب الوقت. وجون إما في العمل أو الحانة، فيما مثلتُ أنا دور زوجته الصغيرة في المنزل. كنتُ أكذب على نفسي.»

زحزحت قدميها وأحاطت ركبتيها بذراعيها. عدتُ أتأمل الدم الذي لطخ صدر فستانها، وشعرها غير المغسول الذي تدلى من تحت قلنسوتها. تمنيتُ لو أحمِّمها وأُلبسها رداء نوم نظيف، وأضعها في الفراش مثل طفلة.

«حتى عندما بدأ الناس يخبرونني أنه يضاجع أخريات، امتنعتُ عن تصديقهم. ومضت بنا الحياة، وأصبح هو أكثر خسَّة وبخلا، وكنا آن وأنا نقتات من أجري لأنه ينفق كل أجره. ثم بدأت تأتيها تلك الـ... لا أعرف ماذا تسمونها. فيتيبس جسدها وتدور عيناها في محجريهما، ويتضخم لسانها حتى لا يتسع له فمها. حسبتُ أنها تفعل ذلك لأن والدها لم يكن معنا. لم يصدقني عندما أخبرته. ظنَّ أنني أفتعل الأمر لأجبره على العودة إلى المنزل. جربتُ كل نبات خطر ببالي، كل عشبة. ذهبتُ إلى كاثرين استنجادا، ولكن حتى هي أعجزتها الحيل. كانت آن طبيعية معظم الوقت، عدا فقط عندما يحدث هذا فتصبح... وكأن روحا شريرة تخنقها.

«وذات يوم كان عليَّ أن أذهب إلى العمل وأترك آن في المنزل بمفردها. لم يكن لجون أي أثر. كان يُفترض به أن يعود. وكنتُ على وشك أن أخسر عملي.»

عادت الدموع تسيل من عيني آليس. كان وجهها مثالا للحزن.

«كنتُ ما أزال أحبه. أحببته دائما، حتى عندما امتنع عن العودة إلى المنزل. لولا وجود آن، لربما اختلف الوضع. لربما غادرت. المهم، أنني ذهبتُ إلى العمل وطلبتُ من كاثرين أن تراقبها. ثم لم أدرِ إلا وكاثرين تأتي راكضة وتقول، «آليس، آليس، تعالي بسرعة، يجب أن تأتي الآن.» وركضنا إلى منزل جون وكانت...» ثم دفنت آليس وجهها في ركبتيها. «ما كان يجب أن أتركها.»

وضعتُ ذراعي حولها، شاعرة بنحول كتفيها. كنتُ أمتلأ فيما انكمشت. شعرتُ وكأن قلبي ينفطر. كان ألما مختلفا عن المرة التي اكتشفتُ فيها أمر جوديث. في تلك المرة كان هناك غضب؛ أما هذه المرة فكان الحزن خالصا.

«لم يكن بوسعكِ أن تفعلي شيئا،» همستُ، وأنا أضغط خدي على خدها.

امتزجت دموعنا وانحدرت إلى شفاهنا. وجدتُ طعم الملح: من دموعي ودموعها. بقينا على ذاك النحو وهي ترتعد تحت ذراعي، ثم بعد فترة هدأت.

«أعتقد أني لهذا أردتُ جدا مساعدتكِ،» قالتها بنعومة. «فكرتُ أني ربما لو استطعتُ إنقاذ طفلكِ، فإن ذلك سيعوِّض...» سكتت، وقد حارت منها الكلمات.

«لقد فشلتُ في إنقاذ طفل، لذا فكرتُ أني لو استطعتُ منح الحياة لطفل آخر...»

«إن جاءت بنتا، فسوف أسميها آليس آن.»

لم تبتسم، لكن ظل عزاء لاح في عينيها.

«ظننتكِ تريدين ولدين.»

«إني كذلك.» نظرتُ إلى تنورتينا -تفتا لامعة بلون الذرة في مقابل صوف بني قذر، وأمسكتُ بيدها مرة أخرى. «إن هذا لم يتغير.»

همست، «إن المكان مريع. يشبه الجحيم. لا يمكنكِ رؤية شيء، ويشعركِ هذا وكأن الغرفة تدور. هناك امرأة تحتضر. دِمدايك. سوف تموت قبل المحاكمة. لا يوجد طعام.»

أغلقتُ عيني وتذكرتُ الطعام الذي تناولته كله وحدي في ذلك الصباح. لم أفكر حتى في...

قلتُ، «سوف أخرجكِ من هنا. أعدك. سأخرجك.»

سالت المزيد من الدموع على خديها.

وهمست، «بوسعي أن أرى الثمن الذي دفعته من أجل كل هذا. لا يمكنني أن أدعكِ تضحين بالمزيد.»

«فليذهب أي ثمن أدفعه إلى الجحيم.»

وإذ قلتُ ذلك، شعرتُ بالطفل يتحرك، وانتبهتُ في الحال إلى أنه ربما كان ثلاثتنا هنا وأحياء الآن -آليس، والطفل وأنا- إلا أننا يوما ما قريبا جدا قد لا نكون كذلك، ولم يكن من سبيل لمعرفة أينا سينجو. كان يربط بين ثلاثتنا قدر مخيف، واتضح الآن أكثر من أي وثت مضى أننا لننجو، كان كل منا يحتاج للآخر بنفس القدر، ونفس الاستماتة.

«سـوف أنقـذكِ،» كـررتُ، وأنـا أتشـبث بأصابعهـا بيـن أصابعـي.

ضغطت أصابعـي مـرة، ثـم أفلتتهـا، ونظـرت إلـي بحـزن، وعيناهـا الذهبيتـان الحيويتـان تخلـوان مـن التعبيـر.

«لستُ كلبا بوسعكِ إنقاذه من حفرة دب.»

«سـوف أنقـذكِ مـن المـوت، كمـا وعـدتِ أن تنقذينـي. سـوف تعيشـين.»

همست، «وكاثرين.»

«وكاثرين.»

وفـي تلـك اللحظـة انطلـق عويـل هائـل مـن خلـف البـاب الموصـد فـي قـاع السـلم، جفلـت علـى إثـره كلتانـا. ثـم بـدأت قبضـات تـدق البـاب وتحـول العويـل إلـى صـراخ. قفزنـا آليـس وأنـا علـى أقدامنـا إذ هـرع السـجان إلينـا وبحـث عـن القفـل.

«لقد أثرتما غضبهن، أليس كذلك؟»

تردد صوت آخر عبر السلم قائلا، «ما كل هذا؟»

كان المزيـد مـن الرجـال يقتربـون الآن. صلصلـت البوابـة وهـي تنفتـح وأمسـكت قبضـة حديديـة بذراعـي. وسُـحبت كلتانـا بقـوة بعيـدا عـن الأخـرى وفجـأة أصبحـتُ خـارج البوابـة فيمـا أعيـدت هـي إلـى الظـلام.

فهتفتُ، «آليس! سوف أعود. سوف أعود!»

وفيمـا عـاد بـي خيـال رجـل عنيـف إلـى بوابـة الحراسـة، صلصـل بـاب الزنزانـة إذ فُتـح وعـلا صـوت الصـراخ.

«لقد ماتت! لقد ماتت! لقد ماتت! «

انطلقت الكلمات محلقة كغربان من غابة، يتردد صداها بين الأسوار بلا مكان تحط فيه.

*

قبل أن أشرع في رحلة العودة الطويلة، مررتُ بخان في البلدة، فأمرت بتجهيز ثلاث دجاجات مشويات وعشرين فطيرة لحم وجالونين أحدهما من الجعة والآخر من الحليب لإرسالها إلى الزنزانة. جعلتُ أربعة صبية يحملون الطعام ويدحرجون البراميل أعلى التل إلى القلعة، وحرصتُ أن ينزل بهم ذات السجَّان ذي الأنفاس المتحشرجة على السلالم المنحدرة ويعود بذراعين فارغتين. تركته ببنس آخر يلمِّع كفه وأعطيتُ بنسا لكل من الحارسين البائسين أيضا. أخبرتهما أنني سأعود، فابتسما لي وكأنهما يعيان أكثر.

الفصل الثامن عشر

صباح اليوم التالي وجدتُ عند سلم المدخل حشدا من الخدم عندما نزلت لتناول الفطور. كان رأس ريتشارد العاري في مقدمة الحشد، لذا شققتُ طريقي إليه. ثم أدركت أن الجميع ينظرون إلى الأرض. تراجعتُ في هلع.

كانت شيهانة ريتشارد قد مُزِّقت إربا. وتُركت قربانا على آخر سلَّمة، راقدة في بركة من دمائها، جناحاها مطويَّان، وعيناها خاليتان من الحياة ولا تريان شيئا. كان الخدم يحومون مثل سرب ذباب فوق لحم فاسد، لذا صرفتهم. وكان وجه ريتشارد قناعا من الحزن والغضب، وعرفتُ أن أحدهما لن يلبث أن يسلِّم للآخر، لذا حثثتهم على الدخول وأغلقت الباب.

سألتُ، «هل تعرف من فعل هذا؟»

«كلا، ولكني عندما أعرف فسوف أقتله،» قالها بهدوء.

تركته يتمالك نفسه، فيما تذكرتُ فجأة مِزق الفراء، والأحمر اللامع لتلك الأرانب المذبوحة التي رأيتها في الغابة طيلة الأسابيع الماضية.

«واحد من مستأجرينا؟ هل تجادلت مع أي أحد في الآونة الأخيرة؟»

هـز رأسـه ونظـر متأمـلا المخلـوق البائـس. وإذ جثـا علـى ركبتيـه، شـاهدتُ كتفيـه الضيقيـن ينحنيـان فـي حـزن، وشـعره يهفهـف فـي الريـاح الرطبـة، وشـعرتُ بدفقـة حـب قويـة. ولكـن بشـيء آخـر أيضـا: قنـوط -عـار لـم أعهـده من قبـل- أن يشـعر بعاطفـة تحمـل كل هـذه القـوة من أجل طائر، وليـس مـن أجلـي، أو مـن أجـل آليـس. شـعرتُ برغبـة فـي تركـه علـى عتبـة البـاب والذهـاب إلـى حيـث ينتظـر فطـوري فـي حجـرة المائـدة، إلا أن فكـرة خطـرت لـي. طلبـتُ مـن خادمـة أن تحضـر منشـفة، ثـم جثـوتُ لأغطـي جثـة الطائـر. لـم يحركنـي مشـهدها - حيـث اعتـدتُ مشـاهد المـوت. لكـن شـيئا آخـر جعلنـي أتـردد: فقـد علقـت فـي ندبـه بضـع شـعيرات برتقاليـة رفيعـة جـدا. طويـت المنشـفة وطوقتُ بهـا الطائـر بعنايـة.

عبرنـا المـرج فيمـا أرسـلت السـماء أمطارهـا. ووقفـتُ مـع زوجـي تحـت المطـر الغزيـر وهـو يدفـن الطائـر خلـف الحظيـرة الرئيسـية فـي موضـع معـزول عنـد النهـر. شـعرتُ بالمطـر يسـيل فـوق عنقـي، ويغـرق سـترتي، وركل طفلـي بداخلـي. عندمـا عدنـا إلـى المنـزل، وخلـع ريتشـارد سـترته المبللـة، أحطـتُ وجهـه بيـدي. كان شـعره ملتصقـا بـرأسـه، وأهدابـه مبتلـة. وعينـاه الرماديتـان مضطرمتـان.

وقلتُ، «ريتشارد. أحتاج لمساعدتك.»

*

أنفقـتُ وقتـا طويـلا فـي ارتـداء ملابسـي، وكلمسـة أخيـرة، أضفـتُ طوقـي المخملـي الأسـود ذي اللؤلـؤة الممتلئـة التـي

تتدلى منه ناضجة كثمرة خوخ هدية من روجر في أحد أعياد الميلاد المجيدة. كانت وجنتاي قد صارتا أكنز منذ آخر مرة رأيته فيها. قرصتهما ووضعتُ مسحة من زيت الورد خلف أذني، وعلى معصمي والتجويف في نهاية عنقي. عندما تناهى إليَّ صوت وصوله في الطابق الأرضي، عاينتُ نفسي في لوح المرآة لدقيقة أخرى أو دقيقتين، وأنا أعدِّل ياقتي، وأمسِّد على شعري وأحاول ضبط أنفاسي. سرَّني أن أرى يداي لا ترتجفان، وتلوتُ صلاة سريَّة.

تناهى لي صوت روجر قبل أن أراه، فسمعته يقص على ريتشارد خبرية من خبرياته. كانا في حجرة المائدة، فتوقفتُ قليلا عند الباب حتى آخذ نفسا عميقا قبل أن أنسل للداخل. بدا كما عهدته دائما – البوط اللامع والكمان الواسعان والخواتم المتلألئة. من بين كل الأيام التي عرفته فيها صديقا، لم تسترجع ذاكرتي سوى آخر مرة رأيته فيها. وأوحى لي شيء ما أن آخذ كل حذري.

«سيدة شاتلوورث،» قالها بلطف مع انحناءة رشيقة من رأسه.

ذهبتُ إليه وقبَّلته وأنا أحاول جهدي في التصرف بنفس طريقتي قبل شهور. حدث الكثير منذ عشاء ريد هول، لكن هذا لم يظهر قط في ابتسامته الطبيعية، ووجنتيه المشرقتين.

قال برتابة، «تبدين بخير حال.»

«شكرا لك. هل تشرب نبيذا؟»

«سأشرب النبيذ دائما، طالما هناك نبيذ يُشرب.»

ذهبت إلى المنضدة السحَّابة لأصبَّه فوجدتُ عينيَّ تذهبان إلى إزار الصور فوق المدفأة، حيث ملأ خشب فارغ لمَّاع الفراغ حول الحرفين الأولين من اسم ريتشارد.

وكان روجر يقول، «إن البرج يقبع خاليا. أخبرته أنني أتخيل صعوبة إيجاد مستأجر بعدهم.»

فاقترح ريتشارد، «يمكنني أن أسأل وكيل الأملاك.»

سألتُ أثناء عودتي لتقديم النبيذ، «برج؟»

وكان رد روجر «برج مالكن.»

حاولتُ أن يبدو فضولي عاديا.

«وما يكون؟» مكتبة سُر مَن قرأ

«منزل آل ديفيس، قرب كولن. إن منظره غاية في الغرابة. تسمعين برج وتظنينه بناء ضخما ولكنه يشبه نتوءا يبرز من الأرض. إنه طويل ودائري ومبني من الحجر، بحجرة واحدة في الطابق الأرضي، وهم يتسلقون سلالم حائط متهالكةليناموا في أرجاء متفرقة من الجدار. لكنهم لن يستخدموها بعد الآن - إنه خالٍ منذ شهر أو أكثر. بعد أن وجد كونستابل هارجريفز الأسنان والدمى الطينية تحت الأرض هناك، فسوف يفاجئني أن يرغب أي أحد في الدخول إلى هناك مرة أخرى.»

ساد الصمت عندما أُحضر الطعام: قطعة كبيرة من لحم البقر المشوي، مع فطائر لحم وجبن مُحمَّرة. حدق روجر فيها بجوع.

«فليتوود،» قالها وهو يغرف المرق في صحنه، «رآكِ

صديق لي في لانكستر منذ بضعة أيام. ماذا كنت تفعلين هناك؟»

أبقيتُ عينيَّ على الطعام، وأنا أقطع اللحم إلى شرائح. وقلتُ، «كنتُ أزور تاجر ملابس.»

«بعيدا كل البعد في لانكستر؟ لا بدَّ أن لديه خامات ممتازة.»

ابتسمتُ ولعقتُ إبهامي. لطالما سبق روجر الجميع بخطوتين: لا شك أنه سأل الحرس أو توماس كوفيل، فأكدوا له أنني كنتُ هناك.

فقلتُ بصوت أجش، «مررتُ بالقلعة أيضا. فكرتُ في زيارة قابلتي.»

اختلستُ نظرة إلى ريتشارد. وكنتُ قد أخبرته أين كنتُ تحسُّبا أن يسبقني روجر إلى ذلك، وسرَّني الآن أن فعلتُ، وإن كان لم يعجبه مطلقا أنني ركبتُ جوادي قرابة ثمانين ميلا في يوم واحد. فذكَّرته بنصيحة آليس: ما دمتُ قد اعتدتُ ركوب الخيل، فإنه خطر بمثل خطورة المشي، لذا هدَّأه ذلك قليلا.

غرز روجر سكينه في اللحم ولم يرفع عينيه. كان يعلم إذن.

«ولماذا بحق السماء فعلتِ ذلك؟» كان صوته منخفضا ومخيفا.

أزحتُ صحني وأدخلتُ يدي في جيبي لأخرج محرمتي وأربت بها على عيني.

«لم أكن بحال جيدة،» قلتها بصوت ضعيف. «أخشى

على صحتي وصحة طفلي – أردت أن أسألها النصيحة.»

«ولا توجد قابلة أخرى في محيط أربعين ميلا قد تساعدك؟»

«كانت آليس قابلة بارعة للغاية – بل أبرع من قابلت.» توقفتُ عن التربيت ونظرتُ إليه بوداعة. «لم يسبق لي أن وصلتُ إلى هذه المرحلة من الحمل، وأنا واثقة بأن هذا يعود فضله إلى آليس. سوف تبدأ فترة ملازمتي للسرير قريبا، يا روجر،» هكذا تابعتُ. «لو أن بوسعك فقط أن توافق على السماح لآليس بالإقامة تحت الحراسة هنا في جوثورب، لأجلي ولأجل طفلي. أنا خائفة من دونها. ريتشارد؟»

أرسلت نظرة سريعة إلى زوجي، وأنا أصلي أن يلعب دوره.

وقع صمت قصير، فيه لعق ريتشارد شفتيه.

ثم قال بهدوء، «كانت فليتوود مريضة جدا. رأيتها بنفسك. كانت لا تأكل أكثر من لقمة. وتساقط شعرها في كتل. ولكنها بطريقة ما صارت أحسن حالا من أي وقت مضى. ستظل آليس تواجه المحاكمة في الشهر المقبل لكنها ستظل هنا مُقفلا عليها. لن تهرب.»

«وكيف يمكنك أن تضمن ذلك؟»

قلتُ، «مثلما يمكنك أن تضمن ذلك مع جينيت ديڤيس، والتي أحسبها مازالت في ريد.»

«إن جينيت ديڤيس لن تُحاكم بتهمة القتل،» قالها روجر بثبات، وعاد يتناول سكينه. «أترضين بقاتلة أطفال وساحرة تحت سقف منزلك؟»

«إنهـا ليسـت...» همسـتُ، لكـن ريتشـارد أرسـل لـي نظـرة، فصمـتُّ.

«إن هـذا مسـتحيل،» هكـذا أعلـن روجـر، وهـو يعـود إلـى طعامـه.

كرهتـه أكثـر مـن أي وقـت مضـى فـي تلـك اللحظـة. كان مثل قـطٍّ يضـع مخلبـا مُتسـلطا علـى ذيل فـأر قبـل أن يفلتـه ويمسـكه مـن جديـد. كان روجـر يسـتلذ بتـرك النـاس يتملقـون، ويسـتميلون، ويتوسـلون، فيظنـون أن لديهـم فرصـة، فيمـا هـو قـد اتخـذ قـراره بالفعـل.

«أعتقـد أن كليكمـا قـد عجـز عـن اسـتيعاب جديـة التهـم الموجهـة إلـى سـاحرات بنـدل،» هكـذا اسـتطرد. «إن عقوبـة السـحر المُسـتحقة هـي الإعـدام، لكـن جرائمهـن فـي مجموعهـا أكثـر خطـورة. فهـن لـم يمارسـن السـحر فحسـب، بـل إن أفعالهـن تسـببت فـي مـوت وجنـون كثيـر مـن النـاس. إنهـن خطـر علـى المجتمـع. كيـف سـيبدو للملـك، طلـب إطـلاق سـراحهن حتـى المحاكمـة؟ كلا، لـن يسـتقيم ذلـك.»

مسـح لحيتـه، مـن حيـث علقـت قطـرات مـن المـرق بالشـعيرات الفضيـة.

«وهـذا يحيلنـي إلـى النقطـة التاليـة مـن كلامـي،» قالهـا، وهـو يوجـه حديثـه لـي رأسـا هـذه المـرة. «لا فائـدة مـن زيـارة القلعـة مـرة أخـرى، لأنـكِ لـن تحصلـي علـى إذن بالدخـول. إن الزيـارات تثيـر السـجناء، ومـع الأخـذ فـي الاعتبـار... حالتـكِ...» وأشـار إلـيَّ عرَضًـا. «فـإن ذلـك يقودهـم إلـى

حالة من الجنون. بعد أن أقحمتِ نفسكِ في برج البئر وجعلتهم يفتحون ذلك الباب، ماتت امرأة.»

«أنت لا تقترح ...»

«أنا لا أقترح أي شيء. إنني أخبركِ فحسب،» بها قاطعني روجر. كانت عيناه شرستين الآن، وكل خط من جسده ينطق بإضمار الأذى. «إياكِ أن تذهبي إلى القلعة مرة أخرى. إن فعلتِ، فلن تخرجي منها.»

ارتطمت سكيني بالطاولة. التفتُّ إلى ريتشارد، الذي كان يعبث في بؤس بشرائح الدهن في صحنه. كنتُ أعرف أنه لن يتحدى روجر. ولكني احتجتُ إليه في صفي. كنتُ أرتجف، وفي محاولة لإخفاء تلك الحقيقة، تراجعتُ في مقعدي وتركتُ يدي تسقطان في حجري.

«هل تعني القول إنني سأصبح سجينة؟»

«ذاك بالضبط ما أعنيه. لا تخدعي نفسك: إن حملكِ هو الحسنة الوحيدة التي تقوم في صالحك. هل تظنين أنكِ كنتِ ستملكين الحرية في أن تجوبي البلاد طولا وعرضا دون رادع، والاستفسار عنا بدا لكِ، لو أنكِ لا تملكين هذا المنزل وهذا الزوج؟ لن تكوني خطرا على مجرى العدالة، بقدر حرصكِ على ذلك. ولكن لو أنكِ تظنين نفسك محصَّنة من قبضة الأغلال، فأنتِ مخطئة بالكامل.»

وعند هذا، قاطعه ريتشارد. «روجر، لا تكن متطرفا.»

تجمد الدم في عروقي، لكن روجر لم يكن قد انتهى بعد.

«إحدى المتهمات هي والدة مايلز نوتر. هي أيضا امرأة ثرية، امرأة نبيلة ذات مكانة، تملك الأراضي ولها أبناء

مثقفون. المشكلة هي أنها تصب اللعنات على جيرانها فيسقطون صرعى.»

لو أن قتلك كان بتلك السهولة، لفعلتها، قلتها لنفسي، لكن فمي ظل مغلقا.

مال روجر بقدر بسيط ليلقي بضربته القاتلة.

«في الواقع، أخبرتني جينيت أنكِ ذكَّرتها بالسيدة نوتر. يمكن حثها دائما على الإمعان في تذكر من كان حاضرا في برج مالكن بجمعة الآلام.»

استقرت نظرته العجوز عليَّ دون أن تطرف، وأظنها كانت أول مرة أدرك فيها من كنت أباري. لم يكن هذا روجر، الذي اعتبرته أبا، الذي شاركنا العشاء والصيد ولعب الورق؛ كان هذا هو العمدة السابق، الوالي، قاضي الصلح.

«هذا يكفي!» بها هتف ريتشارد، وهو يغرز سكينه في الطاولة.

انتفضنا جميعنا، وتراجع روجر في مقعده. لم يسبق لي أن رأيتُ ريتشارد بهذا الغضب.

«لن أسمع المزيد.»

سلَّ سكينه من الخشب واستأنف طعامه من جديد.

«إني راحل هذا المساء من أجل محاكمة جينيت بريستون في يورك،» تحدث روجر بهدوء الآن. «القضاة الذين سينظرون في الدعوى هم نفسهم من سيكونون في لانكستر بشهر آب: السير جيمس آلثام، وهو محنَّك جدا وحكيم، والسير إدوارد بروملي. هل تعرف بروملي، يا ريتشارد؟» تجاهله ريتشارد، ومازال فكه مزموما من الغضب. لكن لم يبدُ أن روجر قد

لاحظ. «إنه ابن شقيق قاضي القضاة السابق الذي أشرف على إعدام ملكة اسكتلندا. وهو أيضا الرجل الذي برَّأ جينيت بريستون في محكمة الصوم الكبير.»

ثم احتسى رشفة مسموعة من كأسه.

تذكرتُ كيف كان توماس ليستر يغلي ويرتجف جانبي على مائدة العشاء إثر ذكر جينيت بريستون؛ كيف نجح في إرسالها للمحكمة مرتين في غضون بضعة أشهر. كان واحد من القضاة قد وجدها بريئة قبل بضعة أشهر؛ وبإمكانه أن يفعلها مرة أخرى.

سألتُ روجر، «كم أسبوعا حتى موعد المحاكمة في لانكستر؟»

«ثلاثة أسابيع أو أربعة. أفترض أن كليكما سيرغب في الحضور؟ أتوقع أن تكون القاعة أكثر ازدحاما من مسرح الوردة في سهرة مسرحية.»

لاحقا، عندما خرج الرجلان لمعاينة بندقية ريتشارد الجديدة، وقفتُ طويلا أمام النافذة أفكر. ديمدايك ماتت. وجينيت بريستون ستحاكم بتهمة القتل باستخدام السحر غدا. فيما آليس مازالت حيَّة، وهناك وقت قبل المحاكمة، مازال إذن بإمكاني إنقاذها.

*

صباح اليوم التالي انطلقتُ أبحث عن برج مالكن. امتطيتُ جوادي في عباءة سفري، ولمع جلدي بالعرق، على الرغم من برودة الجو في صيف تموز، ورنَّ صوت أمي في أذنيَّ يقول:

فليتوود، إنكِ تتصرفين بحماقة. فليتوود، إنكِ تجعلين من عائلتكِ أضحوكة.

عدتُ بذاكرتي إلى تلك الأيام الخفيفة والمشرقة في منزلها - ذاك المكان الذي لم أتخيل قط أن أجد فيه راحتي. وكان السبب في ذلك هو آليس. لو كنتُ جلستُ ليلة بعد ليلة أطرِّز أو أتلو آيات من الكتاب المقدس لا يرافقني سوى وجه أمي الحزين، فلربما فقدتُ عقلي. كلا، كيف بوسعي أن أقول هذا؟ إن ما قد يُفقد شخصا عقله هو ليلة بعد ليلة في زنزانة حالكة الظلام، ورطبة، وسط أجساد غيره تنتحب، وتتقيأ، بلا ماء أو طعام أو مكان لقضاء الحاجة.

كانت آليس في السجن بسبب إليزابيث ديڤيس، التي أرادت إنقاذ ابنتها حدَّ أنها قيَّدت نفسها بكل من حولها. ربما ظنَّت أن أمانها في العدد. ربما لم يخطر ببالها قط أن تتسبب ابنتها الأخرى في سقوطهم جميعا. أردتُ رؤية المكان الذي جاءت منه، هذه المرأة المُدهشة في قبحها بكلبها التابعة وابنتها الحرام. كانت قد فقدت أمها بالفعل، وهي توشك الآن على فقدان من تبقى من عائلتها - باستثناء الصغيرة جينيت. أي حياة كابدتها هذه الصغيرة يا تُرى، ودفعتها لتسليم أقاربها إلى روجر نويل؟ قال روجر من قبل إن برج مالكن مكان بائس، لكنه كان البيت الوحيد الذي عرفته، وسط الأشخاص الوحيدين الذين عرفتهم. إن إغراء الفراش الناعم وفطائر اللحم في ريد هول لن يكون كافيا بالتأكيد لخيانة عائلتها.

لكنكِ كرهتِ بيتكِ، وكرهتِ أمك. هكذا ألح صوت داخلي.

بقدر ما كان هذا صحيحا، أخبرتُ نفسي أني ما كنتُ لأخون أمي قط. غير أني لم أكن واثقة من الشيء الذي قد يصل بطفلة أن تفعل ذلك. الإهمال؟ القسوة؟

لم أعرف أين أبحث عن البرج، ولا من أسأل، ولذا انطلقت على جوادي في اتجاه كولن. تركتُ پاك في المنزل، وكنتُ أعلم أني سأندم على ذلك لاحقا عندما صفَّرت الرياح فوق أرض المستنقعات وعاد كوخ جوزيف جراي الذي دكَّته الرياح يطاردني.

إنهم يحرقون الساحرات، أليس كذلك؟

كنتُ وعباءتي تغطي رأسي وبطني، أبدو كأي أحد، أو لا أحد، لذا لم يلتفت لي العابرون في الطريق الهادئ. مرَّت بي ثلاث أو أربع عربات محملة بالخضار ولفائف القماش، لكني أبقيتُ عينيَّ في الأرض، إذ تذكرتُ كيف شوهدتُ في لانكستر.

كان روجر قد أخبرني، أملك عيونا في الغابة، لعلمك.

كنتُ أعرف أني إن بقيتُ على هذا الطريق، فإنه سيؤدي في النهاية إلى هاليفاكس، وإلى جون لو وابنه إبراهام. كيف بدأ كل هذا ببائع جوال بسيط طُلبت منه بضعة دبابيس. ماذا كان سيحدث لو أنه أعطاهم. ولكن حتى لو أنه أعطى الدبابيس لأليزون ديڤيس، لواصلت آليس العيش مع حزنها، لاستمرت في عملها بكوينز آرمز، وطبخت النذر اليسير الذي أمكنها شراؤه لوالدها البائس تحت حفرة السقف. وإلى أي حال كنتُ سأصير أنا؟ لربما كنتُ سأموت؛ وربما لا. ربما لم أكن لأكتشف

قط أمر جوديث. ولكني في كل الأحوال، لم أكن لأقطع الطريق بحثا عن برج حجري يبرز مثل نتوء نافر.

رمادي وأخضر، ورمادي وأخضر، على مد البصر، مرورا بالمنزل الغريب الذي بني ببقايا الحجر أو رُفع على عجلة وغير إتقان من الطين. ترامت البيوت الريفية العالية والقصيرة بامتداد التلال كالقطط، ولكن لا برج هناك. قررتُ أن أسأل أول شخص قابلته: رجل يرتحل في الاتجاه المعاكس على بغل منهك الشكل.

سألتُ، «عفوا، هل تعرف أين يمكنني أن أجد برج مالكن؟»

تراجع مُنكمشا في ذعر وكأنما أخبرته أني ساحرة، ودون كلمة، مضى مُبتعدا على بهيمته الغبراء، وهو يختلس نظرة للخلف من فوق كتفه.

تنهدتُ وأوقفتُ جوادي. وفي اللحظة التي كنتُ أقرر فيها ماذا أفعل، ظهر خيالان على الطريق: امرأة، بسيطة الملبس، تجر ابنتها خلفها.

فأعدتُ المحاولة، «عفوا. إنني أبحث عن برج مالكن.»

توقفت المرأة، وكادت ابنتها، الناعسة من جو الصيف الثقيل، أن ترتطم بها.

وسألت، «ما غرضكِ من برج مالكن؟»

لمعت عيناها الداكنتان في ارتياب.

«سمعتُ عن آل ديڤيس ودخلتُ في رهان مع شقيقتي – هي لا تؤمن بأنهم أو منزلهم حقيقيون. سأحصل على بنس إن وجدته.»

«المنزل حقيقي بدون شك، وكذلك هم. أخبري

شقيقتكِ أن عليها أن تصدق ما تسمعه، فالأهالي هنا لا يُعهد عنهم ترديد الأكاذيب. كانوا عائلة غريبة الأطوار لأعوام، والآن عرفنا لماذا. كانت أمي تبتاع العلاجات من دِمدايك ولكني رفضتُ تعاطي أيٍّ منها. بل أترك للرب أمر شفائي، ولا أقامر مع الشيطان.»

ثم لعقت شفتيها. وحدقت ابنتها بصمت في عباءتي، في وجهي.

«من أين أنتِ؟»

«بيرنلي.»

«قطعتِ طريقا طويلا لتسوية رهان.» ثم أشارت إلى الخلف منها. «بعد نصف ميل من هنا اتركي الطريق وأمسكي بالدرب الذي يؤدي إلى أعلى المستنقع. ستجدينه هناك. شخصيا لا أحبه؛ إن فيه شيئًا لا يبعث على الراحة. كانت أمي كما أخبرتكِ، تصعد إلى هناك عندما تصيبنا وعكة؛ وقد صحبتني عدة مرات. لم أكن لأصحب ابنتي إلى هناك ولو أمرني الرب نفسه بذلك.»

شكرتها وذهبتُ من الطريق الذي وصفته، فانحرفتُ عن الطريق إلى درب ضيق بين جدارين من الحجر الجاف. نبح كلب من بعيد، وتذكرتُ الكلب الذي رأيته في الغابة مع إليزابيث وآليس، وقول جينيت إن تابعتها لم يظهر لها بعد. هل يُعقل أن ثمة حقيقة في وسطاء الجن، وهل صدَّق روجر حقا بوجودها؟ ملتُ للخلف فوق جوادي إذ صعدت الأرض مقدارا ضئيلا يحدها من الجانبين حقول واسعة. كنتُ أقترب من أعلى التل ولا أثر للبرج، ثم أصبحتُ على

القمة وأطل الآن على الجانب الآخر، ورأيته: بناء رمادي كئيب أقرب للطول، أشبه بساق طاولة قصيرة. كان مبنيا على الطراز القديم للأبراج، كذلك المبني في جوثورب منذ مئات السنين. لكن آل ديڤيس لم يكونوا من النبلاء أو حتى ملاك الأراضي - بل كانوا مدقعين في الفقر، فأنَّى لهم أن يسكنوا مكانا كهذا؟ كان ذلك لغزا.

وأثناء اقترابي، رأيتُ أنَّ قطعا كبيرة من المبنى قد انهارت وتبعثرت على الأرض. توجهتُ إلى ما بدا لي مدخلا: باب كبير وسميك في الأسفل. لا بد أنَّ مصدر الضوء الوحيد هو شقوق في الجدار، وربما فتحة في السقف لإخراج الدخان.

ترجَّلْت عن فرسي ومشيت دورة واحدة حول قاعدة البرج. كانت حديقة صغيرة وغريبة الشكل قد هُجرت بعد إنباتها، محصورة في مربع بسور متقطع من الحجر الجاف. لا أظن أني أردتُ الدخول، ولكني كنتُ بحاجة لرؤية المكان الذي أتت منه جينيت ديڤيس. فذهبتُ إلى الباب وجرَّبْت ممسكة الباب. لم يكن بالباب ترباس وارتجَّ مفتوحا بسهولة. كان داخل البرج مظلما، وتذكرتُ من جديد زنزانة السجن التي تعيش فيها العائلة الآن. فتحتُ الباب على مصراعيه لأسمح بضوء أكثر في المكان ودخلت.

كانت تفوح بالمكان رائحة قوية، إلا أني لم أستطع تمييزها. تحوي رطوبة، بالتأكيد، وتفسخ، ولكن شيئا حيوانيا أيضا، كفراء مبلل تُرك ليجف. لم يستغرق المكان طويلا في استعراض محتوياته. استقرت طنجرة أكبر من طنجرة جوزيف جراي في منتصف الأرضية الترابية.

واستوى فراش من القش في الجوار، ولكن لا ستائر للوقاية من الهواء المتسلل عبر فراغات الحجر. شاهدتُ قملة خشب تزحف بتثاقل على المفرش المتسخ الذي غطى الفراش. واستقرت على الأرض صحون وأقداح مهجورة. قاد سلم حائط خشبي إلى بسطة عفنة المنظرِ، حيث تحوي ولابد مزيدا من فرش القش. على يميني، أُلصقت طاولة بالحائط، الذي تقوَّس في دائرة. وعلى الطاولة أشياء عندما اقتربتُ لفصحها، جفلتُ في الحال. كانت بقايا دمية الطين الخاصة بإليزابيث في كومة ممسوخة، ثُبِّتت أجزائها بدبابيس. وفي كتل وفتافيت الطين، رأيتُ شيئا لا تخطئ العين تمييزه: أسنان. تناولتُ إحداها وأمسكتُ بها أمامي، فانتشر إحساس بالخدر في جمجمتي انتقل إلى عنقي.

ثم حدثت ضجة قوية كدتُ معها أموت فَرَقا. كان الباب قد صُفق من خلفي. فتركتُ السنَّ وركضتُ إليه، فبحثتُ مُتخبطة في العتمة عن مقبضه، فوجدته، وجذبته، والهلع يرتفع إلى لحن صادح وواضح يعزف في رأسي. استقبلتني الرياح على الجانب الآخر، مُطالبة بالدخول، لكني اقتحمتها ووجدتني أخيرا بالخارج على الأرض البور من جديد، منقطعة الأنفاس وخائفة. أين كان عقلي عندما لمستُ أدواتهم الشيطانية؟ عاد الشعور بالخدر يغمرني، وانتابني إحساس غريب بأن ثمة من يراقبني.

صهل جوادي وتراجع، رافعا ساقيه الأماميتين في احتجاج. نظرتُ حولي لأرى ما أخافه، وهناك، على قمة التل مسافة عشرين أو ثلاثين قدما، كان خيال كلب رثٍّ

نحيل. كان جامدا كتمثال، ويراقبني. تحركتُ أولا، فاعتليتُ جوادي، مُستعينة بواحدة من الأحجار المتهدمة، وبالوقت الذي أمسكتُ فيه باللجام، كان الكلب قد اختفى.

كنتُ لوحدي على جانب التل، إلا أني شعرتُ عكس ذلك تماما، ولم أستطع النظر خلفي إلى برج مالكن وأنا أتقفى أثر الجواد إلى الطريق.

كنتُ قد رأيتُ الآن ما تركته جينيت ورائها، أدركتُ مدى الضخامة التي لا بد رأت بها منزل روجر وكاثرين، بستائره السميكة وسجاده التركي وأقلام الحبر والخدم. كيف أنها لا بد أخبرته بما أراد أن يسمع، آملة أن يسمح لها بالبقاء، ففكرت طويلا وعميقا تحت لحافها في الحكايات التي بوسعها نسجها، طويلة وبرَّاقة مثل خيط عنكبوت. جزء مني لم يلم الصغيرة، خاصة إن ظنَّت أنها ستبقى هكذا للأبد، وقواق في عش آل نويل. ولكن حالما تنتهي المحاكمات، فإن روجر سيلقي بها من غير شك إلى إحدى المزارع التي تحتاج إلى عمالة، أو إلى منزل شبيه بمنزلي لتعمل في تخمير النبيذ أو غسل الثياب. وكيف ستقضي بقية حياتها؟ هل سترى نفسها سعيدة الحظ، أم يعذبها الشعور بالذنب حتى آخر أيامها؟

وبالوقت الذي وصلتُ فيه إلى ملتقى الدرب بالطريق، لم تكن الساعة قد تجاوزت منتصف الصباح، وكانت الشمس عالية إنما معتمة في السماء الغائمة. نظرتُ يساري في اتجاه كولن، ويميني إلى جوثورب. وبعد برهة، حسمتُ قراري، وطقطقتُ بلساني ونكزتُ بعقبيَّ لأتابع سيري.

الفصل التاسع عشر

«**أنت!**» قالها بيتر.

وقفتُ للمرة الثانية على الأرضية التي يكسوها القش أمام منضدة الاستقبال في خان كوينز آرمز.

«لا نحظى بسيدات نبيلات هنا على الإطلاق، والآن تأتينا واحدة مرتان في أسبوع واحد.»

تبعثر عدد قليل من الزبائن على الطاولات، عتّالون انتهوا من وردياتهم أو عمال تسليم يأخذون استراحتهم اليومية، لكنهم لم يولوا كثير اهتمام وعاد كل إلى قوقعة كأسه.

قلتُ، «إنني أبحث عن عنوان ما. كتبتَ خطابا في آذار أو نيسان من هذا العام إلى رجل يُدعى إبراهام لو، صبّاغ من هاليفاكس.»

رمقني بيتر بحذر، وخاصرته الممتلئة تنبعج قليلا من حيث التصقت بالمنضدة.

«ربما أكون فعلت. فيم يعنيكِ الأمر؟»

فردتُ قامتي إلى كامل طولها الضئيل.

«أريد التحدث إليه.»

«لمَ؟»

«لديَّ قماش بكمية كبيرة تحت الطلب من مانشستر

وأريد سعرا لصبغها. رشَّحت لي آليس السيد لو، لذا فكرتُ في تجربته.»

زفر بيتر. وقال، «حسنًا، يعلم الرب عجزي عن فهم لماذا يحتاج الأرستقراطيون إلى أمثالنا من البشر الفانين. سأذهب وأبحث عنه، أمهليني دقيقة.»

شبكتُ يديَّ وانتظرت. وفي الحال عاد ومعه رسالة من صفحة واحدة، والتي انتزعها تقريبا من يده لأقرأ العنوان.

وقلتُ، «جزيل الشكر، يا سيد وارد. سوف أراسله في وقت ما.»

*

وبعد دقائق خمس، كنتُ في طريقي إلى هاليفاكس، وإشارة الغراب، وهالي هيل تترددان في عقلي، بعد أن تركت بيتر وارد مع حفنة من الفضة. فكرتُ في كل النقود التي بعثرتها في أكف الناس مؤخرا وتساءلتُ كيف سأفسر لجيمس جميع أسفاري. ثم تذكرتُ أنه على الأرجح لن يستجوبني عن أي شيء مجددا - كانت أذناه تحمرَّان لمجرد النظر إليَّ. لكنِّي حالما ينتهي كل هذا، سأولي اهتماما أكبر بإدارة المنزل - إن بقيتُ لأفعل. وقريبا نأتي بالمزيد من المفارش والمناشف والحليب والقلاسي والأثواب المنمنمة - ومن كل طقم زوجان. أدركتُ أن التفكير في هذا الأمر لم يؤدِّ بي إلى غضب أعمى؛ كان واقعا، وليس حتى واقعا مهما في هذه اللحظة من الزمن.

كان عليَّ أن أزيد من سرعتي، وحين وصلتُ إلى المدينة شعرتُ كمن وضعت في كيس وسادة ورُجَّت في مساحة شبر من حياتي، فيما تلوَّى الطفل بداخلي وركل. لوهلة خشيتُ أن يكون هذا الترحال المتواصل يؤذيه. ولكنه طالما تحرك، فهو حي، فصرفتُ الفكرة من عقلي، وترجلتُ، ونقدتُ أول صبي قابلني ليرعى جوادي ويسقيه.

كان المنزل الخشبي عند إشارة الغراب محشورا بين غيره من المنازل على الجانبين ومرتفعا عنهم بطوابقه العالية، فتوجب على المرء أن يرجع بظهره حتى يراه. في هذا المكان، ركض الصغار حفاة في الوحل، وسار الناس بهمة إلى داخل المتاجر والمنازل وخارجها.

طرقتُ الباب، فأحدثت مفاصل يدي إيقاعا يوحي بثقة لم أشعر بها. فُتح على دهليز مظلم وتبدَّت فتاة صغيرة. نظرت إليَّ في مفاجأة: كنتُ أرتدي عباءة سفري التي أخفت كل شيء، من قبعتي إلى حافة ثوبي.

قلتُ، «أنشدُ إبراهام لو. هل هو في البيت؟»

فقالت، «إنه في العمل، يا آنسة. أنا ابنته. أمي في البيت إن أردتِ مقابلتها؟»

«آه. أنا... أجل، يحسن بي إذن.»

تراجعت لتسمح لي بالدخول، وتبعتها داخل ممر خفيض أشبه بالدهليز بحجر تؤدي إلى الجانب الأيسر من المنزل.

قالت لي، «انتظري هنا، سأنادي أمي.»

وقفتُ، أستمع إلى دوشة المنزل وكذلك المنازل التي

على جانبيه. ثم فوجئتُ بسماع شخص يسعل على الجانب الآخر من الجدار. وبعد دقيقة، أقبلت امرأة نحيفة من نهاية الممر، مرتدية ثوبا بلون الذرة ومئزرا احتاج للرتق. كانت تملك وجها طيبا وتبعثرت عدة خصلات من شعرها الأشقر من تحت قلنسوتها، وكانت تمسح يديها بخرقة.

سألت، «هل أساعدك؟»

في تلك اللحظة، وأنا أرى لباقتها الحائرة، أجفلتُ فجأة من الثقل الكبير لمهمتي، ولكن أيضا من التهور الذي صاحبها. لا أشك أن هذه المرأة لا تعرف من أكون، أو لماذا أنا هنا، وبدا الجهد الذي أحتاجه لتفسير حضوري مرهقا فجأة. ولكن لابد أنها اعتادت هذا، لأنها دعتني للدخول واحتساء شيء من الجعة، فتبعتها دون كلام إلى داخل غرفة واسعة كانت معتمة رغم سطوع النهار. وعلى كل مساحة متاحة تكوَّمت تلال من الأشياء، واحتل الأرضية عدد من الأطفال وكلب، في حركة متواصلة، لذا كان عليَّ الحذر في كل خطوة. كان رجل في كرسي ينظر من النافذة: تراءت لي قمة رأسه الأصلع.

خلعتُ عباءتي وحملتها مترددة لا أعرف أين أضعها. كان الجو في الغرفة الصغيرة خانقا. عادت المرأة بقدح من الجعة لأجلي. فشربته بامتنان.

قالت، «أنا ليز. كنتِ تنشدين زوجي؟»

«أجل،» تدبرتُ قلوها. حيث كانت الجعة خفيفة وطيبة. «أُدعى فليتوود شاتلوورث. أرجو المعذرة عن زيارتي المفاجئة... لا أعرف يقينا من أين أبدأ.»

«اجلسي، من فضلك.»

أشارت إلى أحد المقعدين الحارسين للمدفأة الفارغة وناورتُ بين الصغار لأجلس عليه. وجلست هي على الآخر.

«أردت التحدث إلى إبراهام حول شيء حدث قبل بضعة أشهر في كولن.»

وعلى الفور تبدَّلت ملامح ليز لو، فاتخذت تعبير إجهاد وألم أيضا.

«مسألة ترتبط بحميكِ؟ إن ما حدث له قد بدأ سلسلة من الأحداث التي... لا أَظنكم في يوركشاير على دراية بما يحدث في لانكشر؟»

هزت رأسها نفيا، وولول واحد من الصغار طلبا لانتباهها. كلمته بعطف حازم والتفتت إليَّ من جديد. لم يكن لها أن تدري بشيء بالطبع: كانت غارقة حتى أذنيها في إدارة منزلها.

«الأمر وما فيه... أن قابلتي هي امرأة تُدعى آليس جراي.» ازدردتُ لعابي ورأيت عينيها تقفزان بحركة شبه خفية إلى بطني، ثم تعودان إلى وجهي. «وقد تورطت في اتهامات بممارسة السحر، كما حدث مع الكثيرات من غيرها. اثني عشر تقريبا، حسب آخر تعداد.»

كان طفل صغير الحجم يستخدم تنورة ليز ليرفع جسده، ثم شرع يطرق ركبتها بقبضة مكتنزة. ألا توجد مربية أو خادمة تزيلهم عن كاهلها لدقيقة واحدة؟

«كانت آليس جراي تعمل في خان كوينز آرمز، الذي أُخذ إليه حماكِ بعد أن... بعد لقائه بأليزون ديفيس.

وجدته على طريق نقل الصوف واعتنت به هناك، ولكن عائلة ديفيس بدأت تهددها حتى تحرف شهادتها. حتى ورطوها الآن في هذه التهم الفظيعة، وسوف تُعقد محاكمة خلال بضعة أسابيع في لانكستر.»

كانت ليز تستمع لكني لمستُ تشتت ذهنها. أبعدت الصغير عن تنورتها وحاولت وضع يديه على جانبيه. فشرع الطفل في البكاء.

«المعذرة، أعرف أنكِ مشغولة جدا. كنتُ أتساءل أولا كيف تُراه حال حماكِ، وثانيا، إن كان بوسعي طرح بعض الأسئلة عليه حول ما حدث ذلك اليوم في كولن؟»

اعتدلت في جلستها ورفعت الطفل إلى حجرها.

«يمكنكِ سؤاله بنفسك، لكنكِ لن تفهمي كثيرا مما يقول. أبي؟»

سارت إلى الرجل الذي لاحظته من قبل، متمركزا في الضوء الضعيف القادم من النافذة. تبعتها، وفغر فاهي.

كان جون لو مُتغضِّنا كتفاحة قديمة، ومُتداعيا في كرسيه. وبدا نصف واحد من وجهه وكأنه قد ذاب، بعين مغلقة، والأخرى تجول بعنف عليَّ وليز، كما لو كان مذعورا. خمَّنتُ أنه كان رجلا ضخما وقويا فقد الكثير من وزنه في وقت قصير؛ حيث ترهل جلده، وكان بمقدوري اجتثاث أشبار من ملابسه.

«مرحبا، يا سيد لو،» قلتها عاجزة عن إخفاء صدمتي.

تحرك في مكانه، لكن جانبه القريب مني ظل رخوا وثقيلا.

«مماااااذا،» قالها بصوت عال.

نظرتُ إلى ليز.

فقالت، «نحن نفهمه ولكن لا أحد آخر يفعل. أبي، لقد حضرت هذه السيدة لمقابلتك. هل تعرفها؟»

هتف، «كلللللل.»

قلت، «كلا، لا يعرفك.» خانني صوتي فتنحنحت. «سيد لو، أُدعى فليتوود شتلورث. وأنا صديقة للآنسة جراي، المرأة التي أخذتك إلى الخان بعد أن... بعد أن تعرضت للاعتداء.»

فأطلق صرخة مُحزنة، ولم أعرف هل فهم أم لا.

«آليس جراي؟» ألححتُ، إلا أنه تلوَّى وتحركت عينه بعيدا إلى النافذة من جديد.

قالت ليز، «إنه على هذه الحال منذ ذلك الحين.»

كان الرضيع الذي تحمله يشد أجزاء من شعرها من تحت قلنسوتها.

«حسبتُ...» ازدردتُ لعابي. «حسبتُ أنه يستطيع التكلم.»

هزت ليز رأسها. «كان يستطيع في البداية، لكن حالته ازدادت سوءا مع الوقت. هناك أيام يتكلم فيها بوضوح أكثر من غيرها ولكن... ليس اليوم من أحدها. بوسعي أن أتركِك معه، حتى تجربي التحدث إليه - ربما يقول شيئا. لديَّ عمل أباشره. هلا حملتها قليلا فيما أطوي هذه الملابس؟»

ناولتني الولد الصغير، في ثوبه الفضفاض ودبقه، وطفقت ترفع أكوام الملابس من كل مكان إلى خارج الغرفة. كانت أول مرة أحمل فيها طفلا. تدلى مثل كيس دقيق من بين ذراعيَّ المتيبستين، مُحدِّقا بي في ذهول، وأنا بالمثل. ولم

يمضِ وقت البتة حتى كانت ليز لو تستعيده، ثم تغادر الغرفة من جديد. نظرتُ حولي. بعد إزالة أكبر قدر من الملابس، وجدتُ الأسطح نظيفة - كانت الطاولة تلمع ولا فتات عليها، وأدركتُ أيضا أن وجوه الصغار لم تكن متسخة كأولئك الذين رأيتهم في الشارع. كان منزل لو من طبقة متوسطة متواضعة، وكانت إضافة والد إبراهام حملا زائدا يفوق إمكانياتهم. كان بوسعهم تركه في الفراش طوال اليوم، لكنه أُجلس أمام نافذة مشمسة تطل على فناء، حيث النساء تغسلن الملابس وأطفال أكثر وكلاب يركضون في الأنحاء. حملتُ مقعدي إلى حيث الرجل العجوز وجلستُ بجانبه.

«مشاهد كثيرة، أليس كذلك؟» قلتها، فصنع صوتا يوحي بالموافقة. «سيد لو، لا أقصد مضايقتك أو إثارة المزيد من حزنك، لذا اغفر لي إزعاجك. إنما كنتُ أحاول معرفة ما حدث ذلك اليوم على طريق نقل الصوف في كولن، عندما قابلت أليزون إبلينح.»

«تكالسسسساحة. لنننتي ووو قللتي.»

شاهدته يتكلم من زاوية واحدة من فمه، جاهدة أن أفهم، ولكن لم يكن من الأمر طائل. كانت عينه الزرقاء ثابتة فوقي، وفيها رغبة أن أفهم ما يقول. وعندما لم أفعل، انخفضت عينه في حزن وبدت منكمشا على نفسه أكثر. وضعتُ يدي فوق يده الضعيفة. فنظر إلى خواتمي، الذهب والياقوت والزمرد التي تزين أصابعي.

«سيد لو، هل تعرف آليس جراي؟ أومئ بنعم إن كنت تفعل.»

نزلت ذقنه حتى عنقه، ثم ارتفعت مرة أخرى.

«هل تظن أنها ساحرة؟»

حرَّك وجهه يمينا، ثم عاد إليَّ، ثم حرَّكه مرة أخرى.

«هل لديك استعداد لقول ذلك في المحكمة؟ هل ستذهب إلى الجلسة؟»

لم يتحرك رأسه. ودارت عينه بعنف.

«هل دُعيت للشهادة في المحاكمة؟»

أومأ بنعم، أو هكذا فهمت. ليته استعاد قدرته على الكلام، لأمكنه حينها التحدث بطلاقة لتبرئة الآخرين.

«هل تظن أليزون ديفيس ساحرة؟»

أومأ بنعم ثم لا. بدا مُعذَّبا، واغرورقت عينه الزرقاء الثاقبة بالدموع التي سالت على وجهه. تحركت يده اليمنى تهم بتجفيفها، لكنها لم تزد في ارتفاعها عن صدره. أخرجتُ محرمة من جيبي وجففتها له. كان جون لو المسكين دمية حية؛ فيحضرونه باعتباره دليلا على ما حدث، ثم يعيدونه إلى مكانه، عاجزا عن استخدام صوته. كان بوسع أليزون ديفيس أن تختفي وما كان لأي من هذا أن يحدث، لولا أنها أصرت على المجيء يوما بعد يوم في الخان واعترفت شخصيا بذنبها. لا عجب أن عائلتها أرادت تحريف القصة: لقد كانت قصتها هي. هذا الرجل لم يكن يملك شيئا.

جلستُ مع جون لوقت أطول وشاهدنا النساء في الخارج ينحنين فوق أحواض الغسيل ويمسحن العرق عن جباههن. كانت الشمس باسقة، وكان عملهم يستلزم الكثير من الحركة.

لم يبالين باسمرار بشرتهن؛ لم يملكن خيارا آخر. في يوم كهذا، كنتُ سأسير بجوادي على ضفة النهر تحت ظلة من الأشجار أو حتى أجلس قرب النافذة مثل حلية، لا تزيد نفعا عن جون لو. تناهى صوت تحطم هائل من غرفة أخرى، ثم أخذت ليز في توبيخ أحدهم.

«جيني!» سمعتها تصيح.

نظرت واحدة من النسوة في الفناء في اتجاه المنزل، مظللة عينيها بكفها يدها. وجدتُ أنها الفتاة الصغيرة التي فتحت لي الباب، ولكنها لم تكن في حقيقة الأمر أصغر مني بكثير. شاهدتها تعود إلى المنزل، ومعها رائحة القلْي. فكرتُ في حياتها هنا، مع إخوة صغار تلعب معهم وأم يمكنها على حجرها أن تريح رأسها ليلا بينما يقرأ لهم والدها فقرة من الكتاب المقدس.

طرق باب المنزل، ثم لم تلبث جيني أن ظهرت لتبلغني أن الصبي الذي نقدته للاعتناء بجوادي يجب أن يعود إلى منزله. قمتُ مُتيبسة وشكرت جون لو، وذهبتُ لأشكر ليز أيضا، والتي كانت تطعم طفلا بملعقة في الدهليز، رابضة على الأرض.

«أعتذر عن إزعاجك،» قلتها وقد توجب عليَّ أن أخطو من قربها.

«أبدا. آمل أنكِ لم يخب أملكِ كثيرا. إن جون يتمنى لو أمكنه التكلم، أثق في ذلك. جميعنا يفعل.»

«هل سيحضر هو أو زوجكِ المحاكمة التي ستنعقد خلال بضعة أسابيع؟»

رفعت عينيها في حيرة.

«أية محاكمة؟»

«جنايات لانكستر، حيث تُحاكم الساحرات.»

«آه، نعم، ذكر إبراهام بالفعل شيئا عن ذلك. سوف أتحدث إليه.»

«طاب يومكِ، يا سيدة لو.»

خرجتُ من المنزل المظلم والخانق إلى الشارع المشرق، حيث يوجد نسيم على الأقل. طوّق العرق إبطيَّ واعتلى فمي. لم أقطع أي شوط في مشواري؛ شعرتُ وكأني كنتُ أسير حول مركز كل شيء في دوائر أوسع وأوسع، دون أن أجني شيئا. ومع جنيت الصغيرة جالسة في برجها العاجي بريد هول تنسج القصص، كانت تلف حبل المشنقة حول عنق أفراد عائلتها واحدا تلو الآخر. ولكنها كانت طفلة.

لم يتراءى لي أي مخرج لآليس. لم يكن جون لو يراها ساحرة غير أنه لم يستطع قول ذلك؛ ووالدها نفسه كان لا مباليا بمصيرها؛ ورئيسها في العمل لا يهمه سوى عمله. من سيدافع عنها إذن؟ أعملتُ عقلي طوال الطريق إلى المنزل، بيد أني شعرتُ كمن تحدق في حائط.

وبالوقت الذي وصلتُ فيه إلى باحة الإسطبل في جوثورب، شعرتُ بإرهاق من كانت تحمل جِوال طوب. إلا أن فكرة كانت تضطرم في عقلي مثل جمرة صغيرة. كنتُ فقط بحاجة لمنحها فضاء كافيا لتشتعل.

الفصل العشرون

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما وصلتُ إلى المنزل وجدتُ ريتشارد غائبا مرة أخرى، قد ذهب إلى بريستون، والتي افترضتُ أنها تعني بارتون إذ كانت أقرب مدينة. لم يترك إشعارا، وتساءلتُ هل تُراه غاضب مني، ثم تذكرتُ أنَّي أملك كل الحق في أن أظل غاضبة منه، ولكن لا أعرف لماذا كان الغضب عسير الاستدعاء. لم يكن عليَّ على الأقل أثناء غيابه أن ألتمس الحذر بشأن «سلوكي الجامح»، كما كان يسمِّيه. قبل كل هذا، كان يتسامح وحتى يُعجب بجولاتي الانفرادية، ونزعتي إلى مغادرة المنزل في هندام والعودة إليه بالوحل والبلل. ألا يرى أن تلك المساعي كانت صبيانية، أما الآن فهي لغاية؟ ذهبتُ إلى المكتب وأخذتُ حبرا وريشة وورقا إلى مخدعي.

صباح اليوم التالي، كانت السماء زرقاء زاهية ولا سحب فيها. حصَّلتُ الخطابين من مكتبي، وطويتهما في سترتي. بين ليلة وضحاها تورمت أصابعي، وكان في صدري إحساس غريب، وكأنما شُدَّت أطرافه من الداخل مثل ملاءة سرير. تجاهلت الفكرة الملحة بأن هذه قد تكون علامات لغروب شمس حياتي الدنيا: أن الحياة

الآخرة التالية تقترب أكثر وأكثر. ربما كان الموت في عقبي مباشرة، يخطو معي، ويتحرك في ظلي، وعند أية لحظة سيضمني في عباءته. استجمعتُ جرأتي، وألقيت بنظرة سريعة إلى برودنثيا ويوستيتا، ونزلتُ السلالم.

*

أجابت كاثرين نويل الباب، وعيناها مُتسعتان من القلق.

«فليتوود؟ عدتِ بهذه السرعة؟ تفضلي بالدخول.»

اتكأتُ على إطار الباب بإحدى يديَّ. وبالأخرى أمسكتُ بطني.

«كاثرين، أرجوكِ... أحتاج إلى المساعدة. طفلي... إنني أتألم. أحتاج إلى قابلتي.»

«هل أنتِ بمفردك؟ أين ريتشارد؟ فليتوود، إنكِ في الشهور الأخيرة، ما عاد يجدر بكِ أن تركبي الخيل الآن.»

كان في صوتها خوف، وعاونتني في دخول المنزل. أطلقتُ أنَّة أخرى.

«أين تشعرين بالألم؟»

«بدأ البارحة، حاولتُ تجاهله ولكن... لم يحن وقت الولادة بعد، كاثرين، مازال الوقت مبكرا جدا.»

«إلى أي حد تتألمين؟ هل يأتي الألم في نوبات؟»

«كلا، إنه متواصل.»

تركتها تقودني إلى البهو الرئيسي، حيث كانت تطرز وسادة. على الطاولة السحَّابة تناثرت دبابيس وكشتبانات وبكر خياطة، وتذكرتُ برج مالكن، وكيف أن كل ما أرادته

أليزون ديڤيس هو بضعة دبابيس. ساعدتني كاثرين في الجلوس على كرسي.

«هل أتصل بحكيم؟ طبيب؟»

«كلا. أريد قابلتي، يا كاثرين. منذ أُخذت آليس إلى السجن، وحالتي في تدهور مستمر. كنتُ على ما يُرام حتى اعتقالها. قال روجر إنه سيحاول إخراجها، لكني أحتاجها الآن معي في جوثورب. سألته أن تمكث معنا حتى المحاكمة – لن أدعها تذهب إلى أي مكان، أتعهد وريتشارد بذلك. أرجوكِ، اسألي روجر.»

قلتُ هذا بين أنفاس متقطعة، وناولتني كاثرين قدحا من الجعة أحضرته خادمة أمينة. مقارنة بالحياة والفوضى في منزل عائلة لو، كان المكان هنا هادئا ومُنضبطا كما جوثورب. قطَّب والد روجر حاجبيه بصرامة في وجهي من لوحته المُعلَّقة.

«إن روجر مُسافر – نسيتُ إلى أين. آه، يا فليتوود، إنني بغاية القلق. أخبريني، ماذا في وسعي فعله؟»

قلتُ بوهن، «أحتاج إلى آليس. أريد إخراجها من السجن. وحدها من يمكنها أن تعالجني؛ إنها تعرف الأعشاب اللازمة، والأدوية المناسبة.»

«ربما يستطيع الصَّيدلاني المساعدة في غضون ذلك؟ سأرسل الحوذي لإحضاره.»

«كلا. أريد آليس. وحدها يمكنها مساعدتي. وحدها آليس. لا وقت لمراسلة روجر، أو القلعة – يجب أن أذهب بنفسي حتى يمكنها مساعدتي.»

«كلا، يجب أن تعودي إلى المنزل - ولكن بعد أن ترتاحي هنا بضعة أيام. سوف أعد لكِ غرفة وعندما يعود روجر سأخبره أن آليس لا بد أن تخرج من السجن كرامة لصحتك.»

فكرتُ في الحبس بإحدى غرف روجر. إنه لن يكون أفضل كثيرا من سجن لانكستر: يمكنه أن يحبسني ويرمي المفتاح.

سألتُ بضعف، «كاثرين، هل تظنين أن بإمكانكِ إقناعه بإخراجها؟»

كان في عينيها تعاطف غامر، وفي وجهها المتغضِّن جدِّية. بحثت عاجزة عن كلمات لتواسيني.

«كانت لديَّ قابلة ممتازة من ليفربول، ولكن مضى على ذلك سنوات عديدة، لن أعرف طريقها الآن...»

«كلا، لا بد أن تكون آليس.»

شدَّت على يديها.

«فليتوود، إنني... إنها سجينة لدى الملك، لا أرى كيف...»

«حتى موعد المحاكمة فقط،» قلتها بعجالة. «أخشى أن حياتي في خطر.»

كان في صوتي خوف، لأني كنتُ أقول الحقيقة هذه المرة.

«لكن المرأة تواجه تهمة ممارسة السحر. إن عقوبة ذلك هي الموت؛ لن يُسمح لها بحرية التجول قبل المحاكمة. سوف تختفي!»

شعرتُ فجأة أن شخصا يُراقبنا، وهو ليس واحدا من الوجوه المرسومة في أرجاء البهو. نظرتُ نحو الباب ورأيتُ عينين باهتتين واسعتين تستقبلاني بالتحديق. لم تبعد جينيت ديڤيس عينيها، وكانت نظرتها مليئة بحكم يفوق سنَّها. كنتُ أعرف سخافة أن تخيفني طفلة، لكنها لم تكن طفلة عادية. فهي قد سرقت قلادتي، وكيف فعلتها دون أن يلاحظها أحد؟ لم أكن لأرغب في أن تبقى بمنزلي، وتمشي بخطى لا تُسمع، وتظهر عند الباب كالأشباح.

«كاثرين، هلا طلبتِ من حوذيِّك أن يتفقد جوادي؟ لقد أهملته تماما إثر ترجلي أمام الباب في عجالة لأدركك؛ آمل أنه لم يهم على وجهه.»

انتفضت كاثرين، فأسرعت تغادر الغرفة في سعيها الحثيث للمساعدة. وعند ذهابها، انسلَّت جينيت إلى الغرفة وتوجهت إلى المدفأة، فجثت أمام واحد من الكراسي الخشبية. ورأيتُ فيما يبدو أنها تحمل قصاصات من القماش، وشرعت ترتبها على المقعد. وفي عجزي عن إخفاء فضولي، نهضتُ وذهبتُ إليها.

«ما هذه الأشياء، يا جينيت؟»

لاحظتُ أنها معقودة بطريقة تحاكي أجساد البشر – عقدة كبيرة في الأعلى دلالة الرأس، تتفرع منها عقد أخرى ومسافات بينها دلالة الذراعين والساقين. سبقت لي رؤية هذه الدمى في الكنيسة، تُدسُّ في أيدي الرضَّع لإسكات بكائهم. وحيث أني رأيتُ منزلها بالفعل، فقد

شعرتُ يقينا أن جينيت لم تكن طفلة ترعرعت وسط الألعاب.

سألتها، «من أعطاكِ هذه الأشياء؟ هل هو روجر؟»

«بل صنعتهم،» قالتها بصوتها الأجش الصغير.

«وحشوتهم أيضا، يا لذكائك. بمَ؟»

«صوف الغنم.»

شعرتُ يقينا أنها لم تحضرهم إلى هنا إلا لتريني إياهم، مثل قطة تأتي بفأر لسيدها. نظرتُ إلى فستانها الخفيف عديم الشكل؛ التعاسة والإهمال في كل ملمح منها. بسبب هذه الطفلة، كانت صديقتي تتعفن في مكان لا يدخله الضوء قط، وتنتظر إعدامها بحبل المشنقة. بسبب هذه الطفلة، كان آخرون في ذاك المكان معها. أردتُ أن أمسك بكتفيها النحيلين وأهزها بعنف يجعل أسنانها تصطك وعيناها تدوران في محجريهما. أردتُ أن أصرخ في وجهها حتى تسحب كل كلمة وكل كذبة قالتها بلسانها الحاد الصغير. لم أطق النظر إليها. فعدتُ إلى الكرسي.

كانت جينيت تهمس بشيء ما، وقد جعل صداه شعر قفاي ينتصب.

«ماذا تقولين؟» سألتها بحدة جعلتها تلتفت نحوي في دهشة وترمقني بتلك العينين الواسعتين المُزدرتين.

«صلاة لدرِّ النبيذ،» أجابت بوجه هو مثال البراءة.

«ماذا تقصدين بذلك؟»

«جروتشيفيكسوس اوك سينيوم فيتام ايترنام. آمين.»

حملقتُ في وجهها، وأنا أربط بين المفردات. كنتُ ضعيفة في اللاتينية لأني لم أهتم بالقراءة. شيء عن الصليب، والحياة الأبدية؟ تساءلتُ أين تعلمت ذلك، لأن الكلمات كانت كاثوليكية خالصة. هل قالتها أمام روجر؟ وإن حدث، فهل سُجنت عائلة ديڤيس لمجرد أنهم كاثوليك؟ ولكن لا منطق في هذا - فنصف عائلات پندل كانوا كاثوليكا. وروجر يعرف ذلك، فلا يتعرض لهم طالما أنهم يحضرون في الكنيسة كل أحد ولا يرفعون أبصارهم.

اقتربت جينيت مني وتناولت القدح الفارغ جواري. ثم وضعته أمام الشفا الوهمية لدماها ليشربوا.

«أين تعلمتِ ذلك، يا جينيت؟»

فقالت بلثغة، «جدتي.»

«تقولين ذلك فتحضر لكِ شرابا؟»

«كلا،» قالتها بحزم. «الشَراب يأتي.»

«بأية طريقة؟»

«بطريقة عجيبة جدا.»

كل شيء قالته كان غير مألوف. هل كنتُ حاذقة هكذا وأنا طفلة؟ لا أظن ذلك البتة. لكن شيئا في الطريقة التي صوَّبت بها كلامي أثارت ذكرى بعيدة، ثم أجلتها. أرانب ميتة؛ وآليس تقرفص أمامهم.

لم أقتلهم. هم قُتلوا.

ما سبب حرصهم على التفريق بين المعنيين؟ ربما كانت جينيت تحتاج إلى أسلوب تعامل مختلف. كما قال

ريتشارد من قبل عن طيوره، الولاء يُكتسب، ولا يُطلب. تذكرتُ أيضا تهديد روجر: أنه يمكن حثُّ جينيت على «تذكر» آخرين حضروا في منزلها. كانت الفكرة أخطر من أخذها في الاعتبار.

«جينيت؟» اختلستُ نظرة سريعة إلى الباب. «أظنُّكِ قد تعرفين صديقتي. آليس جراي؟»

ظلت منكفئة على دُماها. وشعرها الخفيف الباهت منسكب من تحت قلنسوتها إلى آخر ظهرها. لم ترد، ورتبت عرائسها القماش، وهي تنفض عنها غبارا وهميا.

«هل تعرفينها، يا جينيت؟»

رفعت كتفيها: انصياع.

«تعرفينها إذن؟» ملتُ للأمام. «ألا تظنين أنكِ ربما أسأتِ فهم وجودها في منزلكِ ذلك اليوم، في برج مالكن؟»

«سرق جيمس شاة لكي نأكلها،» قالتها مشيرة إلى واحدة من دُماها. كانت الدمى تتكئ إحداها على الأخرى كالسكارى. ثم أشارت إلى أخرى. «أمي أمرته.»

لعقتُ شفتيَّ.

«هل تتذكرين وجود آليس في منزلك؟ هل هي صديقة لوالدتك أم أنكِ لم تريها من قبل؟»

وعندها سمعتُ خطى على بلاطات الأرضية، وأطلَّت كاثرين تحمل صينية.

«قدح آخر من الجعة. هل تعافيتِ، يا فليتوود؟»

تراجعتُ في مقعدي خائبة، وحدَّقتُ في الطفلة التي

أمامي. كانت جينيت تبتسم، وعندما أدركتُ علاما، غمرتني قشعريرة، فتسللت إلى كل جسدي.

«الشراب يأتي،» قالتها بسعادة، ثم عادت إلى دُماها.

«جينيت، هلا غادرتنا؟» بها سألت كاثرين في صوت مُجهد.

رمقتها الطفلة بنظرة، فضمَّت إليها دُماها بذراع واحدة، مُرسلة القدح بقعقعة إلى الأرض. لم ترفعه، وانسلَّت بصمت من الغرفة. تنهَّدت كاثرين بعمق، ولاحظتُ بوضوح التجاعيد حول فمها، والإنهاك الطفيف في عينيها.

سألتُ بلطف، «إلى متى ستمكث معكِ؟»

هزت كاثرين رأسها.

«لا يعرف روجر بالتحديد.»

«هو قراره بلا شك؟»

«في الوقت الذي تقضيه هنا فهي... مفيدة له. لذا أفترض أنها ستمكث إلى أن تصبح غير مفيدة.»

فاجأتني فظاظتها. تراجعت كاثرين في مقعدها وتنهدت، ثم مدت يدها إلى قدحها واحتسته بظمأ.

عندما أفرغته مسحت فمها وقالت، «لن تتخيلي مدى سعادتي عندما تنفض المحكمة وينتهي كل هذا.»

«ولكن كيف تتعجلين أمرا قد تذهب ضحيته أرواح بريئة؟»

«بريئة؟» كانت كاثرين مشدوهة. «فليتوود، لا أنت ولا أنا نملك الفصل في ذلك.»

«ألا نملـك أعينـا وآذانـا مثـل أزواجنـا، ومثـل الرجـال الذيـن سـيدينونهم؟»

«تتحدثين وكأنكِ تعرفين النتيجة بالفعل.»

«لكننـي أعرفهـا، الجميـع يعرفهـا! علـى مـدار التاريـخ متـى عوملت السـاحرات برأفـة؟ كاثرين، لا بـد أن نفعل شـيئا.»

أطلقـت كاثريـن ضحكـة صغيـرة بهيجـة جعلتنـي أرغـب فـي صفعهـا.

«فليتـوود، إن رأسـكِ ملـيء بالخيـالات. تتحدثيـن وكأننـا فـي مسـرحية، ولـكل واحـد فينـا دور يلعبـه. أنـتِ وأنـا لا نملـك أدوارا فـي قضـاء الملـك. نحـن ندعـم أزواجنـا.»

فهتفتُ، «لا يصـح أن نقـف مُتفرجيـن ونتـرك هـذا يحدث! لا بـد أن نفعـل شـيئا!»

«فليتـوود، أرجـوكِ،» قالتهـا كاثريـن مُلاطفـة. «سـوف ترهقيـن نفسـكِ وتؤذيـن نفسـكِ وطفلـك. هـل تسـمحين لـي بالتبسـط فـي الحديث؟» كان ذلـك مُفاجئـا، ولـم أملـك أمامـه سـوى الإيمـاء. «إنَّ ريتشـارد يحبـكِ كثيـرا. إنـه مغـرم بـك. كلاكمـا محظـوظ برفقـة الآخـر فـي الـزواج، وهـذا ممـا لا نـراه كثيـرا فـي طبقتنـا.»

لوهلـة تسـاءلتُ إن كانـت تعلـم بأمـر جوديـث، أم أن روجـر أخفـى الأمـر عنهـا أيضـا.

«يجـب أن تجعلـي اهتمامـكِ فـي تكويـن أسـرة، والقيـام بـدوركِ كزوجـة. النـاس يتناقلـون الـكلام، كمـا تعرفيـن، يـا فليتـوود. وأعلـم أننـا فـي منـأى عـن هـذا هنـا باعتبارنـا مـن الطبقـة الأرسـتقراطية. نحـن بعيـدون عـن المـدن

الكبيرة، ونملك حدا من الخصوصية في هذه الناحية من البلاد، ولكن هذا لا يعني أن بوسعنا التصرف دون مراعاة للأصول.»

تململتُ في مقعدي، وصمت القاعة يرن في أذني. انتظرتُ كاثرين حتى تلعق شفتيها قبل أن تستأنف.

«أنتِ شابَّة جدا ومخلصة ومحبوبة. أنتِ سيدة أفخم بيت في المنطقة. هذا الطفل سيجعل حياتكِ ملآنة وغنية وسعيدة. يجب أن تحرصي على شغل نفسكِ بالأشياء التي تستحق، كالأسرة والبيت، لا أن تنفعلي بسبب أشياء لا تملكين سبيلا عليها.»

شعرتُ وكأنها عربة داستني. ماتت الكلمات في حلقي، وضاعت في قلبي المحزون.

«أريد أن أساعد صديقتي،» كان كل ما استطعت قوله دون أن أختنق. «وإلا ستموت. وأموت معها.»

عاد الإدراك ليلتهمني من جديد - أني من غير آليس، قد أجد بدوري حبل المشنقة ملتفا حول عنقي. كانت قد وعدت بإنقاذي، وأنا وعدتُ بإنقاذها، وكانت فرص حدوث هذين الأمرين قد تقلصت الآن حتى لم يعد لها تقريبا أي مغزى. أدركتُ أنني صرتُ الآن أفكر يوما بيوم. عندما حاولتُ تخيل شكل طفلي، أو تخيل نفسي أحمله بين ذراعي، عجزت. وعجزتُ أيضا عن تخيل حياتي بعد خمسة أعوام أو عشرة أو عشرين. اقترب موعد محكمة الصيف، وكانت حياتي كما عهدتها محصورة في هذه الأسابيع القليلة.

«لا شيء بيدي، يا فليتوود.» كان صوت كاثرين رفيقا. «لن يطلق روجر سراحها. إنها متهمة بالقتل عن طريق السحر - وهي جريمة عقوبتها الإعدام.»

«لقد أساء روجر فهم الأمر. لقد تلاعب بها كل من قابلتهم تقريبا في حياتها. لا يمكنني أن أخذلها مثل الآخرين. يجب أن تأتي معي إلى القلعة وتتشفَّعي لها بالخروج. أنتِ زوجة روجر - لا بد أنكِ تتمتعين ببعض النفوذ.»

سمعتُ نفسي، وعرفتُ أنه بلا جدوى، وتهدَّلت كتفاي في بؤس مُذل.

«أنتِ مغمومة. يجب أن ترتاحي. دعيني آخذكِ إلى إحدى غرفنا.»

«كلا، شكرا لكِ. يجب أن أغادر.»

«لا يمكنكِ امتطاء جوادكِ الآن، لستِ بحال جيدة.»

«سأسير ببطء.»

ابتسمت كاثرين. «أنتِ أقرب لرجل منكِ لامرأة. إنني أصر على أن يرافقكِ حوذيُّنا.»

مددتُ يدي إلى داخل تنورتي لأخرج الخطابات التي كتبتها تحت ضوء شمعتي.

«أريد منكِ معروفا، يا كاثرين.»

«آه، يا فليتوود... ماذا كنتُ أقول الآن؟»

«أرجوكِ. هذا طلبي الوحيد.»

أدخلتُ الخطابات في يديها. كانت الأختام تشبه بقع دم.

«متى يذهب روجر مرة ثانية إلى لانكستر؟»

«خلال يوم أو يومين، ربما. هل هذه له؟»

«كلا، ولا يجب أن يراها. أريدكِ أن ترافقيه في المرة القادمة التي يذهب فيها. قولي أنكِ ترغبين في رؤية مناظر جديدة وتريدين التبضع - أي شيء. ولكن اذهبي، وعندما تصبحين هناك، عليكِ البحث عن سبيل لزيارة القلعة، بمفردك. إنهم يعرفون هويتي؛ لا بد أن روجر قد نبههم، ولهذا لا يمكنني فعلها بنفسي. عليكِ تسليم هذه الخطابات إلى سكرتير القيِّم توماس كوفيل في القلعة. لا تسلميها لأحد غيره - ضعيها في يديه، وأخبريه أن يرسلها بصفة عاجلة كلٌّ إلى المعنون إليه. إن طرح السكرتير أية أسئلة، فاستخدمي اسم ريتشارد، وقولي إنها مُرسلة منه.»

انعقد حاجبا كاثرين في قلق.

«إنني لا أفهم.»

«أرجوكِ، يا كاثرين. لم أكن لأطلب منكِ ذلك لولا أنها مسألة حياة أو موت.»

«ولا احتيال في هذا؟ لا شيئا يشوه اسم زوجي؟ لماذا لا يجب أن يعرف بشأنها؟»

«لا يجب وحسب. إن كنتِ لا تريدين تلطيخ يديكِ بدمي عندما أموت على فراش الولادة، فافعلي هذا من أجلي.»

حدَّقت إحدانا في الأخرى، وكان في عيني كاثرين وميض لشيء يشبه التمرد، ولكن ليس تجاهي - أمكنني رؤيتها تجرب طعمه، وتعاين رد فعلها تجاهه.

«سأفعلها.» قالتها وهي تومئ برأسها.

كان بوسعي تقبيلها، وكدت أفعلها، غير أني اكتفيتُ بضم يديها بين يدي. دسَّت الخطابات في تنورتها.

قلتُ، «أشكركِ ألف مرة.»

«سيعود روجر من يوركشاير غدا، كما أظن، ما لم يُؤجل الإعدام.»

«إعدام؟»

«ألم تسمعي بالخبر؟ لقد حكموا بإدانة المرأة جينيت بريستون في قتل والد توماس ليستر. سوف تُشنق اليوم.»

*

خلال الأيام التالية، شغلتُ دوري القديم شبحا لجوثورب، أتنقل بين النوافذ المختلفة مُترقبة عودة ريتشارد. وعندما رأيته يقترب من الإسطبلات، راقبتُ لوهلة تبختره السلس، إشراقته بعد رحلته إلى بريستون. يا لثقته في أنه لا يُمس، يا لسهولة تحركه في الحياة. ذهبتُ لأفتح له. وبدا مُندهشا لرؤيتي أفتح الباب، ثم قرأ شيئا في وجهي، لأنه توقف.

«ما الأمر؟»

«أدخل.»

امتقع وجهه.

«أنتِ لست... لم يحدث أن...؟»

«لا، لا شيء من هذا القبيل، الطفل بأمان.»

اجتاحه الارتياح، وارتقى السلَّم، فخلع قفازاته بينما ساعدته في خلع عباءته. أخذته عبر المنزل إلى غرفة

الضيوف وأغلقت الباب. كان پاك يستلقي بتكاسل أسفل النافذة، وأجبر نفسه على النهوض لتحية ريتشارد، فلعق يديه بلسانه الكبير.

«هل تذكر ذلك اليوم عندما جاء روجر لتناول العشاء وأخبرنا عن قضاة الملك في المحكمة - آلثام وبروملي؟»

«نعم،» كان رده المرهق.

«لقد دعوتهما لتناول العشاء في جوثورب.»

خيَّم صمت مؤقت، عاد فيه پاك مُتسكعا إلى بقعته الدافئة. عدَّل الطفل وضعه في بطني، وأرحتُ يدي عليه.

«دعوتهما لتناول العشاء هنا. في هذا المنزل.» أومأتُ.

وحدَّق بي ريتشارد. «لأي غرض؟»

«لغرض إلقاء الضوء على محنة ساحرات پندل.»

لم يرمش ريتشارد. كان صوته هادئا.

«إنكِ تصعِّبين الأمور على نفسك، يا فليتوود. على كلينا.»

«لا يتعلق الأمر بي، أو بنا. إنه يتعلق بآليس وكيف أنها لم تقتل طفلا.»

«هذا أمر تقرره هيئة المحلفون، لا أنتِ، أو روجر.»

«لقد قرر روجر بالفعل نيابة عن الجَميع!» بها هتفتُ. «لقد قرر بالفعل!»

«اخفضي صوتك.»

شرع ريتشارد يروح ويجيء، وغضبه لحن عال وواضح في الغرفة. انتشر اللون الأحمر في خدَّيَّ وشعرتُ بغضب حام يئزُّ في رأسي. التمستُ مقعدي، فجلستُ عليه ببطء.

تهانف پاك إلى جواري، محاولا الوصول إلى يدي. أرحتُ كفًّا مرتجفة على رأسه وغطيتُ وجهي بالأخرى.

«متى يأتون؟»

«عند مرورهم بلانكستر في الأسبوع القادم.»

«وهل يعرف روجر بهذا؟»

«كلا.»

أمسك بظهر الكرسي وهز رأسه.

«إنكِ تسيئين إلى اسم شاتلوورث. لقد سمحتُ لكِ لوقت أطول من اللازم بالجري هنا وهناك مثل طفلة، والآن هذا.»

«أنا أسيء إلى عائلتنا؟ إنه أنت من يملك عائلتين! »

«اللعنة عليكِ، يا فليتوود، حسبتُنا انتهينا من ذلك الأمر. كثير من الرجال يتخذون عشيقات؛ ليس هذا بالأمر غير العادي.»

«نحن عاديُّون إذن، أليس كذلك؟ وليس هذا بالأمر الذي يمكن أن ينتهي. إنني أحاول مساعدة امرأة بريئة - ما الخطأ الكبير في ذلك؟»

أخذ ريتشارد يروح ويجيء عبر ذرات الغبار التي تجلَّت في عمود من ضوء النهار، فيخطو داخل الشعاع ثم يخرج منه؛ نور ثم ظلام.

«لماذا عليكِ باستمرار تقويض زوجك؟ هل تعرفين الصورة التي تظهرينني بها؟ وبسبب فتاة وضيعة من العامة لا تعرفينها سوى بالكاد. هل تستحق اهتمامك؟ امرأة التقيتها منذ شهور فحسب. لماذا عليكِ إضحاك الناس

عليكِ، علينا، من أجل امرأة قدمت لكِ بعض الأعشاب؟»

«إذا لم تفهم هذا الآن، فلن تفهمه أبدا: إن آليس بريئة. ولا أحد يصدق هذا سواي! لا أحد يريد المساعدة! إنني أحتاجك، يا ريتشارد. من ستختار - زوجتك أم صديقك؟»

«كان روجر صديقكِ أيضا! «

«لا أستطيع البقاء صديقة لذلك الرجل بعد ما فعله، وأنت أيضا لا يجدر بك ذلك.»

«كيف تقولين هذا؟ إن روجر أقرب لأبٍ لي. لقد اعتنى بنا؛ ساعدنا في الأوقات العصيبة. يؤمن بأني أملك مؤهلات العمدة؛ ويراني عضوا في مجلس العموم يوما ما. إنه يؤمن بي، يا فليتوود، كما لم يفعل أي أحد قط.»

«يجدر بك رؤية السجن الذي يبقهم فيه، وحينها لن تمجِّده بهذا القدر. إنه قطعة من الجحيم - مظلم ورطب، وهم محبوسون هناك بلا ضوء، وينامون وسط القيء والغائط، وهناك جرذان وغيرها مما لا يعلمه سوى الرب. لقد ماتت إحداهن هناك! أين قلبك؟ هل صار مكانه خواءً في صدرك؟ أين الرجل الذي تزوجته؟»

ما قاله ريتشارد بعدها جمَّد الدم في عروقي.

«سيبدأ التزامكِ فراش الولادة منذ هذه اللحظة. لن تخرجي من مخدعكِ. ستبقين هناك إلى أن يولد ابننا. لقد أظهرتِ غباء وحماقة بعدوكِ فوق حصانكِ هنا وهناك، فجعلتِ من نفسك مصدر إزعاج وعرضتِ نفسكِ

للأذى. إنكِ لا تفكرين في ابننا، لا تفكرين سوى في نفسك.»

«سوف تعاقبني إذن لمحاولتي إنقاذ حياة صديقتي؟ كنتَ أكثر حزنا على طائرك من مصير امرأة بريئة. ولسوف تفضل موتي على أية حال، أليس كذلك؟ ستكون حياتك أسهل من غيري هنا، وصداقتك بروجر مُصانة. ربما تتزوج جوديث وتنسى كل شيء عني.»

تذمَّر پاك فمسَّدته بشرود. كان وجه ريتشارد مفعما بعذاب شخصي. وقبل أن يتأتَّى له الرد، غادرتُ الغرفة، وأغلقتُ الباب خلفي حتى لا يصله بكائي.

الفصل الحادي والعشرون

جاء يوم الدعوة، وجاش المنزل همة ونشاطا، لكني لم أفعل. خضعتُ لرغبة ريتشارد والتزمتُ الفراش، ومع ذلك دقَّ قلبي سريعا حتى في رقودي. كانت صفحة الألم النحيلة ما تزال تطوق صدري، رقيقة ولكن ضيقة، ونبض الوريد في عنقي.

أتاني كابوس جديد. وفيه كنتُ في زنزانة الساحرات. حتى عندما فتحتُ عيني، كان السواد أحلك، وأشد ظلاما مما لو أغلقتهما. تناهى صوت ماء يقطِّر، وشخص يبكي دون نحيب في الزاوية. لم أتحرك لأن الأرضية كانت مبتلة، ويغطيها ما يشبه ملمس القش الذي تكسَّر تحتي برقة. وفي نفس اللحظة اللي ظننتني سأموت فرَقا، سمعتُ صوتا قريبا مني، في غاية الدنو، لشيء يأكل. ليس إنسانا – بل شيء أكبر، مثل كلب أو حيوان ما آخر. أنصتُّ لأسنانه تمزق اللحم بيسر، والحيوان يتلذذ بكل لقمة. ذاك الصوت أرسل اضطرابا في معدتي، وخدرا في جلدي، واستيقظتُ غارقة في العرق والخوف، وقلبي يطرق قفصي الصدري.

لم يصلني رد من اللورد بروملي واللورد آلثام، ولم

أكن أنتظر واحدا على أية حال. لم أتمكن في سجني من سؤال كاثرين إن كانت قد أجرت طلبي. ولما طلع الصباح، كانت أعصابي قد صارت هائجة كحفنة مفاتيح. جلستُ في مخدعي وتخيلتُ ما يحدث أسفلي بطابقين وثلاثة: خدم المطبخ ينتفون ويقطعون ويقشرون ويطبخون بالمرق؛ وجيمس ينتقي زجاجات النبيذ من القبو؛ الكؤوس وأدوات المائدة تُلمَّع، والسكاكين تُسن. إذا لم يأتيا، فسوف تكون وليمة فخمة لفردين.

لم أرَ لريتشارد أثرا: لم يكن يتحدث معي. نزلتُ من على السرير وتوجهتُ إلى المرآة، عازمة على إصلاح شعري الذي لم يُمشَّط منذ أسبوع. آلمني ذراعاي، وشعرتُ كمن لم تنم منذ أيام، بينما هذا في الحقيقة هو كل ما فعلته. نظفتُ أسناني وقصدتُ غرفة ملابسي، التي لم أعد أجد فيها أية متعة. في الزاوية تراكم الغبار فوق كراس رسمي.

وما إن انتهيتُ من ارتداء ثوب تفتا لونه ذهبي فاتح، حتى بدت فكرة النزول إلى الطابق الأرضي بعد أيام عديدة قضيتها في مخدعي، بدت فكرة غريبة - كنت قد اعتدت على حجمها. وقبل منتصف النهار بقليل، طرق باب مخدعي. أدخل ريتشارد رأسه، وجهه متجهم.

قال، «هل أنتِ قادمة؟»

وقفتُ. «هل هما بالأسفل؟»

«كلا، لكن على السيدة التي دعتهما أن تكون في الاستقبال.»

أُعدَّت البهو الرئيسي لوليمة، فتألقت بأواني الفضة

والكؤوس ومفارش الطاولة الجديدة. أُترعت زبديات الفاكهة بفراولة وبرقوق وتفاح وكمثرى وخوخ. وطقطقت نار خفيضة في المدفأة لتطرد البرد الطفيف من الغرفة الكبيرة، وشعشعت السماء باللون الأزرق في كل نافذة. وقفنا ريتشارد وأنا في صمت واجم ننظر إلى كل هذا، ثم ظهر جيمس من الباب الأيمن البعيد.

«سيدي، لقد وصل أول ضيوفك.»

ودخل روجر البهو الرئيسي.

تقدَّم ريتشارد لتحيته.

«مرحبا، يا فليتوود،» قالها بعد مصافحة ريتشارد. وكان تعبير وجهه وديعا. «هل أصبحتِ أفضل حالا؟»

اختلستُ نظرة سريعة إلى زوجي، الذي خانني مرة أخرى، ففضَّل عليَّ صديقه، لكنه أبقى عينيه على روجر.

وأخيرا تدبَّرتُ أن أقول، «تحسنتُ بقدر كبير، شكرا لك.»

«بل الشكر واجب لكاثرين.»

ابتسم باسترخاء. ومضى ريتشارد ليجلب له كأسا من النبيذ.

سأل روجر، «لم يصل قضاة الملك بعد؟»

«ليس بعد. في أي ساعة حددتِ لهما موعد الغداء، يا فليتوود؟»

«ظهرا، على ما أظن.»

قال روجر مُخاطبا ريتشارد، «مؤسف أن اليوم هو أحد أيام الصيد. كان آيلا ممتاز ذاك الذي اصطدته في يوم الخميس.»

«كان ذلك عملا مُعطِشا. أظنني سأنتظر لحين اعتدال الجو قبل الانطلاق في رحلات الصيد الطويلة مرة أخرى. لقد ازدادت الخيول غباء بسبب الحر.»

«إن مهارتك تغلب أية خيول غبية. يمكنك الصيد بحنكة على بغل.»

ضحك ريتشارد وقرع كأسه بكأس روجر. لم يكن قد أحضر لي كأسا، فمضيتُ نحو جاكوب، خادمنا الشاب ذو الخدين الحمراوين وعينيه المشرقتين، الذي لاحظ تجاهل ريتشارد لي فتضرَّج حرجا. أخذتُ كأسا.

صنعنا مثلثا غريبا حيث وقف الرجلان قريبين أحدهما للآخر وأنا بعيدة عنهما، أتنفس عميقا لأخفف من توتري، ثم ظهر جيمس مرة أخرى عبر الباب المنخفض.

«السير إدوارد بروملي والسير جيمس آلثام.»

قام بانحناءة بسيطة وتراجع، ثم وكأنما هما ممثلان يظهران على خشبة المسرح كلٌّ من جانب، شُغل مدخلا البهو الرئيسي في وقت واحد.

على اليسار، وقف إدوارد بروملي في رصانة وقد دسَّ إبهاما في الزنار المخملي الذي أحاط بخصره. كانت سترته الداخلية رفيعة التطريز، مع شُرطٍ في كمَّيه، وياقته العريضة معقودة تحت ذقنه بشريط أخضر. واكتمل الزي بقبعة سوداء عريضة، لمعت تحتها عيناه بابتهاج. كان في عمر يتجاوز الكهولة -أربعون على الأقل- لكنه احتفظ بوسامته.

وعلى مسافة عشرة أقدام منه في المدخل الآخر

وقـف جيمـس آلـثـام. كان أكبـر مـن برروملـي ربمـا بعشـر سـنوات، إنمـا أطـول قامـة وأنحـف قوامـا، مُزدانـا بعبـاءة فضفاضـة بـلا أكمـام تتدلـى مـن كتـف واحـدة. كانـت سـترته مـن حريـر ذي لـون كريمـي جميـل، مُفصَّلـة علـى جسـده مـع سـوارين عريضيـن. وسـرواله القصيـر مـن قطيفـة سـوداء بغـرز ذهبيـة تناسـقت مـع سـترته، وعُقـد شـريطان حـول كل مـن ركبتيـه الهزيلتيـن. لـم يرتـد قبعـة، وكان لـه شـعر رمـادي وعينـان داكنتـان فـي وجـه مُتغضِّـن.

ثـم وكأنهمـا سـمعا إشـارة صامتـة، تقـدم كلاهمـا. اتجـه ريتشـارد إلـى السـير إدوارد أولا، فهرعـتُ إلـى السـير جيمـس الأكبـر سـنا فـي نفـس الوقـت، كمـا اقتضـت اللباقـة مـع الضيـوف ذوي الرتـب المتسـاوية.

وقلـتُ، «سـيدي، شـكرا لقدومـك إلـى جوثـورب. آمـل أن رحلتـك إلـى هنـا كانـت ممتعـة؟»

«سيدة شـاتلوورث، شكرا لكِ على دعوتنا. كان كرما بالغا منكِ أن تقومي باستضافتنا أثناء تواجدنا في الشمال.»

ظلت عيناه الداكنتان تنظران في عينيَّ فيما قبَّل يدي.

قاطعنا صوت الوصيف، في مفاجأة لي.

قال مُعلنا، «السيد توماس بوتس.»

نظـرتُ جهـة البـاب، ويـدي مـا زالت في يد السـير جيمس، ورأيـتُ شـابًّا طويـل القامـة ونحيفا يقف في المدخل.

«سـيدة شـاتلوورث، آمـل ألا يُزعجـكِ أنـي سـمحتُ لنفسـي بدعـوة مرافقنـا الدائـم خـلال جولتنـا؟ السـيد بوتـس هـو كاتـب المحكمـة.»

توجَّه الشاب بانحناءة أنيقة نحوي.

قلتُ، «بالطبع، مرحبا، يا سيد بوتس.»

مضى الكاتب إلى الداخل وأجال نظره في الغرفة، وهو يقيِّم دروع النبالة على الحائط وشرفة المطربين في العليَّة. قد يكون أصغر من ريتشارد، ربما في الحادية أو الثانية والعشرين.

«أيها السادة.» كان دور روجر في تحية ضيوفنا، فانسل بنعومة لمصافحتهم. «مرَّ دهر منذ آخر مرة اجتمعنا. متى كانت... الثلاثاء؟»

ضحكوا جميعا بصفاء وأُحضرت كؤوس النبيذ للوافدين الثلاثة.

سألتُ الشاب، «سيد بوتس، أترتحل مع المحكمة؟»

«نعم،» بها أجاب بصوت دمث. هل كان في لهجته أثر من الإسكتلندية؟ «غادرنا يورك للتو، وسوف نبدأ محكمة ويستمورلاند بعد غد.»

قلت، «آه، إن أمي تعيش في ويستمورلاند، بعد كيربي لونسديل.»

أومأ في تهذيب.

«أخبرني.» خفضتُ صوتي، غير أن البقية كانوا قد مضوا نحو المائدة وهم يتحدثون بصوت عال. «طالما أنك كنتَ في يورك، فلا بد أنك شهدت محاكمة جينيت بريستون.»

«حقًّا،» قالها مبتهجا، وكأنما نتحدث عن تاجر بالجملة يعرفه كلانا. «هل أنت على معرفة بالسيد ليستر من ويستبي؟»

«نعم.»

تخلَّفتُ عن الجمع، مُتصورة أن شيئا آخر سيخطر لي، إلا أنه لم يحدث.

دارت عيناه الداكنتان بسرعة في أرجاء البهو.

«هذا منزل عصري جدا.»

«شكرا لك،» بها أجبته، وأنا أعلم أنه لم يقصد مديحا.

«كيف تجدين العيش في الشمال؟»

«لم أعش بمكان غيره في الحقيقة.» سرنا نحو المائدة، حيث أُعِدَّت ست أماكن في سرِّية. «هل هذه جولتك الأولى؟»

«نعم، وكانت أيضا مثيرة جدا للاهتمام. لا بد لي من قول إنني أجد الناس في الشمال جدُّ... مختلفين. كل شيء مختلف – الطعام، الفكاهة، المدن. إنني أفتقد لندن بالفعل.»

ابتسم مُظهرا أسنانا حادة مثل دبابيس صغيرة. ابتسمتُ واتخذتُ مجلسي مُبعدة الكرسي عن المائدة بمسافة أكبر من البقية بسبب حجم بطني. قُدِّم روجر للكاتب الشاب.

«تسرني معرفتك،» قالها السيد بوتس، وهو يسحب يده من المصافحة ليعيد حمل كأسه فيها.

وقعت عينا روجر على عينيَّ ثم ابتعدتا.

أُحضر الصنف الأول: سلمون مسلوق في جعة، مع رنجة مخللة. كان كأس النبيذ قد ساعدني على تجاوز الصدمة التي أحدثها مجيء روجر، والتفتُّ إلى القاضيين.

«كيف تجري جولتكما حتى الآن؟»

«على أفضل حال، يا سيدتي،» قالها الودود السير إدوارد. كان شاربه يؤطر خديه المتوردين، والمكتنزين كالتفاح. «لقد انتهينا من نصفها، انتبقى كيندال وبعدها لانكستر، كما تعلمين.» تضرجتُ بصورة طفيفة، وأنا أدعو بشدة ألا يذكر أمام روجر الطلب الذي أوردته في خطابي، ولم يزد بالفعل. «لقد انتهينا حتى الآن من دورهام ونيوكاسل ويورك، وكارلايل بعد لانكستر. ثم ننطلق في رحلة العودة الطويلة إلى الجنوب.»

قلتُ، «أخبراني. لابد أنكما رأيتما تُهما مذهلة من كل الأنواع في عملكما. منذ متى تعملان في القضاء بدائرة الشمال؟»

أجاب السير إدوارد، «سنتان.»

وقال السير جيمس، «وأنا قاربتُ على عشر سنوات.»

وأعلن كاتبهما بتفاخر، «وهذه المرة الأولى لي في الجولة.»

انخفضت أعين الرجال إلى طعامهم وشرعنا في تناوله. كان بوسعي أن أشعر بالوجود المكثف لروجر عبر المائدة.

«سمعتُ حديثا بالخبر...» حاولتُ الحفاظ على ثبات صوتي، «عن إدانتكم لامرأة بأعمال السحر في يورك؟»

«هذا صحيح،» قالها القاضي الأكبر سنا. «كانت تلك محاكمة مثيرة للاهتمام، لأن المرأة كانت أيضا في محكمة الصوم الكبير متهمة بنفس التهمة، قبل أربعة أشهر فحسب.»

فقلتُ، «ورافع الدعوى هو أيضا توماس ليستر.»

غرقت المائدة في الصمت. وارتجفت قطعة من سمك الرنجة أمام شفتي السير جيمس، إذ فشلت في الوصول إلى وجهتها.

وقال، «صحيح تماما. لا بد أنكِ تتابعين محاكمات المملكة.»

«ولكنها أُدينت هذه المرة.»

«أُدينت المرأة بجناية القتل عن طريق أعمال السحر على توماس ليستر الكبير، أجل.»

كان صوت جيمس آلثام هادئا، أقرب للنعومة. لا شك أنه ادخر جهورته للمحاكم.

أومأتُ ونزعتُ شوكة سلمون من آخر فمي، محاولة ألا أتقيَّأ.

«إلا أن السير إدوارد كان بالطبع قد عفا عنها في الصوم الكبير، فامتدت حياتها بكرامة لبضعة أشهر.» كان يخاطب زميله. «أتساءل إن كنتَ عرفتَ إذن بالازدراء الذي أبداه تُبَّاعها، وكان عندها أن توصلتَ إلى حكمك.»

لمعت عينا السير إدوارد.

«لم أعرف شيئا من ذلك قط. إنهم جماعة جعجاعون، آل بريستون،» ثم قال مُفسِّرا لبقية الضيوف. «كان المسكين آلثام قد شُهِّر به في كل بلدة بداية من يورك وحتى جيسبرن. وهم بضعة.»

حاولتُ تخيل أناس يحتشدون في الشوارع في باديهام وكولن احتجاجا على اعتقال ساحرات پندل، ولم أستطع تخيل أكثر من قبضة واحدة مرفوعة.

سألتُ، «وهل سبق لكما أن حاكمتما شخصا بالسحر قبل هذا العام؟»

تبادل الرجلان النظر، وهما يفكران لبرهة.

«أبدا،» قالها السير إدوارد في نبرة مُندهشة، «في الواقع، أنَّ هذا أكبر عدد من الأشخاص تتم محاكمته بأعمال السحر في هذا البلد.»

«على الإطلاق؟»

أومأ بالإيجاب. لم أستطع منعي نفسي من اختلاس نظرة سريعة إلى روجر، الذي كان ينتظر دوره ليتكلم.

فقال مُعلنا، «كانوا قد استخفوا بنجاح في كل أنحاء البلاد، حتى هذه اللحظة. كان الأمر شبيها بصيد الفئران: عندما تجد واحدا، فاعلم أن هناك وكرا. لقد اشتبه الملك منذ طويل في أن لانكشر هي حيث يختبئ المجرمون والسحرة، لذا لستُ إلا سعيدا بالمشاركة في استئصال الشر قبل أن ينتشر ويصيب بقية مملكته، ووضعه بين أيديكم القديرة.»

سأله السير إدوارد، «هل يدل هذا على أنك ترى الشر كالوباء؟»

«في أحياء معينة. انظروا إلى آل ديڤيس وريدفيرن: إن كل بيت منهما يعيش بعيدا عن الآخر مسافة تقل عن مائة ياردة. لا مصادفة إن كان أحد البيتين بدأ في أعمال السحر وأخذه عنهم البيت الآخر لحماية نفسه، أو أي شيء آخر. لكن دمدايك العجوز كانت تمارسه منذ عقود.»

أدركتُ أنني كنت أرمقه بغضب فخفضتُ عينيَّ. وتحدث توماس بوتس.

«طالما هذا هو الحال، فكيف برأيك تفادت المرأة العجوز اكتشافها حتى الآن؟ ألم يسبق لأحد اتهامها من قبل؟»

«ليس على حد علمي.»

رُفعت أطباقنا وأُحضر الصنف الثاني من فطائر المحار. تبقَّت ثلاثة أصناف عليَّ فيها إقناع القضاة بـ... بماذا بالضبط؟

سأل ريتشارد، «أين تبيتون الليلة؟»

«في خان متواضع قريب من هنا.»

«آه، لكني أصر على بقائكم.»

«لا نريد التطفل. علينا الرحيل في ساعة مبكرة جدا من الصباح.»

«مع أن مرتبة من الريش ستكون موضع احتفاء بعد كل مراتب القش،» قالها توماس، وهو يميل للأمام بصورة متواطئة. ضحك الرجال. وتنحنحتُ.

ثم قلتُ، «أفترض أنك تنفَّست الصعداء عندما عبرتَ الحدود ونجوتَ من أتباع جينيت بريستون.»

شعرتُ بعيني ريتشارد عليَّ، لكني لم ألتفت إليه.

«جدا، أجل.»

«ولم تواجهك مثل هذه الاحتجاجات نيابة عمَّن يسمَّون بساحرات پندل؟»

«لقد عبرنا إلى لانكشر لتوِّنا فقط،» قالها السير إدوارد وهو يشق فطيرته بشوكته. «لم نألف هذه القضايا

بعد، خاصة ووستمورلاند في المقدمة. كم عدد النساء المتهمات؟»

«ما يفوق العشر. لكنَّ إحداهن قضت نحبها للأسف،» قالها روجر، دون ذرة ندم. «غير أني أحقق في قضية أخرى لامرأة من باديهام.»

«امرأة أخرى؟» عجزتُ عن تمالك صوتي.

«اسمها مارجريت بيرسون. سيقوم زميلي السيد بانستر بجمع الأدلة غدا من خادمتها، والتي تُقسم أنها رأت تابعة السيدة بيرسون.»

«ما هو؟»

«علجوم.»

ساد صمت قصير، فيه سمعتُ يقينا صوتا يشبه ضحكة مكبوتة أفلتت من توماس بوتس. تجاهلها روجر. «تقول الخادمة، والتي تُدعى السيدة بوث، إنها كانت تندف الصوف في منزل ربتها بيرسون وطلبت منها بعض اللبن. كانوا يضعون الحطب في النار لتسخين اللبَّانة، وعندما أزاحته السيدة بوث، خرج ضفدع -أو تابعة متنكرة في هيئة ضفدع- خرج من النار. فنزعت مارجريت بيرسون المخلوق بملقط وحملته إلى الخارج.»

«يتملكني فضول،» هكذا بدأتُ أقول بدماثة، «لمعرفة إن كان سبق لك أن رأيتَ بعينيك أيًّا من هذه التوابع، يا روجر.»

ساد صمت محرج، مضغ فيه روجر طعامه بعناية.

في النهاية قال، «لا يظهر الشيطان إلا لمن يتلهف إلى رفقته.»

اندفعتُ أقول قبل أن يتاح لي التوقف، «ألم تقل إن الروح التابعة هي أدلُّ علامات الساحرة؟ هل يعني هذا أن الساحرة إن لم تكن تملك روحا تابعة، فالأرجح أنها بريئة؟»

رمقني روجر من خلال جفنين ثقيلين. ثم احتسى رشفة من نبيذه.

«أو هي تخفيها بمهارة.»

«أيها السادة،» وجهتُ خطابي للجميع، «إنني أملك كلبا بالغ الضخامة، يتبعني في كل مكان. ألا ينبغي اتهامي بالسحر؟»

غرق الجميع في الصمت، ووقعت عيناي على روجر، الذي كان ينظر إليَّ ببرود.

«يُخيَّل لمن يسمعكِ أنكِ ترغبين في اتهامكِ، يا سيدتي. لو كنتُ مكانكِ لتوخيت الحذر الشديد. عليكِ أن تضعي سمعة زوجكِ في الاعتبار. إن اسمه، كما أخبرني السير إدوارد والسير جميس، قد ذُكر بالفعل في وايتهول بالحُسنى، فتجنبي أن يُذكر بالسوء.»

تبادل الرجلان نظرة مُحرجة.

ثم سأل السير إدوارد بتهذيب، «هل باديهام في غابة پندل أيضا؟»

«يفصل بيننا وبينها ذلك النهر.» أشار ريتشارد بسكينه. كانت نبرته سمحة، لكن مزاجه غامض. «لذا فأنتم آمنون في هذا المنزل.»

«لا يمكنك الجزم بذلك،» قالها روجر. وكان ينظر نحوي مباشرة. «خاصة وأن إحدى المتهمات كانت ضيفة هنا.»

وفي الحال دارت نحوي عدة أعين تملك السلطة والذكاء، ومات صوتي في حلقي. سيطر حضور روجر على المائدة، ورفع الرجال أعينهم عني لينقلوها إليه في عدم تصديق.

«إحدى المتهمات هي امرأة تُدعى آليس جراي، وقد كانت قابلة فليتوود.»

قال كلمة قابلة بنبرة مُشككة لا تختلف عما لو ادعت أنها عروس بحر.

أبدى السير جيمس وجها حائرا.

«يا له من شيء نادر.»

«جدا.»

لم يُبعد روجر عينيه عن وجهي. وفي تلك اللحظة، لم أبغضه وحده بل أبغضتُ ريتشارد لأنه قام بدعوته بعد أن علم بغايتي. كانت الأمور ستختلف كليًا لو أنهما لم يعترضا طريقي. كنتُ لأتمكن من المرافعة في قضية آليس وربما صنعتُ فرقا. ولكن ها نحن ذا، ثلاثتنا معا مثل عائلة تعيسة. وحينها أُحضر الصنف الرئيسي: سمكة كراكي ضخمة مجدولة بأناقة فوق طبق بحجم عجلة عربة. التقت عينا ريتشارد بعيني، وكان في نظرته خطر، ولكن أيضا شيء وكأنه شعور بالذنب. ربما أدرك الآن مغبَّة ما فعله.

«أيها السادة، هل تسمحون لي قبل أن نشرع في تناول طعامنا، بالتحدث بعد إذن زوجي؟»

نظرتُ مرة أخرى إلى ريتشارد، الذي منحني إيماءة رصينة سريعة. تنحنح روجر، إلا أني مضيتُ في قولي.

«إن المرأة التي كانت ضيفة هنا هي قابلتي، وصديقتي،

واسمها آليس جراي. وسوف تُقدَّم في محكمة لانكستر، بتهمة القتل عن طريق أعمال السحر.»

بدرت من روجر محاولة لاعتراضي، إلا أني واصلتُ الحديث. وكان صوتي عاليا ومتوترا، وصلَّيتُ ألا يتلعثم.

«عملت آليس لصالحي عدة أشهر، وهي قابلة متميزة. إنها على درجة عالية من المهارة، وقد تعلمت صنعتها من أمِّها الراحلة.»

ازدردتُ لعابي ونظرتُ إلى كل منهم في عينيه. كانوا جميعا يحدقون بي، مفتونين، كنتُ أعلم أنني أقف على حافة جرف وإحدى قدماي في الهواء.

«إنَّ آليس جدُّ كريمة، ومطيعة، وطيبة. حدث منذ زمن طويل أن... أن...»

تلعثمتُ، ثم انتابني شعور غريب جدا: موجات من التشجيع تنبعث من مكان قريب، كانبعاث الحرارة من النار. أخذتُ نفسا، وأكملتُ.

«حدث منذ زمن طويل، أن وجدت نفسها في موقف فظيع لا ينبغي لامرأة مهما بلغ سوء حظها أن تمر به. إنها لا تملك إلا عددا محدودا من الأقارب والأصدقاء – صديقتها الوحيدة تشاركها الزنزانة في لانكستر. وآمل منكم...» رفَّ جفاني إذ تجمعت الدموع في عيني. وضاق حلقي من التأثر. «آمل منكم ألا تعاقبوها على المأساة التي كابدتها، لأنها قاست بالفعل عذابا لا حدود له.»

قاطعني روجر، منتفضا من فوق كرسيه.

«أعتقد أننا سمعنا ما فيه الكفاية. لسنا هنا في قاعة

محكمة وشهادة المرأة سيتم الاستماع إليها في المكان والزمان الملائمين.»

كان وجهه أرجوانيا، وعيناه خرزتان صغيرتان مُفعمتان بالغل.

أومأتُ ثم عدتُ ألتفتُ إلى البقية.

«لقد دعوتُ هؤلاء السادة إلى منزلي، وآمل أنهم لا يرونها وقاحة مني أن أتحدث بمحبَّة عن قابلتي التي قريبا تلتقونها في ظروف مختلفة. هل أسأتُ إليكم، أيها السادة؟»

هزوا رؤوسهم، في حيرة ولكن بلباقة. شمل المائدة صمت يشبه ملاءة الحماية من التراب.

ثم قال ريتشارد، «أيها السادة، دعوني، إن شئتم، أصحبكم في جولة حول المنزل عندما ننتهي من طعامنا.»

سُرَّ الجميع بتغيير السياق، وتحسَّنت الأجواء عندما غرف ريتشارد سمكا للجميع وسرد تاريخا موجزا عن أعمامه. وحدنا روجر وأنا جلسنا كغيمتين ممطرتين، نتساءل أيُّنا سيهيل أمطاره أولا.

الفصل الثاني والعشرون

وبعد بضعة أيام، في ظهيرة ممطرة كئيبة، كنتُ أضطجع في سجني الصامت عندما طرق ريتشارد باب المخدع. أخبرني أن عازفي اللورد مونتاجيو في المنطقة وأنهم سيأتون إلى المنزل لأداء عزفهم ذلك المساء. كان ذلك في العادة يغمر كلينا بالإثارة، لكن الأمور اختلفت الآن.

سألته وأنا أرفع جسدي لأجلس، «لماذا بحق السماء قد يوافق جيمس على حضورهم في وقت كهذا؟»

تنهد ريتشارد. «طلبت منه دعوتهم منذ شهور. لم يعلنوا عن قدومهم سوى هذا الصباح.»

ثم انصرف، وبضجر، أجبرتُ نفسي على النهوض من الفراش لتبديل ملابسي.

كان جديرا أن تفاجئني رؤية روجر جالسا في البهو الرئيسي لاحقا ببضعة ساعات، ويداه مشبوكتين على كرشه الكبير. ولكني عندما دخلتُ، ويِاك في عقبي، ذهبت عيناي لا إلى كاثرين، شاحبة ومنهكة المظهر على يساره؛ بل إلى المرأة ذات الشعر الداكن الجالسة على يمينه. كانت مُطرقة الرأس، إلا أن ياقتها البيضاء رفعت

ملامحها وجرَّتها من ركن بعيد من ذاكرتي. ومن خلف الطاولة، تبدت مساعيها في إخفاء بطنها الكبيرة تحت طبقات من الديباج والتفتا. دار رأسي.

قال روجر بسرور، «سيدتي. هل تسمحين لي بتقديم جوديث، ابنة صديقي الرائع جيرمايا ثورب برادفورد؛ تمييزا له عن ثورب سكيبتون، ولكن ربما قرابة بعيدة؟»

خيَّم صمتُ ذاهل، اخترقته بعد لحظات خطى في الممر. ثم ظهر ريتشارد من الباب الآخر. استغرق أقل من ثانية ليستوعب المشهد الذي أمامه، وامتقع وجهه.

تلاشى مقدار الشجاعة الصغير الذي كنتُ أملكه – بذرة الأمل التي غُرست من قبل داخلي وساعدتني في الوصول إلى هذا الحد- تلاشى مثل جسم صغير جدا يُسحب في نهر قوي هائل. عرفتُ عندما ذهب، وعرفتُ أيضا أنه ذهب بلا رجعة.

«روجر،» تدبَّر ريتشارد قولها.

إلا أنه لم يكن غاضبا؛ كان منقطع الأنفاس ومذهولا وكأنما طعنه صديقه بخنجر.

ثم حدثت عدة أشياء في وقت واحد: بدأ پاك ينبح، وقد أثاره الشعور الفظيع الذي ساد الغرفة؛ وجاء جيمس عند الباب يعلن وصول عازفي اللورد، الذين تناهت أصواتهم وهم يحتشدون في الردهة؛ وعاد اللون إلى وجه ريتشارد أرجوانيا بشعا؛ ورفعت جوديث عينيها. عندما رأيتها، هدأت كل الضوضاء في الغرفة وفي رأسي. كان وجهها الذي بشكل قلب له لون

الكريمـة، وخدَّاهـا المكتنـزان لهمـا لـون الـورود البرتقاليـة الدافـئ. نظـرت عيناهـا الداكنتـان الصافيتـان بخـوف إلـى ريتشـارد، ولكـن كان فيهمـا أيضـا شـعور بالذنـب، واحتـرام، وشـيئا لـم أسـتطع إنـكاره: حـب.

رجعـت فوضـى الغرفـة ووضعـتُ يـدي علـى رأس پـاك، فأسـكت ذلـك نباحـه علـى الفـور. تهانـف مـرة ثـم وقـف سـاكنا. ارتُـجَّ علـى جيمـس فـي المدخـل، وفغـر فـاه كامـلا فـي مفاجـأة.

سـار ريتشـارد بخطـوات واسـعة إلـى حيـث جلـس روجـر عنـد الطاولـة، شـوكة بيـن زهرتيـن ترتجفـان.

قـال مُزمجـرا، «روجـر، مـا الـذي تقصـده بهـذا؟ مـا الـذي تُـراه جعلـك تفعـل هـذا؟»

بـدت كاثريـن حزينـة. وفقـدت وزنـا أكثـر منـذ آخـر مـرة رأيتهـا فيهـا. بوخـزة ذنـب نائيـة، تسـاءلتُ لوهلـة أيُّ ثمـن دفعـت لقـاء عصيانهـا لروجـر مـن أجلـي. بـدت جوديـث مرتعبـة، وتحولـت ملامحهـا الجميلـة إلـى صـورة مـن اللوعـة.

«أجبنـي الآن قبـل أن أتنـاول ذلـك السـيف وأغـرزه فـي جسـدك. اللعنـة عليـك، يـا روجـر، أجبنـي!»

انتقلـت عينـا روجـر بقلـق إلـى السـيف الجبـار الـذي لمـع فـوق المدفـأة.

«كمـا تعلـم، يـا ريتشـارد، فـإن جوديـث هـي صديقـة للعائلـة، وقـد دعوتهـا للمكـوث فـي ريـد هـول لبعـض الوقـت. ولـذا عندمـا أعلـن رجـال اللـورد مونتاجيـو عـن تواجدهـم فـي پنـدل وتسـائلوا إن كنـتُ سـأحبُّ عرضـا خاصـا فـي

ريد، عرفتُ أنهم يخططون لأداء عرض في جوثورب أيضا، فوجدتها فرصة بطبيعة الحال للم شمل أسرتينا لحضور... المناسبة.»

وبسط يديه واسعا ليشمل كل من في الغرفة.

«سيدي؟»

حاول جيمس على استحياء أن يذيب المشهد المتجمد أمامه. وحده روجر كان مُسترخيا، ينقر بأصابعه المزينة بالخواتم. وخلفه، سكتت أصوات العازفين الخفيضة التي كانت تطنُّ قبلِ دقيقة، في انتظارهم للتعليمات.

ببطء وتخشُّب بالغين، استدار ريتشارد لينظر إلـيَّ. وكان وجهه قناعا من الأسى. كان على الأرجح انعكاسا لوجهي.

سأل بصوت أجشٍّ من العاطفة، «فليتوود، هلا انضممت إلينا؟»

نظرتُ ذاهلة من بين دموعي إلى جوديث، المرأة التي شاركتها الزوج والآن أشاركها المنزل. كانت قد غضت عينيها من جديد إلى يديها المطويتين في حجرها. أخذتُ نفسا مسموعا وأومأت بالموافقة، ثم اتخذتُ مجلسي إلى جوار ريتشارد.

وأثناء إحضار النبيذ والساك، دخل ستة أو سبعة رجال في صف إلى شرفة العرض وقاموا بالانحناء.

«طاب مساءكم، سيداتي وسادتي.» تحدث شاب وسيم في المنتصف. كان له فم عريض وصوت رقيق واضح. «السيد والسيدة شاتلوورث، نشكركما على دعوتنا إلى منزلكما

البديع. مسرحية الليلة هي مسرحية مشهورة لأعظم كتاب المسرح المعاصرين، وهي بالتأكيد واحدة من المسرحيات التي نحب أداءها. تراجيديا للطموح، ومتاهة للأخلاق مع لمسة من السحر، أطلقوا خيالكم إلى اسكتلندا في أظلم وأوغل فتراتها - وهو ما أراه سهلا نسبيا مع هذا الطقس.» ثم سكت متوقعا ضحكة إعجاب، والتي لم تأتِ. «سيداتي وسادتي: نقدم لكم مكبث لويليام شكسبير!»

وبتلويحة من عباءته، غادر حشد الرجال شرفة العرض عدا ثلاثة، رفعوا عباءاتهم فوق رؤوسهم وجلسوا محدودبين في دائرة مضمومة. كنتُ أشاهد كل ذلك بوعي مشوش، لكن عقلي كان يحتلُّه خدر من نوع كليل. كنتُ قد شاهدتُ المسرحية من قبل.

«متى نلتقي نحن الثلاثة مرة أخرى؟[1]
في قصف الرعد، أم وميض البرق، أم هطول الأمطار؟
حين تنتهي المعمعة،
وتسفر المعركة عن هزيمة وانتصار.
سيكون ذلك قبل غروب الشمس وانقضاء النهار.»

وفيما أنشد الممثلون، وعيتُ أنا من زاوية عيني إلى وجود جوديث، وهي تجلس ساكنة ومُنتصبة الظهر، ووجهها يتجه صوب الممثلين ولكن ربما أيضا تجيل عينيها في الغرفة: إلى المزهريات الخزف في الخزائن، وحاملات الشمع المصقولة على الجدران، والصور - جميعها أغراض عادية، إنما لا شك ذات قيمة كبيرة

١- الأجزاء المترجمة من مسرحية مكبث مقتبسة من ترجمة حسين أحمد أمين للمسرحية.

لعينيها. لا بد أنها ستستوعب كل تفاصيل منزل ريتشارد لتتلذذ بها وتفكر فيها لاحقا. ما لم تكن بالطبع، قد جاءت إلى هنا من قبل.

ضرب المطر النوافذ؛ وكادت أصوات الممثلين تضيع فأخذوا يرفعونها، حتى لتبدَّت في آذاننا هستيرية قليلا.

«إني قادمة، أيتها القطة جريمالكين! فلنبادر بالإياب! قد غدا الجميل قبيحا والقبيح جميلا: فلنَطِر عبر الهواء الملوث والضباب.»

علت وتيرة المطر، وكان وجود جوديث بدوره عاليا كجرس. شعرتُ بنظراتها المُختلسة نحوي، إلا أني أبقيتُ عينيَّ تجاه شرفة العرض. لا ريب أننا صورة للجمود والبلادة والضجر. تكَّت عقارب الساعة عاليا. تذكَّرتُ الدَّرج الذي ينزل إلى الزنزانة، والباب يُغلق على الظلام. تِك، تِك، تِك.

وتَسفر المعركة عن هزيمة وانتصار.

خادمة يصيبها المرض. دمية قماش على فراش، مربوطة بشعر أسود إلى طفل. وعاء من الدم، يختفي. صقر يُمزق إربا. رداء نوم في الظلام، يطفو بشحوب، ويقترب رويدا رويدا.

«توقفوا!» بها صرخت. «رجاءً توقفوا.»

قفز ريتشارد فزعا وصفَّق بيديه.

«أيها السادة. أقدم اعتذاري، لكن زوجتي أصابها الإعياء.»

شاهدتُ بصورة مشوشة الارتباك، ورفع المعدات.

جلستُ أحدِّق في يديَّ اللتين كانتا باردتين كالثلج ورماديتين كأيدي الموتى. لربما أصبح قريبا ميتة بالفعل، وآليس أيضا، لكن هذه الغرفة ستبقى وكذلك من فيها، وسيصبح عام 1612م ذكرى بعيدة. سيُسكب النبيذ نخب ريتشارد وزوجته الجديدة، وسيلعب روجر وكاثرين مع طفلهما أحمر الخدَّين. كنتُ أشعر بحضور الطفل الآخر أيضا في الغرفة، بُعد أقدام مني، في انتظار أن يولد، في انتظار أن يحتل مكانه، وتحتل جوديث مكاني.

في الحياة أيضا كنتُ الشبح الصغير، وها أنا أُرسل الآن للموت. أمسكتُ بطني، وتخيلتُ الاختفاء. لن يلبث أن يأتي، بلا شك، لكنه لن يكون رقيقا، مثل ذهاب الضوء من السماء. بل سيكون مؤلما ومخيفا وموحشا، بلا كفٍّ باردة على جبيني، ولا عينين عسليَّتين تحثَّاني أن أهدأ. ستُعقد محاكمة، وتموت آليس، ثم أموت أنا، وتلقى كلتانا نحبها في غمرة من سوء الطالع. أسبلتُ جفنيَّ، وفكرتُ في طفلي، وكم تمنَّيتُ لكلينا أن يعيش. آن لحياتي الدنيا أن تنتهي، وكانت النهاية قريبة.

الفصل الثالث والعشرون

كنَّا في اليوم الذي يسبق انعقاد المحكمة، وجاء كل رجل وامرأة تقريبا في المقاطعة والمقاطعات المجاورة ليشاهدوا مصائر ساحرات پندل وهي تتكشَّف. احتشدت شوارع لانكستر بالخيول والعربات والناس والكلاب والأبقار والدجاج والأطفال وجميع أنواع العراقيل التي دفعت حوذيًّا لإطلاق السباب بجهورة وتكرار خلفنا ريتشارد وأنا وهو يقود العربة التي تحمل أمتعتنا وپاك الذي أضناه السفر. أبقيتُ عينيَّ في الأرض ونحن نعبر الرصيف على جوادينا وننضم إلى الجمهور في صعوده إلى التل، شاعرة بالنظرات تخز جلدي. أردتُ الاختفاء، غير أن بطني بحجمها الكبير، جعلتني واضحة للعيان وكأن لحية نبتت في وجهي. تحوَّلت الشوارع الضيقة إلى كتلة من ملابس بنية وقبعات بيضاء وقبعات سوداء وأجساد عكرة. شاهدتُ صبيًّا صغيرا عمره سنة أو سنتان يعبر الطريق مُتعثرا أمامي لتسحبه أمه بقوة قبل أن تطأه حوافر جوادي الضخمة. التقيتُ بعينيها، وأظنها فوجئت بمقدار اللامبالاة التي أبديتها، بمقدار اللا أمومة.

كنا ريتشارد وأنا قد أمضينا طريق السفر كله في صمت

خدِر، وپاك إلى جانبنا يسير بخطى خفيفة أو يعتلي العربة التي تتدحرج خلفنا، وهو يئن بين حين وآخر. وعندما تناهت أصوات لانكستر وملاهيها تنفسنا الصعداء.

وعند منتصف الأصيل، كنا نتوقف في باحة ريد ليون، وهو خان متواضع تحميه الأشجار، قد انزوى على طريق ضيق يقود إلى النهر. بالكاد تبيَّنتُ الغرفة التي عُرضت علينا في الطابق الثالث، ولكنها كانت نظيفة وحسنة التأثيث، بأكسية فوق الخزائن وسرير ضخم بأربعة أعمدة. عندما وُضع صندوق متاعي بخبطة مكتومة، انتفضتُ، فرمقني العتَّال بفضول. تمطّى الطفل ولفَّ حول نفسه بداخلي، قد أنعشته الرحلة الطويلة والوعرة. كانت بطني قد كبرت حتى أن تنورتي ارتفعت الأرض ببضع بوصات.

قُدِّم خبز وحليب للكلب، فتناولهما بامتنان قبل أن يربض فوق السجاد التركي أمام المدفأة. لم أجد راحتي بمثل سهولته: كنتُ بردانة وأرتعش، واضجعتُ على ناحيتي من الفراش، وثنيتُ ركبتي إلى حيث التقت ببطني.

وقف ريتشارد أمام النافذة، عاقدا يديه خلف ظهره. منذ العشاء المريع الذي مضى عليه أسبوع، لم أتحدث إلا لماما. ولا أكلتُ أو نمتُ أيضا. كنتُ أذرع شرفة العرض الطويلة جيئة وذهابا، فأغرس ساقيَّ على مسافة واسعة في الأرض الخشبية المصقولة لموازنة بطني الضخمة. أو أجلس أمام نوافذ المنزل، أنظر خارجها، وتحرك الطفل نيابة عن كلينا. بدا لي واضحا أن ريتشارد ما زال يخشى أن أخسر الطفل، ووددتُ لو أخبره أنه لا داعي للخوف

من أشياء ليست بأيدينا، بينما أشياء أخرى كثيرة كان بوسعنا أن نفعلها، ولم نفعلها. نداءات كان علينا صنعها؛ وعون كان علينا تقديمه. تحاشيتُ التفكير في أن السيف سبق العذل، لكن جزءا مني كان يعلم أنه فعل: بالنسبة لي، ولها، ولكل شيء.

ثم تحدث ريتشارد، «كيف ستجري الأمور في رأيك؟»

حدقتُ في الحائط.

أجبته، «لا يمكن إدانتهم. لا شهود لهم سوى بعضهم البعض. إنهم كأطفال يسردون حكايات.»

«يُشنق الناس لأهون من ذلك. هل تظنين حقا أنهم يعرفون الشيطان؟»

تذكرتُ برج مالكن الناتئ من أرض المستنقعات كإصبع من قبر. كيف كانت الرياح تعوي هناك؛ كيف كانت لتفقد المرء صوابه. تذكرتُ منزل آليس، مكشوفا للسماء؛ والرطوبة تنخر جدرانه؛ والطفلة التي كانت لها ابنة مدفونة في التراب السميك المبلل. ما الذي جَنوْه في في هذه الحياة؟ ربما في الظلال التي ألقتها نيرانهم ليلا، رأوا بالفعل أشياء أرادوا رؤيتها.

«لو أن الشيطان هو الفقر، والجوع، والحزن، فإذن نعم، أظنهم يعرفون الشيطان.»

ذهب ريتشارد إلى القلعة ليستطلع موعد بدء محاكمة الساحرات. أمضيتُ بقية اليوم راقدة بكامل ملابسي على الفراش، أحدِّق من النافذة إلى الأشجار، وپاك بجانبي، يلوح بذيله مسرورا بالسماح له أن يرقد على

غطاء السرير. حتى مع وجود الزجاج الذي يفصلني عن الشارع، شعرتُ باختلاف في طبيعة الهواء بالخارج. أدركتُ أنه الإثارة. هزَّت الأشجار، وارتدَّت عن جدران الفناء وأرضه كالأمطار. كانت العربات تتواتر على الخان الآن، وعجَّت الباحة بأناس وجوههم مترقبة بابتهاج يتبادلون الكلام. نساء يحملن أطفالا ويهدهدنهم بصبر؛ ورجال يقفون مُتحفزين بطول الحصى. عرفتُ أني لو أنصتُ إليهم، لسمعتُ مائة رأي مختلف، جميعها عن يقين. جيران يبلِّغون عن جيران - كانت تلك هي أكثر صفات البشر التي يُعوَّل عليها، وعن طريقها امتلأت الزنزانة في المقام الأول. تتفشى الشائعات أسرع من المرض، ولا تقل عنه تخريبا.

أحضرت خادمة آنية طعام وضعتها على الخوان، ومنحتني انحناءة خرقاء، ثم جفلت عندما رأت الكلب. لم أنظر إلى الآنية، فضلا عن لمسها. تحسَّستُ الورقة التي كنتُ قد وضعتها في جيبي ليلة البارحة - شهادتي في الدفاع عن آليس التي أملتُ أن أقرأها جهارا أمام القضاة. نسخة أفصح من خطابي على مائدة العشاء، أعدتُ كتابتها خمس مرات على الأقل، لتلطخ الورق بالحبر والدموع. إذا لم يأذنوا لي بالكلام، سأحاول الاستنصار بريتشارد. هو لا يعرف هذا بعد، لأنني لم أتحمل رفضه هذا المعروف الوحيد، ولو أنيَ لن أطلب منه شيئا مرة أخرى. لم أعرف هل سيسمحون لي بقراءة شهادتي في المحكمة، ولم أسمع عن سابقة سُمح فيها لامرأة بالوقوف والكلام وهي ليست

في قفص الاتهام. عندما تخيلتُ قيامي بذلك، ارتعشت ساقاي، ثم تذكرتُ وجه آليس، وعيناها ترمشان أمام الضوء بعد حبسها في الظلام. هي مُجبرة على أن تكون في الجلسة، أما أنا فكنتُ أملك الخيار. قال روجر سابقا إنه لن يُستدعى أي شهود، إلا أن بروملي وآلثام لن يتجاهلا بالتأكيد طلبا مهذبا لفرد من الطبقة الأرستقراطية، بعد أن تناولا العشاء في منزله؟ سأترك طلب الإذن من ريتشارد في الكلام حتى اللحظة الأخيرة، لأنني لم أكن مقتنعة نفسي بأن كلماتي ستكفي، وحتى أفعل، لم أستطع حمله على الاقتناع.

مع تواتر المزيد من الناس إلى الخان، عجَّت الممرات بأصوات البشر ووقع الأحذية على الحجر. استمعت بخواء على خلفية غطيط پاك إلى نساء تثرثرن وتوبخن أطفالهن، ورجال يصيحون، وصناديق تُجر وكلاب تنبح.

كنتُ أقبض على الورقة بقوة حتى حسبتها ستتمزق، وأفكر في أني منذ وقت قريب كنتُ أحمل خطابا مختلفا – خطابا يحمل الموت، بينما هذا الخطاب قد يحمل الحياة. ضجيج في الممر: أقرب كثيرا. صوت رجل يقترب؛ باب يُفتح ويُغلق.

وفجأة صرتُ في كامل يقظتي. استندتُ بجسدي على مرفقيَّ، ليصبح رأسي موازيا لقمَّة بطني. لابد أن الطفل كان نائما أخيرا. قصدتُ الشباك ونظرت إلى السماء؛ لم أكن أحمل ساعة. أين كان ريتشارد؟ قريبا يحل الظلام، ومن الأسفل تناهت أصوات المطبخ استعدادا العشاء.

تدحرجت البراميل في الباحة وكانت حركة السير في الشوارع قد هدأت. كنتُ أملك ما بدا قيد أُنملة من الوقت لأتخذ قرارا: الآن ولا بُدّ. لم أكن بحاجة لأكثر من ذلك.

أيقظتُ پاك من حيث كان يرقد بجانبي وأشرتُ إليه لينزل على الأرض، ثم قصدتُ واحدا من الصناديق. وفيما شكرتُ بروديننثيا على الهدية التي أنعمت بها عليَّ في وقت أبكر، أخرجتُ اللفيفة الطويلة التي كنتُ قد أخفيتها وسط العديد من أثواب النوم. ثم توجَّهتُ إلى الخوان وكتبتُ على عجل رسالة لريتشارد، وأنا ألقي نظرة سريعة حول الغرفة، للتأكد من أنني أخذتُ كل ما أحتاج. ومع كلبي في عقبي، غادرتُ إلى الاسطبلات، واللفيفة ضئيلة وغير ظاهرة إلى جانبي.

الفصل الرابع والعشرون

كان منزل جون فولدز في نهاية زقاق صغير رطب بكولن. عندما وصلتُ، كان الوقت منتصف الليل تقريبا، وكنتُ منقطعة الأنفاس من توجيه الحصان عبر الدروب المظلمة. لكن القمر كان في صفي: كاملا وساطعا، فأشرق كل الطريق من لانكستر، مُضيئا الطريق لموكبنا الشبحي. كما أن پاك كان معي، لذا شعرتُ بالأمان، فأمسكتُ رأسه بيد وطرقتُ باب منزل جون فولدز بالأخرى.

كان الشارع ساكتا ولا أنوار في النوافذ. كنتُ قد طرقتُ أربعة أبواب رأيتُ عندها وهج جذوة أصفر، وأخبرتني الساكنة الأخيرة -امرأة، وجهها متغضن من الإجهاد- في دهشة أن جون فولدز يسكن خلف شارع السوق، ثالث باب من اليمين.

وهنا، طرقتُ من جديد، وأصدر پاك زمجرة خافتة من عمق حلقه. نظرتُ حولي، ولم يتراءى لي خيال آدمي في أي من جانبي الزقاق، لكني شعرتُ بأن ثمة من يراقبني. كان الظلام أحلك من أن أرى عبر الظلال التي خيَّمت على المنازل. ارتجفتُ وجعلتُ عينيَّ على الباب الخشبي أمامي، وأنا أطرق بنفاد صبر هذه المرة.

ثم فجأة، انتصب كل شعر قفاي، وعرفتُ أن شخصا في الزقاق. بدأ پاك على الفور بالنباح، راغبا في الإفلات من قبضتي وموجِّها عدوانه إلى جهة اليمين منَّا، وفي العتمة رأيتُ شيئا خفيضا وممشوقا ينسلُّ خلف آخر منزل. قرعتُ الباب بعنف، وجاء صوت رجل صارخا من خلفه، ثم وجدتني أنظر في وجه جون فولدز.

تهدَّل شعر بني أشعث على جانبي وجهه، وكان في ملابس النوم، حيث ارتدى ثوبا قطنيا فضفاضا، مفكوك الوثاق عند عنقه. كان جميلا كما تذكرته، لكن شيئا في عينيه لم يكن كذلك -قسوة، ربما- أثَّر على ملامحه مثل عيب في لوحة. لكنَّ أي غرور كان لديه، ضاع عندما رأى ما أوجهه إلى بطنه: بندقية ريتشارد، التي حملتها بذراع موجوعة تحت عباءتي. ثم رأى الكلب، وكان في عينيه رعب، وحتى استسلام.

ثم انزوى حتى يكون واقفا بين الباب والحائط، ولم أستطع رؤية داخل المنزل الصغير. دفعتُ ماسورة البندقية في صدره، وكنت شاكرة لثقلها، لأنني كنت أرتجف بشدة.

قلتُ، «هل ستدعني أدخل؟»

«هل سنتبارز؟» قالها بغلاظة، وقد لوى شفتيه.

زمجر پاك، فرمق الكلب الضخم بتوتر، ثم منحني نظرة وفتح الباب بزاوية أوسع. دخلتُ، وپاك يخف من ورائي.

كان المنزل الصغير يحوي غرفة واحدة في الطابق الأرضي وأخرى في العلوي، يصل إليها مجموعة مائلة من السلالم الضيقة قبالة الحائط الخلفي. حمل جون

فولدز الشعلة الوحيدة في الغرفة، وعبر وهجها، أمكنني رؤية بعض الأثاث عديم الشكل: زوج من الكراسي بجوار المدفأة، وخوان قصير يغطيه مفرش وقدور ومقالي. ذهب جون لإشعال جذوة أخرى، ووضعها في حامل فوق الخوان، وكان الدخان الكثيف خانقا. لكنني راقبتُ كل حركة منه، لأنني لم أكن أعرف كيف أستخدم سلاح ريتشارد.

سألني حاملا الشعلة إلى وجهي، «من أنتِ؟»

فقلتُ، «لا تعرفني. لكننا نملك صديقا مشتركا.»

أطلق صوتا مثل ضحكة مصطنعة.

«لم أكن لأطلق عليه صديقا.»

«من تقصد؟»

«روجر نويل. ألستِ هنا من أجله؟»

«كلا.»

حدقتُ في وجهه الذي يخفق بالضوء، قد أخفى الظل نصفه. حكَّ عنقه ونظر حوله مضطربا. لو تحرك فجأة، فهل يمكنني التحرك أسرع؟

«هل أعطاك مالا؟»

«ماذا لو فعل؟»

تركتُ ذراعي التي تحمل البندقية تنخفض، وسمعتُ أجزاءها الداخلية تطقطق. أرهقني ثقلها. كانت الأمطار قد بدأت تنهمر خفيفا ما إن وصلتُ إلى كولن، وأمكنني الآن سماع صوتها تهطل بغزارة، مرتطمة بتراب الشارع. لمعت عينا جون فولدز في ضوء الشمعة.

«لماذا تُحاكم آليس جراي بتهمة قتل ابنتك؟»

«إنها ساحرة،» قالها ببساطة.

كان عنقه دافئا وبنيًّا في ضوء الشعلة، وأعلى صدره أملسا.

«لقد أحبَّتك،» قلتها محاولةً منع صوتي من الارتجاف.

«وأحبَّت آن.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«من أنتِ؟»

«لا يهم.»

«من زوجك؟»

«لا يهم. لكن ثمة شيء ستعطيني إياه الليلة. لن أغادر هذا المكان بدون شهادة مكتوبة بخطك تفيد بأن آليس جراي لم تقتل ابنتك.»

رمقني وكأنني مجنونة. ثم أخذ يضحك. وحينها شممتُ رائحة شيء آخر، مُقنَّعا بالشحم المتقطر من الجذوة. جعة. تخمُّر. تعفُّن. كان جون فولدز ما يزال سكرانا.

«إن آليس شُنقت، فلن يعيد هذا ابنتك. لماذا تريد رؤية امرأة بريئة تُقتل؟»

«بريئة؟ إنها عاهرة،» قالها بعدائية. «وأنا لا أعرف الكتابة بكل الأحوال.»

هوى قلبي. كانت شهادة موقَّعة بخطه هي أملي الوحيد -لقد أحضرتُ ورقا وحبرا وريشة، ووضعتهم في حقيبة الحصان. يا لي من ساذجة حتى أفترض أنه يعرف القراءة أو الكتابة، أو حتى توقيع اسمه، في حين أن آليس أمِّيَّة. كانت البندقية ثقيلة جدا، وتؤلم ذراعي. ولكن لم يكن ممكنا أن أدير له ظهري.

هزمني جون فولدز بحركة واحدة.

أصدرت السلالم صريرا أجفلني، وبدأ شخص يهبطها. ثوب أبيض فضفاض طويل نزل من السقف، ثم بقية جسد مكتنز، ثم ظهرت امرأة باهتة الوجه ترتدي قلنسوة، اتخذ فمها شكل دائرة وهي تستوعب المشهد أمامها. اتسعت عيناها عندما رأت پاك؛ ربما بدا ذئبا في الضوء الخافت، لكنه بلا ريب كان هائلا في الغرفة الصغيرة.

قالت، «جون؟»

«عودي الى الفراش.»

«من هذه؟»

فصرخ بوجهها، «الآن.»

استدارت المرأة بمشقة فوق السلالم الضيقة المظلمة، وهي تتكئ على الحائط بيد واحدة.

وقبل أن يتوارى رأسها، قلت، «انتظري.» فتوقفت. «بأي نوع من السكاكين يشحذ جون ريشته؟»

حدَّقت في وجهي فاغرة فاها.

«سكين تقليدية، يا آنسة.»

«كما تخيَّلتُ بالضبط. يوجد حصان مربوط خارج المنزل. ستجدين في حقيبته ريشة وورقا وحبرا. هلا جلبتهم لي؟»

نظرت بسرعة إلى جون وأومأت، لكنها لم تتحرك.

«الآن،» قلتها، فتوارت خلف باب المنزل في المطر.

«أنت غير أمِّي إذن،» قلتها لجون. «زوجتك؟»

رمقني ببغض شرس.

«كلا.»

«كم أنقدك روجر؟»

«لا يخصك.»

«إنه يخص أمن البلاد. كم أنقدك؟»

حرَّك فكه؛ وانخفض جفناه.

«ما هو الأكثر نفعا لك - النقود أم الجعة؟ إنني أملك مخمرة. إن فعلت ما أطلبه، سيصلك برميل كبير كل شهر.» اتسعت عيناه. صار يصغي الآن. «أفترض أن هذا ما تنفق نقودك عليه. ما لم تفضل البراندي؟ الخمر؟ ماذا ستقرر؟»

«كيف أضمن أنكِ ستنفذين وعدك؟»

أرخيتُ قبضتي عن طوق پاك فاندفع للأمام، كاشفا عن فكيه الهائلين. فتراجع جون فولدز وأطلق أنينا جبانا. ما الذي رأته آليس في هذا الرجل الأناني الضعيف؟

عادت المرأة بخطى خفيفة إلى داخل المنزل وناولتني الأشياء التي طلبتها، وهي لا ترفع عينيها عن الكلب. وما إن أخذتهم حتى ركضت عائدة إلى الطابق العلوي.

قلت له، «يقولون إن الكلاب تشم رائحة الخوف. لو كنت مكانك، لحاولتُ إخفاءها. لكني أعرف مدى صعوبة ذلك عندما تكون مُرتعبا. إنني خائفة، يا جون. خائفة من أن تُشنق صديقتي بسبب جريمة لم ترتكبها. وليس هي فقط - صديقتها أيضا قد تُشنق لمحاولتها إنقاذ حياة ابنتك.»

أجلتُ نظري في الغرفة البائسة، برائحتها الكريهة التي قوامها الشحم والجعة، ولسعة البرد المنبعثة من الجدران العارية، وارتجفت. لم يكن منزلا يصلح لطفل. ربما كان في يوم من الأيام منزلا بهيجا، وزوجة جون حيَّة ووليدهما ملفوفا في بياضات جديدة، وباب منزلهم مفتوح للجيران للزيارة والمباركة.

«وإن لم أفعل؟» قالها مُزدريا. «ستطلقين عليَّ النار؟»

«أجل. إلا لو كنتَ تفضل أنياب الكلب؟»

تنقلت عيناه الداكنتان من البندقية إلى الكلب. سلمته الورقة والريشة، وأومأت. تنهد وأخذهما إلى الخوان، منحنيا عليها لبسطها في دائرة الضوء.

«ماذا أكتب؟»

«الحقيقة.»

وقفت أرتجف وانتظرتُ فيما كتب هو كلماته في خط مُشعث ولا يكاد يُقرأ. أنصتُّ إلى الجواد يزفر بالخارج، والمطر يهطل على الشارع. كان صدري ضيقا بالخوف والراحة، وتذكرتُ الطريق الطويل الذي توجَّب عليَّ سيره في الصباح. كنت سأعود إلى جوثورب الليلة وأنام لبضع ساعات، ثم أنطلق إلى لانكستر قبل الفجر.

سلَّمني جون فولدز شهادته، وقرأتها بسرعة حتى النهاية. ثم قلتُ، «أضف سطرا عن كاثرين هيويت. لقد وُجِّهت لها نفس التهمة.»

أدار عينيه في محجريهما. «لن أكتب كتابا كاملا.»

«ستفعل ما آمرك به. أضف سطرا.»

«ها هو،» هكذا قال. «أفي هذا الكفاية؟»

«لا أعرف،» قلتها، وأنا أتناولها منه وأطويها في جيبي. «يحسن بك أن تتمنى ذلك.»

«يعني؟»

«إن تبيَّن أنه ليس كافيا، فربما أعود لزيارتك، ولا تتوقع أني سأكون في حالة تفاوض. تبدأ المحكمة في الصباح، إن أردتُ أن تواجه مثل الرجال ما فعلته. عمتَ مساءً.»

استدرتُ لأنصرف. كانت الأمطار تهطل بغزارة في الخارج.

«سأظل أحصل على الجعة، حتى وإن شُنقت تلك العاهرة، أليس كذلك؟»

توقفت عند المدخل، ودون أن ألتفت إليه، أفلتُّ طوق پاك من يدي. ولا بد أن كل ما رآه جون فولدز كان ومضة نحاس ولقطة سريعة لأسنان والكلب يرتمي عليه ويغرز فمه في ذراعه. أطلق صرخة رعب حادة، ثم شتم، وهو يتخبط ويجذب مرفقه. تفجَّر الدم قانيا في الكتان الأبيض القذر. ناديتُ پاك بصوت ناعم، فعاد إليَّ. استدرتُ لأواجه الرجل الجبان الضعيف المرتجف الذي أحبته آليس في ذات يوم.

قلتُ، «نعم، ستظل تحصل على الجعة. لأنه إذا لم يقتلك كلبي، فالبيرة ستفعل. وموت أبطأ هو أفضل.»

*

بعد مُضي ساعة، أدركتُ أنني أضعتُ الطريق. أردتُ التوجه غربا حذو النهر إلى جوثورب، لكن المطر كان

ينهال بشدة وبصوت عالٍ منعني من سماع النهر، فضلا عن الرؤية في الظلام. لم يكن هناك سوى شجر، ووحل، وغيوم تعبر أمام القمر، فجعلت الأمر مستحيلا.

كنتُ أقطِّر ماءً. والفرس أيضا كانت مبتلَّة جدا وتواصل تقدمها بصورة بائسة، وبين الحين والآخر تتوقف احتجاجا. مشى پاك بتثاقل إلى جوارنا، مُنهكا مثلما كنتُ، ومعطفه المنقوع قد صار بنيًّا غامقا. شعرتُ ببطني أثقل من أي وقت مضى، وكان قلبي يدق بسرعة رغم السير البطيء. التفتُ يسارا ويمينا ثم يسارا مرة أخرى، راجية أن أعثر على الطرق الواسعة التي تمتد بين القرى. كل ما فكرتُ فيه هو الورقتان في تنورتي: شهادتي وشهادة جون فولدز. إن ابتلوا، فقد تلفوا. شيء ما سكن في بطني، وظننته ربما يأسا، لكنني لم أكن لأذعن له. لن أبكي؛ سأجد طريقي إلى المنزل، حتى لو استغرقتُ الليل بطوله. سأذهبُ إلى لانكستر غدا وأقف في المحكمة وأسمع صوتي يرن عبر القاعة، وأعلن براءة آليس، وسوف ينصت الجميع، وترتطم أغلالها بالأرض، وتصبح حرة.

كنتُ أجلس متهدلة للأمام فوق بطني، وأسير بسرعة حلزون عبر الغابة، وجذوع الأشجار المظلمة الطويلة تحيط بي من كل جانب، والمطر ينز على عنقي، ثم بدأ الكابوس.

توقفت الفرس فجأة، وكأنها جفلت، وعندها سمعتُ النخير. كان خفيضا، إنما يمكن تمييزه حتى فوق صوت المطر. غمرني خوف بارد من رأسي وحتى أخمص

قدمي، وشعرتُ معه بالدوار. أغمضتُ عيني ثم فتحتهما مرة أخرى لربما كنتُ أحلم، لكن ذلك الصوت: كنتُ أعرفه، سمعته من قبل لمرات عديدة خلال حياتي، ولكن دائما أثناء نومي. أما الآن كنتُ مستيقظة، ووحيدة في الغابة. نبح پاك، وانبعثت زعقة خفيضة، وصوت آخر لنخير يقضم بصوت عالٍ، وعرفتُ أن الوحوش اقتربت، لكني لم أتمكن من رؤية شيء على الأرض. نكزتُ الفرس وصرختُ عليها لتنطلق، لكنها ترنحت في رعب، ثم شعرتُ بها تهبط على شيء، ثم صهلت، ورفعت قائمتيها - وبدأتُ أنزلق.

صرختُ فرفعت الفرس ساقيها مرة أخرى، وتأرجحتُ على الجانبين. سقطت البندقية المبتلة التي كانت في حجري على الأرض، وأطلقتُ صرخة، أثناء بحثي يائسة عن اللجام فلا أجد سوى عرف الفرس وعنقها المبتلة. رفعت قائمتيها لمرة أخرى، وخلعتُ قدمي من الرِّكاب خشية أن أجد نفسي أُجرُّ لأميال، لكني حينها وجدتني أسقط على ظهري في الظلام. انقلب العالم رأسا على عقب، ثم جاءت لحظة واضحة ونقية من السقوط الحر، حيث خلى ذهني من كل شيء، وكنتُ أطير -لا، بل أسقط- ثم ارتطمتُ بالأرض، حيث هبطتُ على جنبي، واصطدمت بطني بالوحل.

استلقيتُ وخدِّي على الأرض، وفي مكان ما بالجوار كان پاك ينبح بعنف، وصوت الحوافر يزداد خفوتا والفرس تركض بعيدا، وتواصل نزول المطر. عجزتُ أن أتحرك،

لكن أمكنني أن أسمع، مُترقبة النخير الذي عرفتُ أنه سيأتي. ثم سمعته. كانوا أكثر من واحد - خنزير يقترب من مكان ما خلفي، وآخر من أمامي، وكان پاك بالجوار، يتربص وينبح ويزمجر وينهش في الهواء، ثم كانت هوجة من الزعيق، وعجزتُ عن تحديد عددهم، أو إن كان پاك سينجو من أنيابهم العاجية.

أغمضتُ عينيَّ لأنني علمتُ أنهم سيدركونني - لطالما فعلوا. أما ما يحدث بعد ذلك فلم أكن أعلمه. وبينما تصارع پاك مع واحد أو اثنين أو ثلاثة، شعرتُ بنكزة فضولية على ساقي، ثم سمعت صوت النخير نهما بأنفاس حارَّة وأسنان غارقة في الدم. كنتُ مُبلَّلة، بالمطر أو بالدم أو ببولي، وشعرتُ بسائل بين ساقيَّ من تحت تنورتي، وكان ذلك عندما بدأ الألم.

ربما ناب ثقب بطني، لأن الألم كان فوريًّا ومُتفجِّرا، لكمة ساحقة عظيمة، ودقَّ قلبي في صدري، وعجزتُ أن أتحرك. ولكن عندها، وبنفس السرعة، كنتُ خاوية، وجسدي يدوي بصدمة غيابه المفاجئ. ثم عاد الوعي من جديد، وكان شيء يشمشم في عنقي، ووجهي، شيء مُشعر ثم ناعم - هل كان پاك؟ أم شيء آخر؟ وأغمضتُ عينيَّ، وعاد الألم من جديد، بصورة أقوى، ضاربا كل جسدي، ضاربا عمودي فقري، وعجزتُ أن أتحرك، عذابا أم رعبا لم أعرف، لكنه أغشاني.

كنتُ أحلم، لا بد أني كذلك - إما أني فقدتُ الوعي، أو نمت. كنتُ في المنزل، في جوثورب، على فراشي،

والنافذة تحتشد بالنجوم. لا، بل كنت مستلقية على أرض الغابة، تحت المطر، بُعد أميال من المنزل، وأميال من أي مكان، وكنتُ وحيدة، وأوشك على الموت.

سوف يكون في ذلك نهاية حياتها.

كنتُ من شدة خوفي عاجزة عن البكاء، لكنه خوف مختلف عن الذي شعرتُ به في كابوسي. كنتُ مُدركة الآن، وواعية، لكن الخوف كان ما يزال رهيبا، وحرتُ أيهما أسوأ: الخوف أم الإدراك بأن هذه هي النهاية.

كلبي. أين كان؟ لقد أنقذته مرَّة من حياة العنف والتعاسة، وأحببته. فتحتُ عينيَّ لأبحث عنه، وظهر أمام عينيَّ خطٌّ نحاس، برَّاقا كاللهب. ثم أغلقتهما مرة أخرى. عرفتُ أن پاك قريب، يحارب من أجلي، ذلك الوحش العظيم الذي حملته ودللته وقبلته وأخبرته أسرارا، والذي قد يقتل ثورا لكنه لن يؤذي ذبابة.

طفلي، الذي لن أقابله أبدا، ولن يقابلني أبدا، لكننا عرفنا أحدنا الآخر، وكان ذلك كافيا. سفعني الألم مرة أخرى مثل ميْسم، فثناني إلى نصفين، وأملتُ أن طفلي لم يشعر به، ولم يكن خائفا.

سوف يكون في ذلك نهاية حياتها.

بدا أن الأصوات تتلاشى، لكني كنتُ مُسمَّرة إلى الأرض، مازلتُ مُسمَّرة إلى هذه الحياة أسفل موجات متقلبة من الألم المبرح. لربما كنتُ أيضا أسفل عربة تدوس بعجلاتها جسدي جيئة وذهابا، جيئة وذهابا.

أصبح المطر خفيفا الآن، مثل قبلات ريتشارد على كتفي.

لا بد أن الورقات في جيبي في ابتلت بالماء.

آليس. عليَّ أن أنقذ آليس.

فتحتُ عيني لكني لم أجد سوى نفس السواد. أغلقتهما في وجه الألم، وانتظرتُ مجيء الظلام الحقيقي.

*

«سيدتي؟»

كانت الطيور تغرِّد. أصواتها بهيجة جدا. رفعتني أذرع فيما سرت طعنة ألم في جسدي.

«ربَّاه، انظروا إليها.»

«هل هي ميتة؟»

بدت أصواتهم خائفة، ولم أجد في نفسي الشجاعة لفتح عينيَّ ورؤية من يتحدثون عنه.

«هل تنزف؟»

كان جسدي يُرفع لأعلى، لكنه ثقيل، وثوبي غارق بماء المطر. مزيد من الألم، أكثر من أن أصدر صوتا، وبرودة - برودة شديدة.

«إنها ترتجف.»

«أسرع، أسرع، يا رجل!»

ثم وجدتني أتحرك بإيقاع ثابت كطفل يُهدهد في سريره، ورأيتُ ورق شجر أخضر وأغصان داكنة تموج فوقي، وتناهى لأذني صوت الرياح تتخلل الغابة. كنتُ أحب الغابة، وأشعر بالأمان هناك، ولا بد أن النعاس غلبني لأنني فجأة وجدتني أُحمل إلى الطابق العلوي، ممددة في صندوق هائل مثل قربان. حملتني أذرع قوية،

وتحركنا للأعلى، وتساءلتُ هل تُراه الرب يأخذني إلى الجنة. ثم أصبحتُ في مخدعي، فأُنزلتُ على فراشي، وشُدَّ اللحاف على جسدي، وفُتحت كل الستائر، وكان أناس يقفون حول السرير، لكني لم أجد الوقت لأتعرف إلى وجوههم لأن نوبة أخرى من الألم تهيَّأت للحدوث، وأعادتني إلى الحياة، لأني رغم استيقاظي، شعرتُ وكأني أحلم. ولحظتها أدركتُ أين أنا، وماذا يحدث لي.

كان الطفل يولد.

صرختُ وحاولتُ الجلوس، ورأيتُ أن ثوبي وسترتي والجيبونة قد أُزيلوا عني في مرحلة ما وأني ممددة في قميصي الداخلي، والذي تلطخ بالأحمر بداية من خصري وحتى كاحليَّ.

تمتمتُ، «لا، لا، لا، لا. ريتشارد! آليس، أين ريتشارد؟»

«لقد أرسلنا في طلب السيد،» قالها صوت خجول إلى جواري.

شدَّ الصبي على طاقيته، خائفا حتى النخاع.

وقال صوت آخر، «جورج، عد إلى الخارج وانتظر القابلة.»

كان ذلك جيمس، الوصيف، الذي وقف عند مؤخرة سريري. كان وجهه رماديا.

«قابلة؟» سألتُ، وأنا أعي أن نوبة أخرى من الألم لن تلبث أن تهاجمني من الجانبين. «ألن تأتي آليس؟ وحدها تستطيع مساعدتي. أين هي؟»

ثم تذكرت. لقد غادرتُ إلى لانكستر لزيارة جون فولدز

والحصول على إفادته، لأن المحاكمة كانت اليوم. وآليس هناك، وأنا هنا، أنزف، وهذا لا يعني إلا شيئا واحدا. أن حياتي تقترب من نهايتها، وكذلك حياتها. انبعث عويل هادر عظيم من مكان ما في بطني وأفلت من فمي.

«آليس! يجب أن أذهب إلى لانكستر حيث المحكمة. هل فات الأوان؟»

«إن السيد في سبيله إلى هنا، يا سيدتي، سيصل قريبا، مع طبيب أيضا، وقابلة.»

كانت عينا جيمس الداكنتين تلمعان في رعب.

«أين ثوبي؟ أحضروا ثوبي.»

فأحضره لي شخص ما -ليس جيمس- من حيث كان لابد مُلقى مكوَّما على الأرض، مبللا بالطين والدم والمطر.

«الجيب، افتحي الجيب.»

لم أستطع فعلها بنفسي؛ حيث كنتُ أتصدى للألم، فاستندتُ إلى مرفقيَّ، وأنا أتحاشى النظر إلى الدم الذي غطَّى قميصي وأغطية الفراش، أتحاشى أن أبكي. لكني كنت مرعوبة جدا، وحار الجميع فيما العمل، وكنتُ أولهم، وإذا كنت سأموت على هذا الفراش، فقد أردتُ على الأقل أن أمسك بيد زوجي وأنا أحتضر، لأنني أحببته، وغفرتُ له كل شيء، وتمنيتُ لو يغفر لي. كانت وريقات تُسحب من الثوب التالف، فانتزعتها من يد المرأة -واحدة من خادمات المطبخ- وأطلقتُ صرخة ارتياح، إذ كانت جافة، قد حمتها بطانة الثوب.

ثم دهستني، مرة تلو مرة، عربة العذاب العظيم، ثم رحلت، وجاء امرأة ما وأخبرتني أن أنام، ومسحت رأسي بخرقة، ولكنها لم تكن آليس، ولا هو نفس الشيء.

«آليس بريئة. قابلتُ جون فولدز،» هكذا تمتمتُ، وقال الصوت، «شش، أعرف، أعرف.»

ثم ربما نمتُ بالفعل، لأني لم أدرِ بنفسي إلا وقد أفقتُ، والفزع يملؤني من جديد. ثم إذ بريتشارد في الغرفة، يملؤها بقوته وسيادته الحيويتان، وكأنما الملك بذاته قد دخل مخدعي.

انكبَّ فوقي، وهو يأخذ بيديَّ. كان وجهه مبتلا.

«شبحي الصغير، ماذا فعلتِ؟»

بوعي مشوش رأيتُ أن امرأة أخرى كانت معه، لها حضور جسيم وعريض، وبشرتها وردية، وظننتُ في رهبة أنها الآنسة فونبريك. لكن ريتشارد أخبرني أنها قابلة من كليثرو، وأنها...

لكنني لم أكن أصغي إليه، لأنه لما صار هنا، كان شيء غريب يحدث، وكأني أغوص في النوم. ولكن لديَّ ما أعطيه له – تلمستُ جواري على الفراش بحثا عن الوريقات، ودفعتها في يديه.

«ريتشارد، يجب أن تذهب الآن، يجب أن تقرأ هذه في المحكمة.»

كان فمي جافًا جدًّا، وصوتي ضعيفًا.

«ما هذه؟»

«ريتشارد، أرجوك، أنصت إليَّ. هذه الشهادات قد

تطلق سراح آليس.» سفعتني نوبة أخرى من الألم كحديدة ابيضت في التنُّور. «يجب أن تذهب وتصر على أن يقرؤوها، أو تقرأها بنفسك. إنها شهادتي، وشهادة جون فولدز.»

كان رأسي دائخا، والرؤية ضبابية.

سوف يكون في ذلك نهاية حياتها.

«كلا بالطبع، يا فليتوود، سأبقى هنا معكِ.»

«يجب أن تفعل هذا!» كان صوتي قريبًا من الصراخ. «أخرجها، يا ريتشارد. أخرجها! هي فقط من يمكنها إنقاذي، وأنا فقط من يمكنني إنقاذها!»

«كفى!»

كان صوته يشبه صوت الإله الآن، سابحا في ظلام كهفي عظيم، لأنني كنت أنجرف بعيدا عنه، عن مخدعي، عن كل شيء. ظننتُ أني عرفتُ معنى الألم، ولكن اتضح أني لم أرَ سوى وجهه الأطيب، أما الأقبح فكان في الطريق.

كانت سكاكين تطعنني. وألهبة نار تغسلني. تغمَّدتني أغلال، فكبَّلت حركتي، وحاولتُ أن أرفع نفسي وعجزت. يداي ورجلاي: مليئات بالماء. جسدي: مشطور إلى نصفين، قد شُرِّح من الرأس. كل شبر مني صرخ، عدا فمي، لأنني عندما فتحته لم يخرج شيء. ماء، كنتُ بحاجة لماء. ماء لإخماد اللهيب الذي يشوي عمودي الفقري. كانت النار تأكلني. كنتُ أموت، كنتُ ميتة، ولا بد أني في الجحيم الآن. شعرتُ بسائل يتدفق من بين

ساقي، ثم عاد الظلام مرة أخرى، فأحاطني رحيما بعباءته السوداء السميكة.

«فليتوود.»

«فليتوود.»

«فليتوود.»

كان في النداء حبٌّ، وحزن، وكان الصوت يرتجف بهذين الشيئين. كان صوت امرأة أم هو رجل؟ الألم - كنتُ أنا الألم، لم يكن منفصلا عني، لم يكن شيئا يحدث لي. عاد الظلام مرة أخرى، وكنت ممتنة.

لمسة فراء على ذراعي. علمتُ أنه ثعلب قبل أن أفتح عيني. كان يقف على الأرض بجانب سريري، يحدِّق بي بعينين عسليَّتين واسعتين. وبدا في استماتة لقول شيء.

ضحكتُ وقلتُ، «ما الأمر؟»

ثم حدث شيء في غاية الغرابة: فتح الثعلب فمه وتكلم، وكان أنثى، وقال، «قُبحًا لمن يُضمر شرًّا.»

*

طال الظلام زمانا، حتى نسيتُ كيف يبدو الضوء. ثم إذ بنور شمعة يأتي، ناثرا الضوء في المشهد أمامي مثل لآلئ فوق فستان قطيفة أسود. ثم أخرجتني يد باردة على رأسي من الظلام. كانت يد النور، لكن يد الظلام تشبثت بقدميَّ، بذراعيَّ.

لا، أريد أن أبقى في النور.

حاولتُ التخلص من يد الظلام، فركَّزتُ تفكيري على اليد الصغيرة الباردة -أم كانت خرقة؟- فوق جبيني التي

كانت تثبتني إلى الغرفة وسط البحر المظلم الهائج الذي عصف بداخلي.

ثم قال صوت، «ادفعي. عليكِ أن تدفعي.»

قلنسوة بيضاء. تتدلى منها جديلة شعر ذهبي. كانت فتاة الغابة التي تحمل الأرانب. ماذا كان اسمها؟

هاجمتني موجة ألم، ولأتخلص منها كان عليَّ أن أشحذ قوتي، أن أدفعها خارج جسدي.

«ادفعي!»

أُريق شيء ما، وشعرتُ بدفقة تشبه برميل سمك انقلب. كانت موجة الألم تستعد للعودة من جديد، تتشكل ببطء، ثم تهجم، وشحذتُ قوتي أكثر، وأكثر، وأكثر، حتى ظننتُ أني قد أنفجر.

«عندما يأتي الطَّلْقُ مرة أخرى، ادفعي!»

آه، هل لا بد أن يأتي مرة أخرى؟ أجل، كان قادما الآن، وكنتُ مستعدة له هذه المرة، فهيَّأتُ نفسي لمواجهته كمن يوشك على التصارع مع أحد الآلهة القديمة. انطلقت صرخة رهيبة، أنين مُعذَّب، وتمنيتُ أن يتوقف أي كان من أطلقها، ولكن إذ بي أدرك أن فمي كان مفتوحا ورئتاي تفرغان هواءهما، وكان شعورا رائعا، وكأني كنتُ أعتصر نفسي، لأن الصرخة تجاوزت الألم.

وإذ خمدت صرختي، انطلقت أخرى. غير أن هذه الصرخة كانت أكثر خفوتا، وخرجت في دفعات صغيرة قصيرة بدلا من تلك الممتدة الهائلة الطويلة. كانت نوبات الألم قد توقفت، وأخذت تأتي الآن في نكزات

صغيرة متفرقة. ذلك الصوت الغريب مرة أخرى، شبيها بصوت حمل، أو هريرة. وفجأة شعرتُ بتعب يفوق أي تعب مررتُ به في حياتي. أردتُ النوم، ومع أن أطرافي كانت ثقيلة كالرصاص، إلا أن قلبي دقَّ بعنف، وراح يدوي بانج بانج بانج.

لكن الغرفة كانت تعج بالأشخاص، وكانت أصواتهم مرتفعة، مع أني أردت النوم. سمعتُ كلمة «دم» مرة تلو مرة، في نبرة هلعة. ألم يروا دما من قبل؟

النوم - كنت بحاجة إلى النوم.

«فليتوود، ابقي معي. فليتوود، ابقي هنا.»

وهل في وسعي أن أذهب إلى مكان آخر؟ كنتُ من شدة التعب عاجزة عن الحركة. كان الظلام الذي تشبَّث بي سابقا قد طوَّق يدي الآن بيده، تأهبا ليأخذني معه. آه، ذاك هو المكان الذي كانوا يقصدونه. لا تذهبي معه.

قلتُ، لا يمكنني الذهاب. يجب أن أبقى.

جذبة أخرى، أكثر إلحاحا هذه المرة، ومعها عرفتُ أني سأجد الهدوء إلى حيث ستأخذني، والسكينة، والأمان. كنتُ ممددة بالفعل - سيكون في غاية اليسر أن أستسلم لظلام كثيف دافئ.

«فليتوود، اشربي هذا.»

انتظر لحظة فقط، أحتاج لتناول شراب.

سأحب تناول شراب. ولأنه كان قويًّا، سحبتُ يدي بمشقة من قبضته الناعمة كالحرير، وشعرتُ بقدح عند شفتي، وسائل دافئ وعذب في فمي. ثم استُبدل

السائل بشيء صلب وأرضي، وأُمرتُ أن أمضغه.

وإذ عدتُ إلى رشدي، وجدتُ الغرفة، من رحمة الإله، هادئة ومُشرقة بضوء النهار. غرَّد طائر خارج النافذة واشتعلت النيران بابتهاج، فملأت الغرفة برائحة دخان الحطب. كانت امرأة منحنية فوق النار وظهرها لي، وتقلِّب قدرا، وعبق مخدعي برائحة الأعشاب النفاذة. كان الألم يرجع صداه بعد في جسدي، وكل شبر مني أراد النوم. راقبتها، ورأيتُ التقوس الناعم لعنقها، والطريقة الشقيَّة التي رفض بها شعرها أن يستقر تحت قلنسوتها. نهضت وذهبت لتنظر إلى شيء ما عند مؤخرة السرير، وأحدثت صوتا رقيقا.

«آليس،» همستُ، ولا أعرف إن كانت سمعتني، لكنها رفعت عينيها، ورأيتها تبكي.

اقتربت مني وركعت جوار فراشي. هممتُ بالجلوس، لكنها وضعت يدا حازمة على ذراعي. نظرت إحدانا للأخرى لوقت طويل، وأردتُ سؤالها عن أشياء، لكن الإجابات لم تكن تستحق المجهود الذي سأبذله، حيث أنها لم تعد مهمة الآن.

قالت، «لحاء الصفصاف.»

أدركتُ أن الخشب المر كان ما يزال في فمي، وأنه ربما كان ذو تأثير، حيث شعرتُ بذهني أكثر صفاء وقلبي ما عاد يركض. أردتُ كفكفة دموعها التي كانت تنهال على خديها الآن دون قيد.

«يجدر بكِ أن تنامي.»

ثم تحركت لتنهض، وتنورتها تصدر حفيفا.

وبطاعة الأطفال، أغمضتُ عيني. انبعث حفيف آخر، ورائحة الخزامى المريحة، وشعرتُ بشفتيها على جبيني، في غاية النعومة، وأنفاسها على خدي.

عندما مددتُ يدي إلى الظلام مرة أخرى، لم يكن هناك.

الجزء الرابع

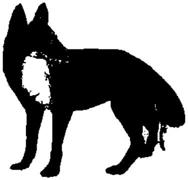

«حافظ على عشيرتك الأقربين.»

شعار عائلة شاتلوورث

الفصل الخامس والعشرون

وُلد ريتشارد لورانس شاتلوورث قُبيل الفجر مباشرة في العشرين من آب، عام 1612م، نفس اليوم الذي أُعدمت فيه عشر ساحرات شنقا على التل المُطل على لانكستر.

لم تكن آليس جراي واحدة منهن.

ليس إلا لأن پاك كان قد ركض من ذلك الجُب العميق للغابة إلى جوثورب، الذي لم يكن في الواقع أبعد من ميل واحد، أن نجونا نحن الثلاثة - آليس وابني وأنا. مع نباحه أمام باب القبو أفاق الخدم، الذين أيقظوا جيمس، وبدوره أيقظ بعض الصبية، وقاد كلبي موكبا بالمشاعل عبر الأشجار إلى حيث كنتُ ممددة في الوحل، فوصلوا مع بزوغ فجر أول أيام محاكمة الساحرات. انطلق واحد من الرجال -أمهر فارس على أسرع جواد- في سباق لأربعين ميلا إلى ريد ليون في لانكستر لإحضار ريتشارد، الذي جُنَّ جنونه لما اختفيتُ، وطرق كل باب في البلدة ليسأل إن كان أحد رأى امرأة صغيرة الجسد كبيرة البطن مع كلب ضخم. كان كل ما تركته هو رسالة تخبره أنني سأعود قبل أن تبدأ المحاكمة. حتى أنه ذهب إلى منزل توماس كوفيل، القيِّم على القلعة، لكن الكلمات ماتت

في فمه إذ أدرك أن روجر ربما يكون جالسا في غرفة الضيوف مُصغيا أذنيه، لذا اعتذر مُتلعثما وغادر.

عندما وصل مبعوث جوثورب قبل الفطور، قال ريتشارد إنه لما سمع حوافر الحصان على أرضية الباحة المحصَّاة أسفل النافذة، عرف أنه يحمل رسالة عني. لم يهدر ثانية، فقاد جواده إلى المنزل دون توقف، مُنطلقا كسهم يشق الرياح. أخبرني كيف تلوَّنت السماء بدرجات الأزرق والخوخي، وكيف أقسم لنفسه أني إن عشت، فسوف يصمم لي أثوابا من كل الألوان الجميلة التي رآها في ذلك الصباح. قال إنه قطع مع نفسه كل أنواع العهود - إن عشتُ، فسوف يجدد منزل والدتي من قبوه إلى سطحه، بملاط جديد وطلاء وأبسطة وكتب أكثر مما تتسع حياتها لقراءته. إن عشتُ، فلن أنام وحدي في فراشنا مرة أخرى أبدا، إن كان هذا ما أردت.

كان الخدم أيضا قد أحضروا شقيقة الطاهية التي تعمل قابلة من فراشها في كليثرو. وعندما وصل ريتشارد، لاهثا وجلده يلمع من العرق، أخبرته بعبارات صريحة أنها لا ترى أملا كبيرا، وأن الرب يبدو مُستعدا ليأخذني وطفلي إلى الحياة الآخرة. فامتقع وجه ريتشارد من الغضب، وصرفها، وأمر الخدم بالبحث عن قابلة أخرى. وفي طريقها إلى الخارج بأنف متشامخ، أعطته الوريقات من تنورتي التي ألقيت بإهمال على الأرض، تطأها الأقدام في الدخول والخروج.

في تلك اللحظة قرَّر ريتشارد أن الوحيدة التي يمكنها إنقاذي، تجلس مكبَّلة بالأغلال في القلعة. ولذا، دون أن يبدل ملابسه أو حتى يأكل شيئا، ركب حصانه عائدا إلى لانكستر، وهو يعرف أنه قد لا يراني حيَّة مرة أخرى. ترك حصانه عند البوابة، وكلاهما يكاد يسلم الروح، واقتحم القلعة، وطالب أن يسمح له قضاة الملك بقراءة شهادتين تتعلقان بمحاكمة آليس جراي، التي كانت قد بدأت بالفعل.

لم يكد يشعر بموجة الاندهاش القادمة من شرفة العرض، أو التعبير الهادر على وجه روجر من مقعده القريب للقضاة، أو السقف المهيب العالي وصفوف الجلوس البرَّاقة، أو هيئة المحلَّفين. كل ما ذكره هو الورقتين في يده، وقلبه يدق في صدره، ووجه آليس البائس من حيث وقفت مع بقينة السجناء، بأغلال حول معصميها وكاحليها.

أجاب اللورد بروملي طلبه، وكاد روجر ينفجر غضبا، فقام يحتجُّ، لكن الغلبة كانت للقانون، وواجه ريتشارد آليس خلف القضبان وقرأ كلماتي، رغم ارتعاش يده وارتجاف صوته. وبعد ذلك قرأ كلمات جون فولدز، وإن كان واجه صعوبة أكبر معها، لأن خط الرجل كان بغاية الرداءة.

عندما خرجت هيئة المحلفين، كان على ريتشارد أن ينتظر في شرفة العرض، مبتلَّ الثياب ومرهقا من قيادة جواده قرابة ثمانين ميلا في أقل من يوم واحد. وأثناء عودتهم بحث في وجوههم، وجها وجها، وعندما نظر

بضعة منهم في عينيه -حيث أدرك الآن أنه شارك بعضهم لعب الورق- حار في معنى ذلك، وحسب أنه سيموت من عذاب الانتظار. عندما نطق رئيس هيئة المحلَّفين بالكلمتين «غير مذنبة»، شاهد آليس تسقط كالحجر بُعد ياردات قليلة منه.

«ثم ماذا حدث؟ أخبرني ثانية.»

«تصاعدت شهقات عظيمة من الجمهور. شكرتُ هيئة المحلفين، ثم فقدتُ الوعي.»

ضحكتُ وصفقتُ بيدي. كنتُ جالسة في الفراش، وقد ارتديتُ قميص نوم أبيض نظيفا، تحت غطاء سرير جديد - كان لابد من حرق السابق، بالإضافة إلى المرتبة. كان ريتشارد الصغير بين ذراعي، ورغم صغر حجمه، إلا أنه كان مثاليًّا في عيني. كان يملك شعيرات سود ناعمة كالحرير، وشفاه وردية رقيقة، وخدين ممتلئين كالتفاح. في أول مرة أرضعته، عندما تسنَّى لي تأمل كل شبر بديع منه بالتفصيل، لاحظتُ شيئًا على ذراعه، وكنتُ على وشك استدعاء المربية عندما أدركتُ كنهه.

في عقفة مرفقه الصغير كانت وحمة بنية، لا يزيد حجمها عن ظفره الصغير، على شكل هلال. تطابقت مع الندبة التي لديَّ في نفس المكان، من حيث سحبت آليس مني الدماء. عدتُ صباح اليوم التالي للتحقق من وجودها، وكانت هناك، جزءا منه بقدر ما كانت أصابع يديه وقدميه، وأنزلتُ كمه الصغير المهندم مرة أخرى وابتسمتُ لنفسي.

«وبعدها؟»

ارتشفتُ حليبي الدافئ، المُبهَّر بالأعشاب الطبيَّة.

فقال ريتشارد، «حسنا، بعدها كان علينا انتظار بقية الأحكام.»

بفتور شديد، حرَّك الخشخيشة التي كان قد اشتراها منذ كل تلك الأشهر التي مضت. لم تكن كل الأخبار سعيدة.

لم يتمكن ريتشارد من قراءة جملة جون فولدز الأخيرة، التي خطَّها بيد مهزوزة لسُكره على ضوء الشمعة البائس، والتي تبرئ كاثرين هيويت من أي ذنب. لذا أدينت المرأة المسكينة، صديقة آليس وأمها، وشُنقت. أخبرني ريتشارد كيف أنه بعد دفاعه عن آليس، استُدعيت كاثرين للمحاكمة، وأصبح روجر مُستأسدا في رؤية مخططه يُخدم. فأرهب بالصراخ هيئة المحلفين، ولوح بقبضتيه، وأزبد شدقاه وهو يؤكد مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، على النقطة التي تقول أن تلك المرأة، الشهيرة بمولدهيلز، والتي ولَّدت العديد من الأطفال وبفضلها أصبحت العديد من النساء أمهات، قتلت طفلة بغير سبب عدا أن الشيطان أمرها بذلك.

فاق الأمر تحمل آليس، وقال ريتشارد إنها صرخت بألم أكبر مما لو كان الحكم عليها. بعد أن أزيلت أغلالها، غادرت القلعة دون أن تنظر وراءها، وظلت تبكي طوال الطريق إلى جوثورب، وتتشبث بريتشارد حتى مزقت سترته. كانت حرَّة، لكن حريتها تحققت بثمن باهظ.

كان من ضمن سحرة پندل الذين أُعدموا في ذلك اليوم،

إليزابيث ديفيس وابنتها أليزون وابنها جيمس، فتركوا جينيت وحيدة في هذه الحياة. ومعهم ذهب سبعة آخرون. جميعهم كانوا حاضرين في برج مالكن. كانت آليس هي الوحيدة ضمن المجموعة التي أُطلق سراحها. وامرأة واحدة أدينت وحُكم عليها بأربعة أيام في المقطرة[2] وعام في السجن كعقاب. كان اسمها مارجريت بيرسون، التي رأت خادمتها علجوما يخرج من النار. لم تكن حاضرة في برجٍ مالكن، لذا لم يهتم روجر كثيرا بمصيرها، ولم يكن مهيأً لبذل جهد كبير لرؤيتها تتأرجح على حبل المشنقة.

أخبرني ريتشارد أن بروملي في كلماته الأخيرة لآليس، حثها على نبذ الشيطان. لم يكن ذلك عسيرا، لأنها حالما غادرت القاعة، كانت قد تخلَّصت منه.

*

«لديكِ زائر،» قالها لي ريتشارد بعد بضعة أيام. «هل أرسله إليكِ؟»

«من هو؟» أزهر الأمل في صدري.

ابتسم ريتشارد. «اصبري وسترين بنفسك.»

لاءمته الأبوة؛ كان مُتيَّمًا بابنه. ربما في مكان ما لديه ابن آخر، أو ابنة، لكنني صرفتُ الفكرة عن ذهني.

وقلتُ، «سوف أنزل. لم أر الطابق السفلي كل هذه المدة وأكاد أنسى شكله. ريتشارد؟» قلتها قبل أن أفقد شجاعتي. فتوقف ويده على مقبض الباب. «أنا آسفة،

٢- آلة تعذيب عبارة عن ألواح خشبية توضع حول كاحلي الشخص أو معصميه، وتثبت الألواح على عمود وتوضع حول ذراع الشخص ورقبته، مما يجبرهم على الوقوف.

ولكن سيكون عليَّ ابتياع بندقية جديدة لك.» بدا حائرا.
«لقد أخذتُ بندقيتك في الليلة... في الليلة التي عدت فيها إلى هنا. أضعتها في الغابة.»

«أخذتِ بندقيتي؟»

بدا منذهلا أكثر منه منزعجا.

«أجل. لم أنوِ استخدامها – لم أكن أعرف كيف. لا يهم. لقد أغرقتها مياه الأمطار أيضا، لذا فقد أتلفتها بكل الأحوال.»

ابتسم. «إنكِ تثيرين دهشتي في كل يوم، يا سيدة شاتلوورث.»

«ريتشارد... شيء آخر بعد. ثمة ما أريد سؤالك عنه.»

ناولتُ الرضيع النائم إلى أبيه ونزلتُ على مهلٍ من السرير، فقصدتُ خواني في زاوية الغرفة.

أخرجتُ خطاب الطبيب، والذي كان مهترئا ومهلهلا مثل خرقة قديمة الآن. أمسكتُ به في قبضتي ونظرتُ من النافذة إلى تلال پندل. ثم ناولته إلى ريتشارد.

«لماذا لم تخبرني عن هذا؟»

قطَّب وأخذه بيده التي لا تحمل الرضيع. راقبتُ عينيه تتحركان فوقه، ثم تجلَّى الإدراك على وجهه، وعقد حاجبيه.

«من أين حصلت على هذا؟»

«سلَّمه لي جيمس منذ شهور.»

«لم يكن مُفترضا أن تري هذا.»

«ألا تظن أنني سأرغب في معرفة أن حياتي ...»

«لم يكن مُفترضا أن تري هذا لأنه لا يتعلق بك.»

صمتُّ. «ماذا تعني؟»

تنهد ريتشارد. «هذا الخطاب يتعلق بجوديث.»

«جوديث؟»

ربَّت على الفراش بجانبه فذهبت لأجلس. كانت شهور الاضطراب تطنُّ في رأسي، واستغرق الإنصات إليه كل طاقتي.

«إن هذا الطبيب لم يزركِ؛ لإنه من بريستون. أرسلته لعيادة جوديث في بارتون عندما أُجهضت... أُجهضت في المرة الأولى. حاولتُ تجنُّبها بعد ذلك، إلا أني... عدتُ إليها مرة وحيدة، وصارت حُبلى للمرة الثانية.»

أغمضتُ عيني لأسمح باستيعاب كلماته.

«لكن الخطاب يقول إنها زوجتك.»

حنى ريتشارد رأسه، وقال بصوت شديد الخفوت، «اضطررتُ لإخباره بأنها كذلك.»

طفا الحبر الأسود بدفتر الحسابات إلى سطح ذاكرتي: السيد وليام أندرتون لإحضار رخصة زواج من يورك.

«لماذا طلبت إحضار رخصة زواج؟»

قطَّب ريتشارد. «كان ذلك لابنة أخت جيمس. لقد تزوجت في الشهر الماضي. لا شيء لا تعرفينه الآن، أعدك.»

جلستُ بصمت، لأسمح باستيعاب كلماته.

ثم همستُ، «لماذا تذهب إليها؟»

بدا وكأنه يتمعن في إجابته زمنا، ووضع يده فوق يدي. تلألأت خواتمه، وكاد صوته يصير همسا.

«لقد رأيتُ حالك عندما مات الصغار. رأيتُ كيف أمرضكِ ذلك. كنتُ خائفا من إيلامكِ مجددا.»

حتى في ذلك الوقت، وبعد كل الذي كابدته، عجزتُ أن أكرهه.

«أما الآن فأنا في غاية السعادة أن صار لدينا ولد.»

وبينما حمل الرضيع بذراع، تناول الشخشيخة مرة أخرى، وابتسم له. راقبتهما بحزن، وبسعادة، وبأسى. كان المشهد يفوق احتمالي.

«تذكري ضيفكِ بالأسفل. سأتركك لتبديل ملابسك.»

طبع قبلة على رأس الرضيع وغادر بسكون.

نهضتُ وعقصتُ شعري داخل قلنسوة. كان قد توقف عن التساقط، وصار الآن قويًا وسميكًا كحبل. ارتديتُ رداء بلا كمَّين فوق قميصي الداخلي، وحملتُ الطفل ثانية لأريه بقية منزله. وأثناء نزولي على الدَّرج توقفتُ لوهلة أسفل اللوحة التي تحمل صورتي وتذكرتُ قول آليس أنني أذكرها بشخص ما. أدركتُ أنها لا بد كانت تعني آن. قد لا يتاح لابني أبدا أن يعرف المرأة التي أنقذت حياتنا، ولكن ربما كان هذا أفضل، لأنها في اختفائها عن الأنظار، كانت في مأمن.

رحلت آليس أثناء نومي، بعد أن غُسل الدم وقُمِّط الرضيع، فانسلَّت من مخدعي دون أن يلاحظها أحد. قال ريتشارد إن ذلك كان بعد يوم بليلته من ولادة ابننا، وكان المنزل مشغولا بأشخاص يصعدون السلالم وينزلونها، بأوعية ماء ساخن ومفارش جديدة، فلم ينتبه أحد. كانت

هنـاك، ثـم لـم تكـن. لـم تـودع أحـدا، رغـم أنهـا قبَّلتنـي بحنـان أمٍّ لـم أعرفـه مـن قبـل.

كنتُ أعرف أن الأمر مُحال تقريبا، إلا أن جزءا وامضا ضئيلا مني تمنَّى أن يجدها جالسة في غرفة الضيوف الآن. وكمن ترجئ الشعور بخيبة الأمل، نزلتُ السلالم ببطء شديد، وأنا أهدهد الصغير وأناغيه. كان الخدم مُتيِّمين بالفرد الجديد الذي انضم للعائلة، وما انفكوا يبتسمون لي بإشراق. تجمَّعوا في حزب صغير في بهو المدخل فابتسموا وهم يشاهدونني أنزل به آخر درجات السلم، وبادلتهم الابتسامة.

كانت غرفة الضيوف خالية.

«سـيدتي؟» قالتهـا مـن خلفـي إحـدى خادمـات المطبـخ. «إنهـا فـي حجـرة المائـدة؛ فقـد طلبـت طعامـا لشـعورها بالجـوع إثـر رحلتهـا.»

نهضـت أمـي مـن مقعدهـا لحظـة أن دخلـت، بوجههـا صـافٍ وذراعاهـا ممدودتـان.

«حفيدي،» قالتها في تودد، وأقبلت لتأخذه.

تـرددتُ، ثـم ناولتهـا إيـاه. جـرت عينـا أمـي فـوق بشـرتي وشـعري وجسـدي.

«تبدين بصحة جيدة، يا فليتوود. لم يكن حملكِ لطيفًا.»

«أجل.»

«هل تعافيتِ؟»

«أظـن ذلـك. لقـد فقـدتُ كميـة كبيـرة مـن الدمـاء، لـذا تُجبرنـي الطاهيـة علـى تنـاول اللحـم كل سـاعة تقريبـا. إنهـا أول مـرة لـي فـي الطابـق الأرضـي.»

ابتسمتْ ووضعت وجهها في وجه ريتشارد الصغير. رمش ببطء ولوَّح بقبضتيه الصغيرتين، ووضعت إصبعها في راحة يده.

قالت بسعادة، «ولد صغير.»

لكنها كانت تخفي شيئا؛ عرفتُ ذلك في صوتها.

«ما الأمر؟» سألتها، فالتفتت إليَّ وابتسمت بشجاعة.

«إن ريتشارد أبٌ للمرة الثانية.»

«لماذا تخبرينني بهذا؟»

ارتجفت الريشة في قبعتها.

«لأنني أردتُ أن تسمعيه مني، وليس من مروِّج أخبار في القرية، أو في حجرة مائدة بمنزل أحدهم.» ثم تنهدت. «أعرف أنكِ ربما لن تسامحيني أبدا لأنني أخفيتُ الأمر عنكِ، لكنني ظننته الصواب، ولن تجلب لكِ المعرفة سوى التعاسة. من ستتمنى ذلك لابنتها، مادام بإمكانها تجنبه؟»

خفضت عينيها إلى الصغير، ولاحظتُ التجاعيد حول عينيها وفمها فيما تحدثت.

«عندما مات والدكِ، كنتُ... تائهة. كنتُ وحيدة مع ابنة رضيعة، و...»

«لم تطيقي صبرا على التخلص مني،» قلتها بفتور. «أسرعتِ بتزويجي.»

نفضت رأسها. «كان ذلك قرارا اتخذناه والدكِ وأنا معا. كان والدكِ عليلا واقتضت الضرورة رجلا يتحمل مسئوليتنا. ماذا كان سيحدث لنا؟ عندما تقدَّم السيد مولينو إلى والدك بعرض، لم يملك خيارا سوى القبول به.»

«لم أكن أعرف أن أبي دبَّر الزيجة.»

جلسنا في صمت لدقيقة أو دقيقتين، نتأمل الشعر الأسود الناعم على رأس ريتشارد، وأذنيه الورديتين كمحارتين صغيرتين. سرعان ما اشتقتُ إلى ثقله بين ذراعي، اللتان تدليتا سدًى في حجري.

ثم قلت، «كنتُ تعيسة جدا في ذلك المنزل. عشتُ كل يوم من طفولتي وأنا أخشى أن يأتي الغد فترسليني إليه.»

«ما كنتُ لأفعل ذلك.»

«هددتِ بذلك كلما أسأتُ التصرف.»

«وأنا آسفة على ذلك. ما كنتُ لأفعلها أبدا. إن تربية طفل بدون أب هو أمر شاق. قد تقول الأم أي شيء لإسكات طفلها.»

«تعرفين أنه... عندما جاء لأول مرة قام...» ارتجف صوتي. «لقد غادرتِ الغرفة.»

أشاحت أمي بوجهها. صارت عيناها أكثر قتامة من أي وقت مضى، وانثنت زاويتا فمها لأسفل، وإن واصلت يدها تلقائيا تربيتها على الصغير، الذي كانت تهدهده برفق شديد. لم يسبق لي رؤيتها مع طفل رضيع، وكان كمن ملأ فيها تجويفا أموميا عتيقا لم أعرفه من قبل.

«لهذا قمتُ بإبطال الزواج.»

حدقتُ فيها. «كنتِ تعلمين؟»

«عندما عدتُ، كان واضحا ما حدث. بدا صورة مجسَّمة للذنب، ووجهكِ الصغير...» ولأول مرة في حياتي، رأيتُ

الدموع تترقرق في عيني أمي. «كانت غلطتي،» قالتها بصوت أجش من التأثر. «لم أعرف ماذا أفعل، وكيف أتنصل من الأمر بدون والدك. لكنني عرفتُ أني ما كان لي قط أن أسلمكِ لذلك الرجل.»

«ظننتُ الزواج أُبطل لأن ريتشارد كان عريسا أفضل.»

تمالكت أمي نفسها، وابتسمت بوهن.

«أولم يكن كذلك؟»

ببطء تراجعتُ في مقعدي. تدفَّق ضوء الشمس عبر النوافذ - كان يوما جميلا من أواخر الصيف.

«يسرُّني أن ريتشارد أسكن عشيقته هناك لأنني هكذا ما عدتُ مُجبرة على العودة إليه.»

«أنا أيضا كرهته،» قالتها أمي في مفاجأة لي. «لم أشعر قط بالاستقرار هناك. وتمنَّيتُ عندما تتزوجين أن تنقليني إلى مكان آخر، وقد فعلتِ.»

بل هو ريتشارد. لم تكن لي أي علاقة بالأمر، ولم أكترث برغبات أمي في ذلك الوقت.

«حسنا، إنه يملك الآن سيدة جديدة. جوديث ثورب من بارتون. هنيئا لها به.»

مالت أمي للأمام.

«أخذتُ أفضل أواني الفضة قبل رحيلي.»

ابتسمنا إحدانا للأخرى. كدتُ أسألها هل أنجبت جوديث ولدا أم بنتا، ثم قررتُ أنني لا أريد أن أعرف. بدأ الخدم يضعون العشاء، وانضم إلينا ريتشارد، وجلسنا على مائدة تحوي قطعة كبيرة من لحم البقر المشوي

وورشانة ضخمة تقطِّر مرقا. ما أبعد شهيتي الآن عن تلك التي كانت منذ خمسة أشهر - كان بوسعي أن آكل الورشانة كلها لوحدي.

«رأيتُ في طريقي عبر باديهام امرأة في المقطرة بكيس فوق رأسها كُتب عليه ساحرة،» قالتها أمي أثناء الطعام.

فقال ريتشارد، «مارجريت بيرسون.»

منذ أن حضر المحاكمات، صار يبدي اهتماما حريصا بحوادث ذلك الصيف. حتى أنه كوَّن نظرية عن صديقنا القديم توماس ليستر: وهي أنَّ جينيت بريستون كانت عشيقة والده، ولأن والدته كانت ما تزال حيَّة وواهنة، فقد أراد إبعادها عن أنظارهم وأذهانهم. ذاك وإما أنها عرفت عنه سرًّا، ففضَّل موته عن إذاعته. وأما روجر، فلا ريب أن دروبنا ستلتقي من جديد، لكن العمدة كان قد أهان نفسه قليلا في رحلته لطلب السلطة. فظهر رجلا يدفع الأرواح ثمنا لنهاية خدمة رغيدة؛ تمثلت في تأثيث جديد لمنزله تحمَّله الملك، كل ذلك لإضافة بضعة أيام مجد أخيرة إلى مشواره الذهبي في القضاء. وطموح قاس كهذا، كان يُعتبر بين طبقة الأرستقراطيين في الشمال طموحا بائسا، فأُغلقت في وجهه موائد العديد منهم.

مضى ريتشارد يقول، «ستقضي أربعة أيام سوق في المقطرة، ثم تذهب إلى السجن، حيث ستموت على الأرجح، لأنها لن تكون قادرة على دفع الكفالة حال انتهاء مدَّتها.»

سألتْ أمي، «لماذا لم تُشنق؟»

نفض ريتشارد كتفيه.

«قليل من المنطق ساد؟ لا أدري.»
ارتعدت أمي.
«سمعتِ أن آلافا كانوا في لانكستر يوم الإعدام.»
فقلتُ، «لا شيء يثير الأحياء أكثر من الموت.»
«ماذا حدث لتلك الفتاة جيل؟ أم كانت آليس؟ ألم يقبضوا عليها؟»
تبادلنا نظرة ريتشارد وأنا.
«لقد حكموا ببراءتها.»
«عجبا، ليس ذلك بالأمر المتوقع، صحيح؟ ظننتُ يقينا أنهم سيدينون الجميع إن أدانوا واحدا. أليسوا قد اجتمعوا لقتل توماس ليستر؟»
قلتُ، «من يدري؟ لم يكن هناك شهود، باستثناء طفلة. كما أن آليس بريئة.»
«وما أدراكِ؟»
راحت يدي إلى الندبة الموجودة في ذراعي وتتبعتُ أثرها من فوق كمي.
ثم قلتُ، «كل ما أرادته هو مساعدة الناس.»
«أين هي الآن؟»
«ليتني أعرف.»
«ألم تخبركِ؟»
نفيتُ بحركة من رأسي.
«ألديها عائلة؟»
تذكرتُ جوزيف جراي، يُغدق الشراب على نفسه في منزله المبني من الطين.

«كلا.»

في تلك اللحظة شرع الصغير يبكي من مرقده أمام المدفأة. كانت المربية تأكل مع الخدم، وثدياي ممتلئان ويهددان بالتسريب، فنهضتُ وذهبتُ لأحمله من المهد الخشبي الذي كانت أمي قد أهدتني إياه منذ أعوام طويلة. اعتدلتُ ببطء ووجدتني أمام الإطار المزخرف فوق رف المدفأة.

رمشتُ، ومررتُ عينيَّ عليه كله، ثم عدتُ أحدِّق فيه. لم أستطع تصديق ما رأيته. بجوار الحروف الأولى لاسم ريتشارد، في المسافة التي تُركت فارغة منذ بُني المنزل، كان الحرف ألف.

كنتُ لأميِّزه في أي مكان، رأيته يُكتب عشرات المرات باليد المهزوزة لشخص يتعلم الكتابة. ولكن ها هو ذاك، كاملا وواضحا. وقفتُ مُتجمدة في ذهول، ثم انطلقتُ أضحك.

"فليتوود؟ ما الخطب؟»

درتُ حول نفسي، وأنا أرفع ريتشارد عاليا وأرقص بسعادة فيما زوجي وأمي يتبادلان النظرات في بهجة حائرة.

هتفتُ، «إنها بخير! إنها بخير.»

كانت آليس جراي هي الصديقة الوحيدة على الإطلاق التي حظيتُ بها. لقد أنقذتُ حياتها. وأنقذت هي حياتي.

الفصل السادس والعشرون

بعد خمسة أعوام

كان ريتشارد يرتدي ملابس الصيد. دخل برأسه إلى البهو الرئيسي، حيث جلستُ أرتق جورب نيكولاس الحريري. بعد الصبي الثاني، تحسنت مهارتي في التطريز إثر معدل الثقوب التي أحدثوها في ملابسهما، أو المزق في عباءاتهما أثناء الانزلاق على الأرض، أو الشقوق في ياقتيهما أثناء التسلق عبر الأغصان. كان على أحد جانبي عدة الخياطة، وعلى الآخر قائمة لا تنتهي من أشياء أردت من جيمس أن يبتاعها من لندن. أتذكر الشيء فأتناول ريشتي في الحال وأدونه. كان آخر ما تذكرته منذ قليل هو أني بحاجة إلى عنبر، لأن الولدين، وأثناء التحامهما بالسيوف الخشبية في محاولة للمبارزة، أسقطا عطوري فتحطمت على الأرض.

«أبي، هلا بارزتني؟ إن نيكولاس يحارب كالأطفال،» قالها ريتشارد وهو يدفع بلعبة شقيقه إلى والده. كان يشبهني، بشعر أسود فاحم وعينين داكنتين جادتين.

«إنه طفل بالفعل،» قلتها وأنا أبتسم لنيكولاس، الذي كان مختلفا عن شقيقه الأكبر كاختلافي عن ريتشارد. كان

يملك شعر أبيه الذهبي الدافئ وعينيه الرماديتين.

«سأفعل عند عودتي، لذا لا تكسرهما قبل ذلك.»

دفع ريتشارد بسيف في ذراع كل من ولديه وسار هائما نحوي. بدا مشتت الفكر.

«ما الخطب؟» قلتها وأنا أرفع عيني للحظة عن خياطتي.

«سيأتي الملك في جولة بالشمال.»

حدقتُ فيه. «متي؟»

«الشهر المُقبل.»

«وهل يعتزم البقاء هنا؟ لا أحد يحبه.»

«كلا، لحسن الحظ، رغم أن التنكر له سيكون خيانة. إنني مسرور لأنه لن يقوم بجولته في العام المقبل عندما أصبح عمدة، لأنه كان سيفعل بلا ريب. لكنه يعتزم الإقامة في بارتون.»

«في بارتون؟ لماذا؟»

«علمي علمك. سوف يقيم في برج هوجتون قبلها، وبارتون في منتصف المسافة بين البرج ولانكستر.»

«لكنه غير آهل.»

«إن الملك لا يعطي بالا للرفاهيات.»

وضعتُ جورب نيكولاس جانبا.

«سيكون علينا تأثيثه، وتعيين خدم... سيؤدي ذلك إلى إفلاسنا. إن الملك يسافر مع حزب من مائة أو أكثر.»

إنه الملك،» قالها ريتشارد بتسليم. «لستُ أكثر سعادة منكِ بالأمر.»

تَمتمتُ، «ذلك المنزل. إنه كاللعنة.»

تجاهل ريتشارد تعليقي. كنتُ أعلم أنه أسكن جوديث ونغلهما في ناحية من يوركشاير الآن، لكني لم أكترث بمعرفة المكان. كان بوسعي تجاهل الأمر برمته في يسر شديد، طالما لديَّ ابناي وبيتي، وكانت هي بعيدة عن الأنظار. أشار ريتشارد برأسه إلى قائمتي فوق المنضدة.

«تعرفين ما العنبر، أليس كذلك؟ قيء الحوت.»

«ريتشارد!»

هممتُ بضربه فقفز بعيدا عن متناول يدي، ليقع مباشرة بين أيدي ولديه الدبقة، فتشبثا بساقيه وتوسلا إليه أن يلعب.

«كفى! إنني ذاهب للصيد وإذا لم تتركاني في الحال فسوف أستخدم كليكما طعما.»

ثم رفع نيكولاس من كاحليه وجعل رأسه لأسفل. صرخ نيكولاس وزعق، مغلوبا بالضحك، وشقيقه يتظاهر بطعنه بالسيف، صائحا، «مت! مت!»

أما پاك، الذي اعتاد ضجيجهما مع إعراضه عن المشاركة وهي في هذه السن الكبيرة، راقب بخمول من فوق البساط. في بعض الأحيان كانا أحيانا ما يُقحمانه في لهوهما، لكنه أُعفي من ذلك اليوم.

سألتُ، «لماذا الأولاد بكل هذا الصخب والشقاوة؟ لماذا لم أُرزق ببنتين جميلتين تجلسان معي وتخيطان؟»

انهار نيكولاس على الأرض، منقطع الأنفاس ويقهقه.

«أبي، خذني معك للصيد!» هكذا طالب ريتشارد، وهو يجذب عباءة والده.

«ليس حتى تصبح أكبر سنا.»

«ماذا نقول لبابا عندما يذهب في رحلة صيد؟»

«لا تقتل الثعالب!» هتف بها كلاهما، وهو يحاول رفع صوته على الآخر.

ابتسمتُ، وتنهد ريتشارد بطريقة هازلة.

«حتى وهم يقتلون الخرانق والأرانب، ويصعبون على صقوري مهمتهم، فأظن أمكما ستحوِّل البندقية إلى صدري إن عدتُ بجلد ثعلب.»

أومأت بصرامة وابتسمتُ، لكني اغتممتُ بالأخبار التي جلبها.

*

استيقظتُ قبل الفجر، فتركت ريتشارد يغط غطيطا خفيفا. وبهدوء أخرجتُ الحقيبة التي كنتُ قد حزمتها وأخفيتها تحت السرير ليلة البارحة، وذهبتُ لأبدل ملابسي، فوصلتُ إلى الاسطبلات مع أول ضوء. كان الصباح صافيا وجميلا، مع شمس مشرقة ولسعة برد خفيفة. ظهر أحد الصبية عند باب على صوت الحوافر في باحة الإسطبل، وأجفل لرؤيتي.

أخبرته وهو يرمش ناعسا، فذكرني بولديَّ، «سأمضي اليوم مع السيدة تاونلي. أخبر السيد من فضلك أن يتوقع عودتي بحلول الظلام.»

كان الطريق مهجورا، وانطلقتُ بسرعة الريح. وبالوقت الذي وصلتُ بعد بضع ساعات، كانت فخذاي تؤلماني، ومشدِّي يضيِّق على بطني، وكنتُ غارقة في العرق. لم أكن

قد قطعتُ كل هذه المسافة على جوادي منذ أعوام، وشعرتُ بذلك في كل عضلة. عندما ترجّلتُ، اتكأتُ إلى الجواد لبرهة، وكان شعره ساخنا ويلمع تحت شمس الظهيرة. ربطته إلى شجرة بعيدا عن الأنظار، وسرتُ بجهد ما تبقى من ياردات أخيرة ورباط الحقيبة يلتهم كفي الرطبة.

نقبتُ بداخلها عن المفتاح، وفتحتُ الباب. عندما جئتُ إلى هنا في آخر مرة كان الوقتُ ليلا، مع ظلال تتراقص في كل مكان، لكن غموضه قد اختفى الآن. كان مجرد منزل قديم خاو يعلوه التراب. آخر ما تبقى من أثاثه القليل انتصب في خور، وتوجهتُ إلى الخزانة القديمة في الردهة التي كانت تخص أبي، فمررتُ يدي فوق أخاديدها وحروفها. لم يكن بوسعي أن آخذها، أو آخذ أي شيء آخر، لذا ربتُّ عليها وكأنها حيوان أليف، ومضيتُ.

نظرتُ في كل غرفة وفتحت كل صوان. لا شك أن الخدم مشطوا كل شيء إثر رحيل جوديث، فأخذوا أعقاب الشموع والإبر والمزهريات المكسَّرة، وكذلك كل فضلة طعام. أردتُ تجنب حجرة الضيوف، حيث أُخذتُ من بين عرائسي لأقابل زوجي الأول، لكنني دخلتُ وقيَّمتها بنظرة سريعة. كانت المدفأة التي جلس أمامها السيد مولينو موجودة، ولكن الغرفة بدون أثاث كانت مجرد غرفة خاوية. أخَّرتُ مخدعي إلى النهاية. كان فيه هيكل سرير واحد فقط - سريري. كانت سرير أمي قد نُقل إلى غرفة مختلفة. تذكرتها نائمة إلى جواري في كل ليلة؛ كنتُ أعتبره تعذيبا في ذلك الوقت، لكني صرتُ الآن أراه بصورة مختلفة تماما.

مضيتُ إلى النافذة ونظرتُ منها إلى الأشجار المتموجة، والأراضي الزراعية الممتدة خلفها. كان يوم صيفيا جميلا، بلا رياح تقريبا. تأكدتُ من فتح جميع الأبواب قبل أن أنزل السلالم مرة أخرى إلى البهو الرئيسي، حيث قابلتُ جوديث قبل خمس سنوات. بدا وكأن شبحها في المكان، يراقبني في ذهابي إلى النوافذ الكبيرة المطلة على واجهة الأراضي. كانت الستائر ما تزال هناك، مليئة بالتراب، وأثقل بلا شك وأعلى من أن يأخذها أيٌّ كان من مشَّط المنزل. لم يكن في المكان كرسي أستريح عليه، أو طاولة أضع عليها أشيائي. جثوتُ على الأرضية الحجرية الباردة تحت النافذة، حيث تدفقت أشعة الشمس وغمرت وجهي، فرفعته لأشعر بالدفء، وأنا أغلق عيني.

ثم شرعتُ في العمل. أخذت علبة القداح الفضية الصغيرة من حقيبتي القطيفة وفتحتها، وطويتُ الخرقة المحروقة في قاعه لتهويتها. سرَّني أن رأيتُ يداي ثابتتان. أخرجتُ حجر القدح والمِشحذ وبدأت أدقُّهما معا. رنَّ صوت الدق عاليا في الغرفة الفارغة، مثلما يفعل في ورشة حدادة. بعد نصف دقيقة من المجهود، أمسكت شرارة في القصاصات داخل علبة القداح، وانحنيتُ لأنفخها بلطف إلى لهيب. وخوفا من أن تنطفئ، حملتُ إليها جذوة، وعندما اشتعلت، وضعتها تحت الستارة. اندلعت النيران بالحال في النسيج الجاف المغبر، وهللتُ بصمت والنار تلعق أسفل الخيوط القرمزية، وتنتشر كالرطوبة. لم يكن في المنزل حواشٍ ولا حطب - كنت

قد عوَّلتُ أن يؤتي هذا ثماره، وقد فعل. جلستُ وشاهدته لدقيقة، وعندما نهضتُ كانت ألسنة اللهب قد غطَّت نص الستار. تذكرتُ المرة التي أمسكت فيها تنورتي بالنيران في منزل جوزيف جراي، فتراجعتُ ولممتُ أغراضي، وأغلقتُ الباب الرئيسي خلفي وأوصدته.

لم يكن بالإمكان أن يقيم الملك في منزل احترق حتى تساوى بالأرض.

وقفتُ فوق العشب الأمامي لوقت طويل، أراقب الغرفة الأمامية تمور بأضواء خفاقة تعسَّرت رؤيتها في نور الشمس، لكنها كانت لتبدو خلابة في الليل. اشتعلت الجدران المكسوة بالخشب في يسر، وعندما اسودَّت النوافذ بالدخان وتيقَّنتُ أن النار قوية وهائجة بصورة تكفي للإتيان على بقية بارتون، استدرتُ للعودة إلى المنزل.

كان أحدهم يراقبني. قفزتُ، مُجفلة، إذ لفتت أنظاري حركة عند نهاية الأشجار. كان ثعلب أحمر خلاب ينظر بثبات بعينيه العسليَّتين الواسعتين واضعا يدا مترددة على العشب. حدَّق أحدنا في الآخر، وتوقف الزمان. واصلت النيران عصفها ورائي، واحتبست أنفاسي في حلقي. ثم رمشتُ، واختفى.

*

كلمة شكر

لو أن إقامة طفل تحتاج إلى قَرْيَة، فإن إقامة كتاب لا شك تحتاج إلى قُرَيَّة. في البداية، أشكر، جولييت - صديقتي أولا، ثم وكيلتي- لأنها أخرجت حلمي إلى النور وساندتني طوال المشوار. وعظيم امتناني يستحقه الأشخاص التالية أسماؤهم، دون ترتيب بعينه: كاتي براون، وفرانشيسكا راسل، وفيليسيتي جيثوا، وبيكي شورت، وفيليسيتي وايت، وكيت هيلسن، وكلير فروست، وكاتريونا إينيس، وسيان توران، وإد وود، ولورين هادين، وبيث أندرداون، وروزي شورت وجون شورت. أشكر لكم النظرة الثاقبة والأفكار اللامعة والحماسة. وتعجز الكلمات أن تصف لمحررتي، صوفي أورمي، والجميع في بونيير زافري، مقدار سعادتي لأن ذا فاميليارز قد وجدت بيتها معكم. عرفتُ أنكِ الشخص المنشود لحظة أن قابلتك، وقد جعلتِ العملية برمتها ممتعة. أوجه امتناني إلى ريتشيل بوليت في قصر جوثورب لإجابتها عن أسئلتي وإلى روبرت بول لتحديث لغة السرد في تدوين توماس بوتس للمحاكمات. أخيرا وليس آخرا، أشكر والديَّ، إيلين وستيوارت، وشقيقي سام، على دعمكم

وحبكم اللامتناهي، وآندي لأنه مشجعي رقم 1 في الحياة. أجدك دائما عندما أحتاجك، وكذلك ستجدني.

خطاب من المؤلفة

عزيزي القارئ،

أتانـي الإلهـام لكتابـة ذا فاميليـارز عندمـا زرتُ قصـر جوثـورب فـي باديهـام، لانكشـر، ولاحظـتُ تل پنـدل من إحدى نوافـذ غرفـة النـوم. لقـد نشـأتُ فـي المنطقـة وكان التـل مرادفـا لأسـطورة سـاحرات پنـدل. وكان عندهـا أن خطـرت لـي فكـرة كتابـة روايـة عـن أحـداث عـام 1612م، تحكيهـا امـرأة أرسـتقراطية شـابة تسـكن جوثـورب. بـدأتُ أنقِّـب فـي تاريـخ المنـزل وعائلـة شـاتلوورث، واكتشـفتُ أن سـيدة القصـر فـي ذلـك الوقـت كانـت امـرأة فـي السـابعة عشـر تُدعـى فليتـوود، ومـن هنـا دبَّـت الحيـاة فـي قصتـي.

كنـتُ كلمـا تعمَّقـت معرفتـي عـن سـاحرات پنـدل، ازددتُ افتتانـا. كان أكثرهـن جيرانـا. وجميعهـن كمـا أُشـيع لـه تابعـة – وبعضهـن يتحولـن. زعمـت إحداهـن أنهـا قابلـت الشـيطان. وعديـدات منهـن اعترفـن بممارسـة السـحر. كـنَّ يعرفـن أن عقوبـة ذلـك هـي الإعـدام، فلمـاذا قـد يعترفـن بذنبهـن؟

إن ذا فاميليـارز هـي محاولـة للإجابـة عـن أسـئلتي الخاصـة، ورغـم أنـه عمـل خيالـي، إلا أن معظـم الشـخصيات حقيقيـة، والكتـاب قائـم علـى التسلسـل الزمنـي التاريخـي.

آمل أنه زاد فيك الرغبة لمعرفة المزيد عن ساحرات پندل وكذلك آليس وفليتوود.

إذا رغبتَ في الحصول على المزيد من المعلومات عنها، وعن روايتي السابقة، فلربما تحب الانضمام إلى نادي القراء الخاص بي. لا تقلق - فهو لا يلزمك بأي شيء، وبدون أي مقابل، وستظل معلوماتك الخاصة قيد السرية. ستستقبل تحديثات حول كتبي، بما في ذلك العروض وأحدث المنشورات وحتى الهدايا الدورية! يمكنك إلغاء الاشتراك في أي وقت. للتسجيل، كل ما عليك فعله هو زيارة موقع www.staceyhalls.com.

يمكنك أيضا التواصل معي عبر Stacey_Halls على تويتر. أتمنى أن أسمع منك قريبا، وأن تستمر في قراءة كتبي والاستمتاع بها.

شكرا لدعمك،

ستايسي

حاشية تاريخية

إن فليتوود شاتلوورث وريتشارد شاتلوورث وآليس جراي وروجر نويل وعائلة ديفيس وعديد من الشخصيات الأخرى في الرواية هم أشخاص حقيقيون، لكن رواية ذا فاميليارز هي عمل خيالي. كانت فليتوود شاتلوورث (المولودة عام 1595م) سيدة قصر جوثورب خلال محاكمة الساحرات، وأنجبت طفلها الأول في عام 1612م، لكن لا شيء في التاريخ يربطها بآليس. إلا أن زوجها ريتشارد، كان حاضرا في المحكمة -التي فيها مثلت آليس جراي والعشر الأخريات من ساحرات پندل أمام القضاء في آب من عام 1612م- ربما لأن المحاكمات استقطبت اهتماما كبيرا في زمنها. لم يُذكر عن آليس جراي شيء بخلاف ما رواه توماس بوتس في تدويناته، الكشف المذهل عن ساحرات مقاطعة لانكستر. لسبب غير معروف، لم تُسجَّل محاكمة آليس في كتاب بوتس. أما لماذا كانت الوحيدة بين ساحرات پندل التي حصلت على البراءة فيبقى لغزا.

أسئلة مجموعة القراءة

1. استُهدفت النساء بصورة جائرة في عمليات قنص السحرة بذلك الزمان. ما السبب في رأيك؟
2. إن آليس وفليتوود من طبقتين شديدتي الاختلاف، لكن حياتيهما تتشابهان في العديد من الأوجه. ناقش الأوجه المشتركة بينهما - هل إحداهما «أفضل حالا» من الأخرى؟
3. ذُكرت التوابع بصورة مُبهمة في الرواية. هل تعتقد أنهم لعبوا دورا حقيقيا في القصة أم أنهم كانوا من وحي الشك؟ ولماذا لم يُصنَّف پاك واحد منهم قط، رغم الدلائل الافتراضية التي تُظهره تابعة، مثل مص دماء سيدته والهجوم عند الأمر؟
4. لم تخبر فليتوود أحدا عن الاعتداء الذي تعرَّضت له وهي طفلة لأنها خافت أن أحدا لن يصدقها، ومع ذلك أساءت الظن في جينيت ديفيس، والتي هي طفلة بدورها. هل ترى أنها كان يجب أن تظهر مزيد تعاطف مع جينيت؟
5. ملاحقة روجر لساحرات پندل تطوَّرت من إبراز السلطة إلى هوس شرير، مثل «كش الورق على طاولة

اللعب». هل ترى أنه كان يؤمن حقا في كونهن ساحرات أم كان ذلك مجرد ستار يخفي شيئا آخر؟

6. علاقة فليتوود بماري علاقة معقدة، لكنها نمطية لمراهقة وأمها. هل كانت ماري معذورة في التزامها الصمت، وهل ربما كانت فليتوود قاسية عليها؟

7. لم يكن ريتشارد بطلا رومانسيا كلاسيكيا، ولا كان شريرا كذلك. ولكن هل تغلب عليه إحدى الصفتين؟

8. هل ترى أن آليس كانت ساحرة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

من أجل أن تنجب طفلا،
ستضع ثقتها في غريبة.
من أجل أن تحمي سرا، عليها
أن تضع حياتها في الخطر.

لانكشر، عام ١٦١٢م. فليتوود شاتلوورث، هي زوجة في السابعة عشر وحامل للمرة الرابعة. لكنها وهي سيدة قصر جوثورب، لم يعش لها وليد من قبل، وزوجها ريتشارد يشتاق إلى وريث. عندما تعثر فليتوود على خطاب لم يكن مفترضا أن تقرأه من الطبيب الذي ولَّد آخر جنين ميت لها، تُمَنَّى بالضربة القاضية التي تقول بأن جسدها لن يحتمل حملا آخر.

ثم تلتقي صدفة بآليس جراي، القابلة الشابة. فتعدها آليس بمساعدتها على إنجاب طفل سليم وإثبات خطأ الطبيب.

وإذ تتورَّط آليس في تهمة السحر التي تجتاح الشمال الغربي، تخاطر فليتوود بكل شيء لمساعدتها. ولكن هل تخفي آليس أكثر مما تُظهر؟

لا تلبث حياة المرأتين أن ترتبطا ارتباطا لا ينفصم مع اقتراب موعد المحاكمات الأسطورية لساحرات پندل، وبطن فليتوود التي تكبر. ينفد الوقت، وتصبح حياة كلتيهما على المحك.

هما فقط تعرفان الحقيقة.

هما فقط تملك إحداهما أن تنقذ الأخرى.

مكتبة

www.darmolhimon.com
ISBN 978-9948-39-409-9
9 789948 394099
ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON